الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
جامعة وهران – السانيا-

كلية الأداب و اللغات و الفنون **قسم اللغة العربية و آدابها**

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي المعاصر

الذات و الأخر في الخطاب الذاتي المغربي المعاصر "حفريات في الذاكرة من بعيد" محمد عابد الجابري "أنموذجا"

مشروع السيرة الذاتية في الأدب العربي المعاصر

إعداد الطالبة : تحت إشراف الأستاذة:
بلعيدوني محمد خديجة زعتر

لجنة المناقشة :

الأستاذ الدكتور: شرشار عبد القادر رئيسا

الأستاذ الدكتور: زعتر خديجة مشرفا و مقررا

الأستاذ الدكتور: عبد الله بن حلي مناقشا

الأستاذ الدكتور: محمد بشير بويجرة مناقشا

السنة الجامعية : 2012-2013

إهـــــــــــــــــــــــداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى أول من نطق بها لساني

و رعت أناملي حتى رفعت القلم و استوى على لساني الكلام. أمي

وإلى من آثار على نفسه من أجلي حتى هانت الصعاب، هو الأب

كما أهديه إلى من ساعدني من قريب أو من بعيد لإنجاح هذا

العمل، وإلى من اختارهارها لي القدر فكانت لباسا ساترا

و

إلى كل أفراد الأسرة الكبيرة

على وجه الخصوص الأخ ميلود و الأخت النبيلة زوليخة

مقدمـــــــــــة

الأدب في كل العصور وعند جميع الأمم ،هو تعبير عن الهوية ومنطلق الحضارية وإرثها التاريخي ، ولهذا كان اهتمام العرب كبيرا بالتراث العربي الذي يعكس حقيقتها الأدب العربي و يحملها بالمجمل ، عصور الازدهار وقلة الاهتمام ، إن نقطة الضعف التي يجدها الغرب اليوم في أدبنا هو ترديدنا لبعض نظرياته في الأدب ، ثم هو ترديد لا استيعاب ولا تمثل فيه حتى أن المستشرقين وجهوا للأدباء العرب بأن تكون كتاباتهم عربية خالصة ، وبهذا يأخذ مكانته بين الآداب العالمية بتفرده وأصالته .

لو تجاوزنا كل هذا إلى جوهر كل كتاب ، يجلب لنا قدرة الواضحة على فهم خصائص السيرة ضمن حركة التاريخ القومي والإنساني نلمسها في مواطن و مواضع ساطعة من الكتاب ، فليس من الشك أن في أن كتابة تاريخ الرجال إسهام من نوع ما من فهم وتفهم الطبيعة البشرية ،لا مجرد رواية الأحداث الحياتية والإشارة إلى سنة الولادة والتحصيل العلمي والهويات ، فالحديث عن الفرد و الوقوف على حالاته وأوصافه النفسية والعاطفة يدفعنا إلى القول بأن كتابة يجب أن تعكس الذات من جوانب مختلفة ، وأن تكون معطيات النص خليط كيمياء للجوانب النفسية و الفكرية و الثقافية و التي تشملها الحياة الاجتماعية شخصية

و مع هذا فإنه يجب أن لا نغفل عن تحديد المكانة التي تحتلها السيرة الذاتية من الأدب على اختلاف مستوياتها و مقاصدها و أشكالها ، بأنها تمثل المحك فيما يخص قضية فصل كتابة التجارب الذاتية عن الأدب بمفهومه العام ، و على حد المفهوم المطلق، فإن الأد يب لا يكون أديبا إلا إذا تغلبت عليه الذاتية المفرطة وخرجت به عن حدود الإنسانية إلى حدود الذاتية ، وعن حدود التـأمل إلى حدود التقرير وعن حدود المونولوج إلى حدود الديالوج .

إذا كانت الكتابة في مجملها تحاكي الواقع وإن بالخيال ، فالسيرة الذاتية تحاكي الواقع في حديثها عن الذات ، ليس بما يفسر طغيان الذاتية التي تختلف عن الموضوعية وإنما هي مؤشر خاص ، مرتبط برؤية خاصة للمحيط حولها ، معنى هذا أنه لا يمكن البحث عن الذات التي تسعى إلى إيجاد نفسها إلا بمعرفة و وعي ، يتجلى ذلك في تحري الصدق القائم على العرض والتحليل والفحص والتمحيص الذي يضمن تقابلا في جميع الأحوال مع الذات و المجتمع ، سواء بإعلانه أو بإضماره ، وإلا فكيف نفسر إثارة الحقيقة و الخيال و التصريح و التلميح .

هل أصبح الاعتراف للذات كأنما يتصعد إلى الوعي ليكبح في الحلقوم نبرة أو منطق صاحبه؟، فطرق التعبير كثيرة ولو بالإشارة و الرمز و التلميح او حتى الإيماء، فالذي لا يرى يمكنه أن يسمع ، فوراء كل حدث فاعل ولكل نتيجة سبب.

لا شك إن كان جنس السيرة الذاتية في المعاصرة، قد اتخذ قوالب التي تفرضها المضامين و الأهداف و المقاصد ، بحكم اختلاف البيئة و المحيط ، فالخطاب السير ذاتي المغربي المعاصر

يعكس معرفة الذات بالسعي وراء فك الألغاز، أنها دائمة البحث عن نفسها في ظل الاضطرابات التي أصبحت تهدد وجودها ، جعلها تنشد إلى معرفة الإنسان لذاته من حيث أنها الغاية السامية التي سعى وراءها الفلاسفة و المفكرين و الأدباء في سبيل الكشف عن أسرارها منذ سقراط الذي ناد بالكلمة المشهورة "اعرف نفسك" .

و ما كان اللذات أن تعرف نفسها إلا بمعرفتها للآخر، لأن الإنسان المتأمل في نفسه قد يعرف ألوانا من الإيديولوجيات التي تركت آثارها القوي في وجدانه وجعلته يعرف ذاته في أعماقها ، لأنها، انعكست في حديثها و لا سيما في النصوص السير الذاتية ، التي سايرت الأدب العربي عبر عصور متوالية ، وما كان للسيرة الذاتية إلا أن تحمل خصائص كل عصر و انشغالاته ، إلى أن رست بها السفينة على جزيرة ظنا منها أنها على شاطئ الأمان ، ذلك لما يعانيه النص من الداخل و الخارج في تحديد جنسه ، وما ذلك إلا انعكاس لمعاناة الذات ، لأن نظرة الآخرين إليها هي التي تهددها .

فقد أثار النص السير الذاتي جدلا كبيرا بين النقاد قلبا وقالبا، وبحكم محبتي لقراءة كل ما يتعلق بالآخرين من باب الإطلاع ، رأيت في هذه الدراسة المتواضعة أن أحاول الاحتكاك بأهم المفكرين و النقاد لأعمق آليات التنقيب على الذات في النص لندرك شخصية المؤلف ، وعليه لم يقع اختاري للأدب المغربي إلا بقدرة قادر وكانت الأستاذة القديرة في ذلك طرف ، حيث منحتني كتاب يحيل إلى **الأدب المغربي المعاصر**، فما كان لي إلا أن أعرف نفسي في التعامل مع نص الفيلسوف و المفكر و الناقد المغربي **"الجابري محمد عابد" "حفريات في الذاكرة من بعيد "**.

مع العلم أن هذا البحث الذي نقرأ مقدمته لن يكون قادرا على أن يستحوذ على قدر مماثل من محبة للقراءة الحرة ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية تحب أن تستمتع بالفن ، لكنها قد لا تستمتع إذا حدثتها عن الطريقة التي كانت وراء ظهور فن ما على هذا النحو ، فرأيت أن يكون البحث في تتبع وتقف أثار الذات في واقع النص وتجلياتها .

لاحظت ـ بحكم ما جادت به بعض الدراسات ـ أن النصوص المغربية المعاصرة أخذت أشكالا مختلفة من الكتابة و التصنيف و الترتيب فضلا عن أسلوب التعبير ، يعود ذلك إلى طبيعة المؤلف و مرجعيته ، حيث أثرت فيها مؤثرات مختلفة من بيئة و تعليم و ثقافة و معرفة بالناس ، أليس في ذلك منبت للآخر ، الذي تتجلى سلطته حسب تفاعل الذات معه ، وفي ذلك تعدد للآخر الكامن في طيات المجتمع و الفكر و الطبيعة ، و فيكل ما يطبع على الذات القلق و يثير انفعالاتها .

عرضته على الأستاذة "زعتر خديجة " فقبلت بيه و نصحتني لدراسة هذا الموضوع بالتركيز على الذات مع بقاء الآخر في الأفق الذي يحيط بالذات أينما وجدت.

وجهتني الأستاذة المشرفة نحو الوجهة الصحيحة للبحث العلمي الأكاديمي ، فكانت خير موجه ، حيث الصورة الصحيحة لإنجاز هذا البحث الذي ينحصر في إطار نقدي أدبي ، وذلك

انطلاقا من طبيعة الموضوع نفسه . وعليه كان عنوان البحث **"الذات و الآخر في الخطاب السير الذاتي المغربي المعاصر" .**

شرعت في البحث ، ولكن اعترضتني بعض الصعوبات منها تشعب الموضوع و اتساعه ، إلى جانب عدم توفر بعض المصادر السيرة الذاتية المغربية المعاصرة ، فما كان لي إلا أن أكتفي ببعض المقتطفات المبثوثة على صفحات المراجع ، ولكن رغم ذلك تحصلت على بعض الكتب النقدية ، من أهمها دراسة عبد القادر الشاوي" الكتابة والوجود " السيرة الذاتية في المغرب ،ساعدني كثيرا في معرفة الجو المعرفي و الفكري إلى جانب دراسة في الأدب المغربي المعاصر" الدكتور عبد الحميد يونسي و الدكتور فتحي حسين المصري ، الذي أثار فيه التوجه السياسي و الاجتماعي الذي أوجد هذا الصراع بين الذات و الآخر .

+

و لتفصيل هذا الموضوع بالدراسة و التحليل فقد قسمته إلى فصلين سبقتهما بمخل ثم تتلوهما خاتمة .

في **المدخل** أسست للمجال الذي يحدده العنوان من حيث تقديم بعض المفاهيم التي تتعلق بمصطلحي الذات و الآخر، فكان التركيز على مفهوم الذات ، وذلك في كتابة السيرة الذاتية ، فتطرقت عنصر الذات و كتابة السيرة الذاتية .

أما **الفصل الأول** الذي خصصته للحديث عن تجليات الذات في السيرة الذاتية المغربية المعاصرة، بما له علاقة بالآخر ، وذلك في ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : يحتوي على أهم الدوافع في كتابة السيرة الذاتية المغربية، منها الدوافع الداخلية و التي تعتبر من الأقوى ، إلى جانب الدوافع الخارجية.

المبحث الثاني : الذي يحتوي على أهم المضامين المشتركة التي طالت الذات المغربية في هذا العصر، بحكم التماس بينها و بين الآخر، الذي ولد الاغتراب و التمرد على السائد ، مما جعلها في صراع بين " الأنا و "النحن".

المبحث الثالث : ما توجهت بيه الذات في السيرة الذاتية المغربية ، في نقدها للواقع المحلي موازاة مع انبهارها بالعالم الآخر .

المبحث الرابع : الذي أفردته للأشكال و القوالب التي تبنتها الذات في كتابتها للنصوص السير الذاتية ، من رواية السيرة إلى اليوميات ، إلى المتخيل الذاتي .

الفصل الثاني : الذي أفردته كدراسة تطبيقية لإجلاء أهم النقاط التي أثرتها في الفصل الأول ، انطلاقا من تمهيد بأهم دوافع الجابري لكتابة نصه "حفريات في الذاكرة من بعيد"، إلى جانب ما يحمله العنوان من معنى .

المبحث الأول : البحث عن مكمن الذات في النص"حفريات في الذاكرة" وما يربطها بالماضي كذات اجتماعية وفكرية و ثقافية ، ولم يكن ذلك بمعزل عن الآخر، باحثة عن شخصيتها بكل معانيها في التاريخ ، والنظام الاجتماعي و التوجهات الفكرية التي طالت الثقافة العربية .

المبحث الثاني : الذي يوضح تجليات الآخر في الذات و تعدده ، منه الظاهر، المجتمع و الاستعمار، و منه المضمر الثقافي ، وما تولد عنهما من صراع في ثنايا الذات.

المبحث الثالث : يحتوي على الجانب الفني للسيرة الذاتية تقنيات في كتابة ، من حيث اللغة و البنية السردية المساعد للاستعادة و الاستحضار، وما استعارته من تقنيات الرواية ، كما نراها في ذات الأمر تدافع عن حقيقة الأنموذج كسيرة ذاتية .

ومن هنا لا يمكن الحديث عن الفن دون الاعتماد على التحليل الاجتماعي الذي ساهم بشكل عميق في وعي الإنسان بذاته ، كما شكل منعطفا حاسما في مسار اكتشاف الإنسان فرض آلية القراءة السوسيولوجية ، والواقع أن الكتاب العرب اليوم في حاجة ماسة إلى معرفة أنفسهم ، وماذا يريدون ولماذا ولمن وكيف يكتبون ، قبل أن يخطوا سطرا واحدا ، لأن المكونات الأساسية لذهنيات قراءتهم قد تغيرت على مستوى المفاهيم والقيم و وطرق التعبير.

كما لا يمكن دراسة الأنواع الأدبية و فنونها بمعزل عن البيئة و أثرها ، أو تخطيها أو القفز فوق جوانبها أو التغاضي عنها لما لها من عوامل يمكن أن تكون سياسية أو إقليمية في ظروف الحرب و السلم و في الجوع و الغنى وفي عهد الرأسمالية أو في ظل الملكية و الليبرالية ، وإلا فكيف نفسر ظهور فنون وغياب أخري، وفي أحيان أخرى تنبثق من ما كان قبلها ، حتى التصنيف وفق متغيرات حسب الأزمنة ومن مكان إلى آخر

فالسيرة الذاتية ليست هي التي كانت عند ظهورها من حيث الصيغة التي تتجلى فيها الذات ، الدوافع ، المقاصد مراعية في ذلك طبيعة الأخر،في علاقة التأثير و التأثر دون أن يكون هناك مزج في المجتمع و التاريخ ، بل في الأدب الذي أفاد الحقائق التاريخية بشكل غير مباشر .

وختاما ، أتوجه بالشكر إلى الأستاذة الدكتورة زعتر خديجة التي تكبدت عناء متابعة البحث رغم انشغالاتها بتوجهاتها ، وقد أثمرت هذه المتابعة فلها جزيل الشكر و العرفان. كما أشكر أعضاء لجنة المناقشة و أشكر كل أساتذة كلية الأدب بالجامعة.

أعز الله بهم الدين جميعا .

المـــــــــدخل :

الذات والآخر فى كتابة السيرة الذاتية :

1) ـ مفهـــــوم االذات :

يعطي معظم الكتاب مفهوم الذات بأنه فكرة الشخص عن نفسه ، وأنه تنظيم إدراكي انفعالي معرفي متعلم يتضمن استجابات الفرد عن نفسه فيها ، وهي ما يشار إليه في الكلام بضمائر المتكلم " أنا الفاعلة و ياء المتكلم " وكان (weiliemjems) يرى أن الذات في المجموع الكلي لكل ما يرى الفرد متجاوزا المنظور المادي للذات إلى المجال الشعوري الذي يحقق التكامل وتعدد فيه الذوات وتختلف كما أنه أشار إلى ثلاث ذوات :

1 الذات المادية : وهي ذات ممتدة تحتوي بالإضافة إلى جسم الفرد على أسرته وممتلكاته
2 ـ الذات الاجتماعية وتتضمن وجهة نظر الآخرين نحو الفرد
3 ـ الذات الروحية : وتتضمن انفعالات الفرد ورغباته (1)

وإن ما تصدره الذات نحو البيئة المحيطة ، وعلى الأخص بالنسبة للمجتمع الذي تعيش فيه وفق تكوين معرفي يعبر عن الذات من خلال مدركاتها الشعورية وتصوراتها وخياراتها التي اكتسبتها بالتأثر، و تكون الذات ذاتا إذا قامت بمثل ما قام بيه الآخر بعلاقة التأثير فيه ، إلا أنها تملك موقفا واعيا نحو نفسها سواء كان سلبا أو إيجابيا ، بحكم أنها (الذات) تتعلم من خبراتها ونظرتها إلى العالم المحيط و الحياة و الموجودات بنظرة تعكس وجودها كذات .

إن التأمل عامة هو انعكاس الفكر على الذات ،فهناك أفعال تأملية طبيعية تتم تلقائيا مثل الإدراك الحسي و التذكر والتقويم وغيرها ، أي أنها تستهدف تحقيق هويتها و تتشكل الأنا"،وفق امتلاك مستمر تكتسب فيه لنفسها كل فعل تقوم بيه كالحلم والتذكر ،حتى وإن تخلت عن هذه الأفعال المعاشة باعتبارها ملكة في إعادة خاصة بيه يواجهها باستمرار، و هذه المواقف المعاشة التي تؤدي إلى اكتشاف الأنا الحامل لخواصه الدائمة التي أتت في صورة لاحقة بعد هذه الحالات

(1) ماجدة موسى : مفهوم الذات الاجتماعي وعلاقته بالتكيف النفسي والاجتماعي لدى الكفيف، مجلة جامعة دمشق المجلة 26 ملحق 2010 ص 417

ومهما تنوعت وتحولت الأفعال الخاصة والظروف المعاشة ،فإن الأنا يظل يحتفظ لنفسه في وسط هذه التحولات بأسلوب وبطابع شخصي لا يتغير ، يجعل الذات تخضع لخصائص النمو وقوانينه العامة متجهة في تحقيق غرض ضمني هو النضج مع العملية النمائية وتعقيداتها تشتمل على الجوانب العامة التي تحدد الذات في أصلها ، بهذا يتشكل بنيان الإنسان وتجسد كيانه، سواء أ كانت جسمية أم عقلية انفعالية أم وجدانية أم اجتماعية، فيبدأ الفرد في تكوين نظرة نحو ذاته ، تتضمن أفكارا ومدركات حولها ،حتى يكون موجودا في هذا العالم مع الآخرين الذين يختلف معهم أو يتمايز عنهم بالفعل ، وبهذا يكون الآخر في الشعور الداخلي باعتباره موضوعا تدرك بيه الذات ذاتها ،" كلما تعمق في إدراك الآخر ازداد إدراكا لذاته الخاصة ، لأن ذلك يحيلني تلقائيا إلى إدراك ذاتي باعتبار أن الآخر هو نظير الموجود بوصفه غريبا عني لا يخصني "(1) .

إن امتلاك الضمير للتعبير عن الوجود الفردي ليس صيغة نحوية للدلالة على الحضور وقت النطق فقط ، كما لا يمكن النظر إليه كمقولة تقوم بوظيفة التواصل على مستوى التلفظ (الفعل الفردي لاستعمال اللغة) حصرا ، بل هو كذلك بوعي و بالشكل المعنوي الذي يضفي على الذات صفات ليست لغيرها ، وإحساس بالتميز لا يشكله التباس ، وهوية مستلبة تتأسس على الفرادة المصطفاة بين الجواهر الفردية الأخرى، فالضمير بمعنى الشخصية هنا أيضا ، يستمد فرادته كما يقول بول (RICOEURpaul) من وحدة حياته معتبرة ككلية زمنية فريدة بدورها تميزه عما سواه (2)،وهي الصورة المنظمة المتكاملة لجميع مكونات الفرد ووظائفه ا والنفسية والاجتماعية التي يشعر هو ذاته بها ويشعر بالآخرين بتميزه من خلالها بمظهرين :

مظهر ذاتي :هو شعور الشخص بذاته ، وهي الصورة الشخصية كما تبدو في مرآة الذات أو هو الشعور بالأنا المتميزة من الآخرين ، "فالشعور بالتميز عن الآخرين شرط أساسي من شروط الشخصية ، فالذي لا يشعر بتميزه عن الآخرين "فرد" وليس شخصية" (1) يجعل الحكم في علاقة اعتباطية ،أي أنه صادر من الذات ولا يعبر إلا عن طريق الذات ولا يعبر إلا عنها ، فالشخصية هي تحقيق للذات وفق ما يميزها ، في تعدد الرؤى فمنها ما يبحث عنها بمعزل عن الآخرين ، فيكثر التفرد و يتبدد الأخر في اللاوعي ، لكن البحث عن الذات لا يكون بالاعتراف بوجود الأخر .

---

(1) انظر سماح محمد : الفينومينولوجيا عند هوسرل، دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 1991ص178

(2) عبد القادر الشاوي: الكتابة و الوجود ، ص 88

فلا يمكن أن ندرك الحقائق إلا بالنقائض، و وراء كل ظاهر جوهر ، فالوعي كقطعة جليد تعلو سطح البحر لا فيه تطفو، ولا يكون ذلك إلا بوجود قاعدة عريضة خفية تحت مستوى البحر

مظهر موضوعي : فهو صورة الشخصية في نفس الآخر كما تبدو في مرآته (الأخر) ، أو هو الأثر الذي يتركه "سلوك" الشخصية في نفوس الآخرين ،غير أن هذين الوجهين غير منفصلين في الواقع والتخيل ، وحده الذي يستطيع أن يفصلهما ، فهما متكاملين ، و يؤثر الواحد منهما في الآخر ،"فصفات الشخصية الموضوعية تتغير بتأثير النظرة الذاتية، كما أن نظرة الآخرين تؤثر في الشعور بالذات " (2) ، فهو في اللغة العربية المخالف والمعارض وهو أيضا في بعض الحالات ،الطرف المقابل الاسوء، ويتأكد هذا المعنى في اللغة اللاتينية، حيث أن الغير (AUTRUI) مشتق من (alter) وهو الأجنبي والمخالف ، وهو عند الإغريقيين ،وغير الإغريقيين (البربر) و البربر عندهم ليسوا بشرا في الأصل ،لأنهم خارج حضارتهم ، وهذه الظاهرة عرفتها كثير من الشعوب والأمم عبر العصور والحضارات .

وهي في المجال الفلسفي خلاف الأنا أو الهوية ، بحكم حتمية العلاقة مع العوامل الخارجية ،"أنه الأنا الذي يشير إلى كل ما كان موجودا خارج الذات المدركة ومغايرا لها ومستقلا عنها ، فهو الآخر الذي يشارك الذات حياتها من انتماء عرقي وحضاري و ثقافي ، وعلى هذا يتحدد الغير في جميع الأحوال بالسلب ، فهو ليس الذات أو الأنا مما يجعل من الغير هو الآخر "(3) .

---

(1) انس شكشك،علم النفس: القوى النفسية المعرفية،والقوى النفسية المحركة للسلوك،دار المنهج ط،1998 ص 137

(2)نفس المرجع ص 134

(3) جمال الدين بوقلين : إشكاليات فلسفية، متبوعة بنصوص فلسفية مختارة ،للسنة الثالثة ثانوي،لغات أجنبية إشراف الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية ص194

2) - مفهوم الآخر :

على الرغم من أن الآخر يستغل في الفضاء مكانا مغايرا عن مكان الذات ،فإنها تعقد له شعورا وفكرا وكتابة وحياة انفعالية من نفس طبيعته و تنتسب الذات إليها الحياة الذهنية

بعد مفهوم الآخر أحد أكثر المفاهيم حضورا وتداولا في عالمنا اليوم ، ويجري الحديث عنه في مختلف المجتمعات والثقافات والحضارات ، وبات يتصل بالعديد من المجالات والميادين ويتلون بها ، فهناك الحديث عن الآخر السياسي والآخر الديني ، وفي المجال الفلسفي هناك الحديث عن الأخر الفلسفي وهكذا في المجال الثقافي والاجتماعي و الاقتصادي ، ولاشك أن العولمة والتطورات المذهلة قد أسهمت بفاعلية كبيرة في إثارة هذا المفهوم بكونه شديد الصلة بمسألة الهوية التي توجز الحديث عنها ، وأصبح هناك تلازم في الحديث عن العولمة والهوية .

بالنسبة لإنفراد الأنا بالوجود (لا وجود لغيره ، فهي ترسم دائرة منفردة ، لأنها تبتر الغير بالفكر و الحساس ، أليس هذا التعامل يزيد الذات انفرادا بالنسبة لهذا الغير ، إنها تتقيد أكثر في أعماق هواه ، فإن السعي وبإرادة نحو التحرر ما هو إلا دليل على وجود قيود كيفما كانت طبيعتها و الهيئة الصادرة منها ، فالغير بصفته غيرا في حد ذاته ،لا يوجد إلا بالنسبة للذات و بمقدار انفتاحها عليه .

الآخر مقوما أساسيا مكونا للأنا والوعي بيه ، والنقطة الأساسية عنده تتمثل في صلة بين الذات والآخر ، فوجود الآخر شرط بوجود الذات بتحديد أطرها ، فهو شرط لمعرفة نفسها ، ولذلك يصبح اكتشافي لداخلي اكتشافا للآخر (الإنسان) الذي هو كائن منظم تدور حوله الأشياء التي في العالم ، وهو الذي ينظر إلي باستمرار ، وفي ذلك إمكانية تحولي بالنسبة إليه إلى موضوع ، وهو موضوع أصبح موجودا للغير .

فالآخر في أكثر معانيه شيوعا يعني شخصا آخر أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحدة بالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة يتحدد الاختلاف معه أو معها وهل في هذا صراع تكامل ،اتصال أم انفصال؟ ، فإدراك الآخر يتحدد من خلال الاتصال بيه و هو اتصال تمثله العلاقة التي تربط الأنا بالآخر ، وهذه العلاقة هي علاقة تناقض يحصل عنها وعي الذات ووعي ذات الآخر في إطار من الصراع والمخاطرة يقضيان في الأخير إلى وعي الأنا لذاته ووعيه لذات الآخر ، ونلاحظ هذا برضوخ في الجدلية المشهورة في أن الذات تتعرف على نفسها وعلى الآخر بواسطة علاقة التناقض التي تجمع بين العبد من جهة و السيد من جهة أخرى ، التي تعكس حرية الذات و العلاقة بالآخر.

نعلم إن تصارع الوعي مع الآخر كي يعترف بيه على أنه السيد قد تخلى عن الأشياء المادية و الحق وجوده بالآخر (العبد) ، ولم يخاطر العبد بنفسه ولم يضح بها ، استغل السيد هذا الوضع ، فكأن أنشأ عنه صراع ونتيجة حقوق العبد وعدم مخاطرته ينتصر ، فيصبح بذلك السيد

، و في هذه الحالة تنشأ بين الاثنين علاقة ، فالسيد لا يقتل خصمه بل يحتفظ بيه كبيان لسيادته و أداة لتحقيق مآربه ، أما العبد من خلال ما يوفره إليه سيده يدرك أنه يؤثر في الموضوعات و الأشياء ، وهذا الصراع يؤدي إلى أن يدرك كل منهما بصورة أو بأخرى أناه و في نفس الوقت يدرك الآخر " (1) .

(1) سعاد حرب :الأنا والأخر والجماعة ، دراسة في فلسفة سارتر، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ط 1 ،49ص 07

3) ـ كتابة السيرة الذاتية :

إن الساحة العمومية هي في جوهرها السلطة في حد ذاتها ، أما الإنسان السيري (صورة الإنسان) فلم تكن له حميمية و لا خصوصية ، بل كان مفتوحا من نواحه أجمعها على الخارج(مركبا و مسموعا) ، إلى درجة أنه لم يكن هناك فرق جذري بين الموقف من حياة الآخر و الحياة الشخصية ، حتى كانت هناك تحولات بطبيعة التغيير سهل ظهور وحدة الإنسان العمومي ، و تبين أن التمجيد الذاتي قد لا يكون سوى مظهر أكثر رياء لهوية المسعى السير الذاتي في علاقتها بالوجود(1) .

يبدو أن القرنين السابع و الثامن عشر لم يعرفا إنتاجا ذا بال في مجال الترجمة الشخصية إلا ما كان من بعض النصوص التي صدرت من قبل ،(التعريف ابن خلدون)، لان الجمود الفكري الذي طال الحياة في العالم العربي ، غير أن الاتصال الذي تحقق للعرب بركب الحضارة ، سار بها في سبيل البحث عن مقومات شخصيتها العربية ، ومن قضايا التي لم تظهر إلا بظهور السيرة الذاتية ، تشخيص سمات الهوية للمرأة العربية بالدرجة الأولى ، إلى جانب ما تم تمحيصه تاريخيا قصد إيجاد المشترك ولو على مستوى بعيد (العربي و القومي)، وقد ترافقت هذه المرحلة مع نشوء الطبقة المتوسطة و الشعور القومي ، إلى جانب بروز الشعور بالحرية الفردية و الاستقلال الذاتي(2).

إن الكاتب شخصية إنسانية تعبر عن الحياة كما تحسها لا كما يراها غيرها ، فالسيرة تعبير عن الإنسان ،له ذوق وفهم خاص خصوصية التجربة ، فلا يستشير فيها الآخرين ولا تستبعد فيها الآخرون(3) ، لأن الإنسان مخلوق اجتماعي بالتفاوت بحكم ما زودته إياه الطبيعة من قدرات و محاولته التكيف مع البيئة الاجتماعية مستعملا هذه القدرات ، ونؤكد على أن كل فرد هو شخصية فريدة بما تمتلكه من دوافع و قدرات و مواهب و اهتمامات ، مما يكس الشعور الذي يدفعه إلى تحديد الأفق الذي تتوقف عنده الغاية(4) .

---

(1) انظر الكتابة و الوجود: السيرة الذاتية في المغرب ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء2000 ،ص10
(2) نفس المرجع : ص21
(3) عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، الشركة العالمية لون جمان، القاهرة 1992 ، ص51 .
(4) انس شكشك: أستاذ محاضر في كلية التربية، الجزائر: علم النفس العام ـ القوى النفسية المعرفية و القوى النفسية المحركة للسلوك، دار النهج للدراسات و النشر و التوزيع ،ط1 ،2008 ، ص151

إن الحياة مسرح ، فعلى كل فرد أن يقوم بدوره ، فما كان للذات إلا أن تخوذ في غمار الكتابة الذاتية قصد إثبات الوجود ، وذلك حسب طبيعة كل ذات ، وكيفما كان لها أن تكون باتجاهاتها و أفكارها و طرقها.

أن الإنسان، بحق، لا يستطيع أن يبقى بدون تفكير ، سواء أكان هذا شعوريا أم لا شعوريا ، ومن ثم فإن الإنسان لا بد له من وسائل التعبير عن هذا التفكير ، وعلى الأصح لا بد له من ذلك إذا كان اجتماعيا على الأقل ، فالتعبير من الضروريات التي تستلزمها الحياة وقد توجد حالات يكون فيها الإنسان غير قادر على التعبير ، كأن يفقد مثلا وسائل الكلام و الكتابة و الإشارة مهما كانت بسيطة، ولكن لا بد من نوع آخر غير نوع التعبير كيفما كانت حالة الإنسان ، وقد يكون هذا النوع الآخر غير نوع التعبير عن الفكرة بل التعبير عن الإحساس و الشعور ، الذي ما كان للإنسان أن يكون دونهما ، فهو بحاجة ماسة للتعبير عن ألمه و فرحه تلقائيا أو لا تلقائيا(1) .

فذروة الإحساس بالذات تنكشف بكل أبعادها الإنسانية في الحقب التاريخية التي تشهد انتقالات من أوضاع معينة إلى أخرى أو تعرف اضطرابات و هزات اجتماعية ، سياسية أو فكرية ، في هذه الظروف الزمنية ،تجد الذات البشرية نفسها في حاجة ملحة إلى التوفيق بين نفسها والأحداث الجارية في محيطها ،و يتجلى ذلك في طموحها إلى التعرف على هويتها وجوهرها ،وتجتهد في استقراء باطنها.

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ـ لبنان1997 ط1،ص200

ـ دوافـع الكتــابــة :

لا تأتي كتابة السيرة الذاتية هكذا دون ربط أو ضبط ، و إنماهناك من الدوافع و الأسباب ما يدفع الكاتب دفعا إلى كتابة سيرته وترجمة حياته مدونا أحداثها ومواقفها ، حتى لا تضيع أو يدخلها الزيف ، والدوافع و الأسباب كثيرة داخلية وخارجية ، تختلف من كاتب إلى آخر ، فإن لكل كاتب دوافعه الخاصة للكتابة ، التي قد تلتقي بشكل أو بآخر مع دوافع الآخرين ، حتى يكون هناك تشابه إن لم نقل تماثل بحكم مرجعية كل منهم .

و يصنف (جورج ماي) الدوافع التي يمكن أن تنشا عنها كتابة السيرة الذاتية إلى قسمين و يتفرغ عنهما العديد من المقاصد ، فهو يرى أن القسم الأول يضم المقاصد العقلية المنطقية الرصينة إلى أبعد الحدود ، "وأهم المقاصد العقلانية " التبرير " و " الشهادة " أما القسم الثاني فيضم الدوافع الانفعالية و العواطف اللاعقلانية و هي كما براها صنفين ، صنف يتصل بشعور الكاتب و قوامه التلذذ بالتذكر أو الجزع من المستقبل ، والآخر يتصل بالحاجة إلى العثور على معنى الحياة الماضية أو استعادتها وهو ما يتعلق بالحياة و دلالاتها معا" (1) .

ويخلص يحي عبد الدايم في كتابه(الترجمة الذاتية في الادب العربي الحديث) إلى أن المترجمين لانفسهم كانت تحفزهم في كتاباتهم بواعث قوية ، وبناءا على ذلك قسم التراجم الذاتية في الأدب العربي إلى عدة أنواع أبرزها " السيرية " و هي التي كتبت للدفاع أو الإعتذار كترجمة (حنين إبن اسحاق) أو الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة و التعبير عن مذهب أو سلوك خاص مثل(الغزالي) في " المنقذ من الظلال" أو التخفيف من الثورة الإنفعال كما فعل أبو حيان في كتابه (الإمتاع و المؤانسة)أو تصوير الحياة المثالية كما فعل عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه (لفتة الكبد في نصيحة الولد) أو تصوير الحياة الفكرية كما فعل الرازي و السخاوي أو الرغبة في استرجاع الذكريات مثل الإعتبار لأسامة بن منقذ "(2).

(1) جورج ماي : السيرة الذاتية ، تعريب ترجمة محمد القاضي ، عبد الله صولة ، قرطاج بيت الحكمة 1992 ،ص 48
(2) عبد الدايم يحي : الترجمة الذاتية في الادب العربي الحديث ص 33 ـ 35 بتصرف

"إن الحديث عن دوافع الكتابة، فإننا نجد أنفسنا ما يشبه اللازمة التي كثيرا ما تتردد في معظم السير الذاتية ، تلك التي تبرر معها نوعا من الضرورة المملاة ، فالسؤال الضمني الذي يطرحه الكاتب هو نفس السؤال الذي يطرحه القارئ أعني " لماذا السيرة الذاتية " و هل تمثل الحياة المسرودة قيمة ما ، و هل في سيــردها ما يضــفي على القيـمة الذاتيــة أم القيمة الموضوعية تستوجب القول" (2) .

فالسيرة الذاتية على ما تقدم فضاء بذات النفس و حقيقتها كما تمثلت في رؤيا الكاتب الإبداعية على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها " قد تحي السيرة الذاتية صورة للإندفاع المتحمس و التراجع أمام عقبات الحياة ، قد تكون تفسير للحياة نفسها و قد يميل بها الكاتب إلى رسم الحركة الداخلية لحياته" (3) المتطورة بحكم تغير الظروف وزوال الدوافع، إلا أنه يبقى خفي غير جلي وهذا ماكان من شأن شكري.

السيرة الذاتية نص تتطورفيه الذات بحكم المراحل التي مرت عليها ، ومن زمن اللا كتابة إلى زمن الكتابة ، "فإن الواقع العربي و المغربي خاصة كانا يفضيان إلى الصمت أو الانتحار بوصفه أحد ألوان الصيت الصامت ، فإن الكتابة هنا تعد عملا و فعلا تعويضيا عن الواقع ذاهب بالبؤس"(3) ، حتى أنها أصبحت حريصة على تغيير وتعديل صورتها التي ترسخت في الأذهان لبدء مرحلة تقمص شخصية المثقف الملم و المتطلع لما حوله و لما يمكن أن يكون بعد ذلك .

إن الدوافع التي آثرتها السيرة الذاتية ، جعلت من صاحبها شخصية أبرزت ملامحها التطورية (النفسية ، الاجتماعية ، الثقافية و الفكرية) تبريرا معلنا يظهر من خلال طبيعة الأحداث و نمط تسلسلها ، حتى تتماشى نظرة الغير مع التغيير و التطور و الانتصار على قبح العالم بالمعرفة التي صنع منها الأجنحة التي ساعدته على الوصول إلى دنيا جديدة و مختلفة عما ألفه في طفولته ، فما من كاتب إلا وهو يبحث عن ما أراد أن يكون عليه ، سواء أ عبر الكاتب عن غايته من ترجمته لنفسه أم لم يفسح

(1)عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ، ص 133 (بتصرف)
(2) احسان عباس : فن السيرة ص 107
(3) عادل فريجات : مرايا الرواية ، دراسة تطبيقية في الفن الروائي ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ص119

"إن هناك حوافز نفسية تؤثر في الإنسان و هي الإحساس و التفكير و الشعور و الحدس ،فإنه عكف أن يكشف على الشخصية واضعا في الحسبان عمل هذه الحوافز مجتمعة "(1) .

فنلاحظ هنا أن الحياة الفردية في ثلاثية محمد شكري تسير نحو التصاعد مع تغير ظروف و طرائق التفكير كمنعرج حاسم، يعتبر بداية القراءة كعنصر التغير في حياته (طلب العلم) وارتباطه التدريجي بالتجربة وخروجه من موطنه ، هذه الدرجات في تكوين الشخصية تؤثر ضمنيا في المسار اللاحق الذي أصبحت عليه الشخصيات لعلها تعدت خصائصها الذاتية وأصبغت ما يبرر حقيقة المعدن الذي امتحنته الظروف.

يجد الكتاب في فعل الكتابة ضربا من اللذة الذاتية ، ولكن في ذلك اللذة الفنية تبلغ أقصاها في كتابة السيرة الذاتية ، لأنهم يتلذذون باستحضار الذكريات التي عاشوها والحاضرة ،فلا متكلم إلا وهو محتاج إلى نصب علامة التعريف عما في ضميره ، و المعروف أن روايات الإعتراف قد كثر حضورها في الأدب العالمي الحداثي والمعاصر " فالكاتب الذي يبوح بمكنونات نفسه ويعبر عن المخبوء لديه يتطهر ، ومن هنا فإن الرغبة في التطهر مثلت أحد دوافع هذا الكاتب للتحرر من القهر ومن الموت معا "(2) .

كتب إدوارد سعيد " لم استطيع أن أعيش حياة ساكنة أو غير ملتزمة ، و لم أتردد في الإعلان عن انتمائي و التزامي بواحدة من أقل القضايا شعبية على الإطلاق ، ونحن نتكلم عن شكل تعبيري من أشكال تاريخ الأنا الفردية و صوغ الهوية الشخصية أي أن السيرة الذاتية في أبسط تعريفاتها الممكنة ترتبط بالفرد الكاتب و بالحياة و بالكتابة، كما أنها تقوم على محددات جوهرية تختص بها كجنس أدبي مثلها في ذلك مثل باقي الأجناس الأدبية ، و لا ريب في أن السيرة تتدرج من النمو إلى الفناء ، و من المهد ى إلى اللحد فهي ترسم الفناء "(3).

(1) محمد ابراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية في ادب اللغوي الحديث ، دار احياء التراث العربي ، بيروت لبنان ص32
(2) عادل فريجات : مرايا الرواية ، دراسات تطبيقية في الفن الروائي ، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000 ص 119
(3) إحسان عباس : فن السيرة ، دار الشروق للنشر و التوزيع عمان ص 90

فالسيرة الذاتية تعبير عن لحظة وعي بديمومة الأنا ،وترتبط لحظة الوعي بالأهمية المفترضة التي يكونها الفرد عن نفسه في مجرى حياته العامة ، خصوصا عندما تتعرض هذه الحياة لتفاعلات مختلفة ، تكون ذات أثر وجداني و نفسي و عقلي فتحمله على إضفاء تقدير معين على وجوده وتطوره ، فتصبح السيرة هنا (لماذا أكتب السيرة الذاتية ؟) صيغة تعبيرية لتبرير هذا التقدير من خلال سرد معطيات الحياة الفردية ، كما تطورت في الزمان و المكان لتعميم بعض الخلاصات المستفادة منها .

الدوافع الداخلية :

" يعتمد الكاتب إلى حد كبير على التوافق بين الفرد و مجتمعه ونظرته إلى نفسه وإلى الناس، و هو أعمق بكثير من الفخر الفردي القائم على تعدد المآثـــر فـــي الذات و ملاحظة السيئات في الآخرين" (1) .

إن السيرة الذاتية قرار واع بالكتابة عن الحياة الشخصية ، كما ينبني هذا القرار الواعي على مقصدية يراد بها إعلام القارئ و التواصل معه إعتمادا على الحياة الذاتية، و الأهم من ذلك أن هذا القرار قد يكون مبنيا على الأهمية التي يقدرها الكاتب بأفعاله و أقواله و أعماله، أو العالم الذي يخلقه في النص (عبد الكريم غلاب) أو على الأصل الشريف ذو المكانة الرفيعة (ابوربيع سليمان الحوات مثلا) أو على الخصوصية الممكنة التي قد ترتبط بأفراده أو بالغرابة و الإستثناء (محمد شكري) انطلاقا من الإعمال الجليلة ذات البعد المجتمعي أو السياسي أو التاريخي او لوضع الإعتبار المعين يرتبط بالشهرة الثقافية و الفكرية (عبد الله العروي الجابري مثلا) أو برغبة عميقة في التواصل و الحكي و التعريف

"كانت الناس تسأل في أواخر القرن التاسع عشر كيف لاءم الفرد بين نفسه و بين الدنيا ، أما الآن فأول ما نسأل كيف لاءم الفرد بينه و بين نفسه " (2) .

إذا كانت القصيدة الشعرية تصدر عن موقف نفسي ، فإن الرواية التي تركز الإنتباه على المؤلف أو الترجمة الذاتية هي الأخرى استجابة مباشرة لموقف خاص ، الذي لا يكون إلا عاما أو جزء منه ، "والترجمة الذاتية المشهورة في الأدب العربي الحديث هي كتاب "الأيام" للدكتور طه حسين ،و مع ذلك لم يسجل في الكتاب نفسه الظروف التي دفعته إلى تأليفه . فإن نشره في مجلة الهلال عام 1962 رجح القول بأنه كان بتأثير ما لحق المؤلف نتيجة لآرائه في كتاب الشعر الجاهلي"(3).

(1) إحسان عباس : فن السيرة ، دار الشروق للنشر و التوزيع عمان ص 114
(2) عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للادب ص 182
(3) عبد الحميد يونس، فتحي حسن النصري : في الادب المغربي المعاصر ـ مكتبة الدراسات الادبية ط1 ص 151

هذه السطور التي كتبها بعيدة عن الاستقرار ، وإن كانت وافية المعالم ، وليس المهم أن يعرف بها القارئ شخصا ، وإنما قصد إرضاء رغبة النفس ليدرأ عنها ما نتج من تصريحاته ، أليس هذا ما يحدد مستويات المتلقي المتقفي لأثار الكاتب خارج النص كونه سيرة حياة ،أليس النص ترويجا لخضراء الدمن وأثرها المتعفن في الأدب .

و من خلال استدعاء جميع الذكريات الماضية المفكر فيها و العالقة بالذهن ، تبدو استعادتها متلونة بالشعور الذي يواكب عملية التذكر (اللذة النفسية) ، ذلك أن لحظات الوعي المعاشة كما يقول كوسدورف : "لا تتفاعل مع بعضها حسب نظام واقعيتها (كما عيشت) بل فيها الدخيل المتداخل ، ومن جانب الأخرى تتعايش مع بعضها حسب أسلوب الحضور و الغياب" (1)"فاللاوعي الجمعي لم يكن وعيا في يوم من الأيام، ولم يكتسب فرديا ،بل وجد في اطار اجتماعي يتوارثه منذ أن بدأ الدهر البعيد "(2) .

" يكون الأثر الأدبي من خلاله إفصاحا عن مكنون نفسي تجاه مثير خارجي انفعالي مادته الحياة بما رحبت ، تشحن عناصرها بموقف الكاتب منها فيكون الأثر الأدبي واعيا في ظاهره يقدم تجربتها ، مردها أليات القمع و الكبت والتسامي وغيرها ...و من جهة أخرى يتجاوز تلك الحدود ، يجعل السيرة أشبه شيء "بالرؤيا " أو النبوءة تتخطى عناصره حدود الفرد إلى مشكلات غريبة عنه تخلق عوالم شتى" (3)

ويمكن أن نجد في مقدمة كتاب ليلى ابو زيد "رجوع إلى الطفولة" شيء من الإتصال الذي يوحي على مستوى تأويل دوافع الكتابة من الذات نحو الخارج ، تكشف عن رغبة خاصة مخبوءة ، وأنها لا تحتاج في معظم الأحيان إلى حافز خارجي مباشر أو غير مباشر يحررها مما يعرقل ، "كما تفضل ليلى أبو زيد أن تعترف بأن الكتابة عن ذاتها كان بإقتراح من الأستاذة اليزابات فارنيا من جامعة تكساس " (4).

(1) عبد القادر شاوي : الكتابة و الوجود ص 158
(2) حبيب مونسي : الكائن و الممكن ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ص 96
(3) المصدر نفسه : ص97
(4) انظرعبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ، ص37

" على العموم فإن هذا النزوع إلى تسجيل الذكريات و المواقف يساير الشاعرية من ناحية و الاتجاه الرومنسي العام من ناحية أخرى و الجنس الأدبي القصصي الذي لا ينفصل فيه البطل عن المؤلف يعد معلما بارزا من معالم الرومنسية و يعد في الوقت نفسه تحولا مباشرا إلى حكاية الواقع النفسي "(1) .

كاتب السيرة الذاتية قريب إلى قلوبنا بنفسه و تجارب حياته ، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله و يحملنا على أن نتجاوز له عن الكذب و نتقبل أخطاءه بروح الصديق ، و "إذا أدى الكاتب هذه المهمة فقد رضي أيضا عن نفسه، لأن دوافعه عن الحديث هي الدوافع التي تحدو صاحب السر إلى الافصاح بمكنوناته "(2) ، ذلك أن صاحب الحياة يتأمل تجربته فيعتقد أن فيها ما يستحق التفكير، لأنه مختلف عما صادقه الأخرون من قبل ، و لهذا السبب ، فإنه يعتقد أو يميل إلى التفكير بأن شيئا ما يستحق الإطلاع ، و هنا تأتي مرحلتان بعد هذا القرار الداخلي :

مرحلة التفكير في شكل التسجيل و مرحلة التسجيل نفسه ، "فإذا سجل صاحب التجربة خلجات نفسه أصبح بين نارين ، إما أن يحفظ على نفسه الهدوء و يجنبها الحيرة و أراء الناس أو يفشيها حتى يتمتع بعد ذلك بسعادة تأتيه من أن يكون محورا لحديث الناس و ثناء بعضهم و نقد بعضهم "(3) ، "فالفن لدى بعض الناس هروب من الواقع ولدى بعضهم الآخر وسيلة من وسائل التغلب ، و لكن من المستطاع أن يهرب المرء من الواقع بالرهبانية أو بالجنون او بالموت "(4).

" إن الأزمة الذاتية التي داهمت الذات المغربية جعلت كتاباتها تتسم بطابعين طابع العودة إلى الاصل بمعنى التراجع و المراجعة وكذا معنى البحث عن مصادر اليقين في الماضي لعله يجد في الماضي الحاضر دروسا ، إلى جانب طابع البحث عن المستقبل ، و في هذا معنى البداية الجديدة لخلق فضاء يحقق الوجود في الوعي ، إنها أزمة ذاتية نفسية مرجعها في الماضي ومآلها في المستقبل" (5) .

---

(1) عبد الحميد يونس ، فتحي حسن مصري : في الادب المغربي المعاصر ـ مكتبة الدراسات الادبية دار المعارف ص 150

(2) إحسان عباس : فن السيرة ص94

(3) محمد الجوادي : مذكرة الاهواة و المحترفين ، فن كتابة التجربة الذاتية ، دار الشروق ط1 1992 ص20

(4) جون بول سارتر : ما الادب ، ترجمة محمد غنيمي هلال ، نهظة مصر للطباعة و النشر و التوزيع الاحالة ، القاهرة ص40

(5) انظر عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ص68

ولذلك " يجب أن لا نستصغر قيمة السيرة يكتبها المتوسط العادي و حتى المنحط الشاذ ، لأن في تخلفه عن اللحاق أو في عجزه عن سبق غيره ، قد يرجع مغزاها إلى المجتمع الذي عاش فيه ، فتقع تابعته على بيئته و ليس عليه ، و عندئذ تكون سيرته دعوة إلى هذا المجتمع كي يتغير أو يتطور " (1) .

صحيح أنه لا يجب أن نستصغر قيمة سيرة" محمد شكري" "الخبز الحافي " التي جاءت كرد فعل عن الواقع المغربي في سلبياته و تفاوتاته الطبقية وإدانته للمجتمع السائد ، فهي الدعوة إلى بناء مجتمع ممكن ومحتمل ، تسود فيه العدالة و الحرية واحترام حقوق الإنسان و الحفظ كرامته ، فهي تعكس نماذج الذين عاشوا و لا زالوا يعيشون على هامش المجتمع بين أنياب الفقر و الصعلكة، ما ينبئ بظهور نصوص تحمل آهات أصحابها ، ما دام السبب موجود فهي حتمية ظهور نفس النتائج .

"من أجمل الأشياء التي يقترحها الجنون و يكتبها العقل ، يعني الجنون في الأدب ، أن تهدم كل الحواجز بينك و بين المحرنات لتفهم أكثر ، أو لتقول أكثر ، لأن المجنون يصرح بما لا يقوى العقلاء على التصريح به ، ففي كل بيئة و في كل مجتمع و في كل زمان توجد مناطق محظورة لا يجوبها إلا المجانين"(2) ، و في "طنجة المغرب"جن فيها العاقل و غيب فيها العالم ، فأظلمت على أهلها لمدة زمنية سجلتها العقول الواعية بنفسها و بالعالم من حولها ، يتنازعها الوجود و العدم ، فهي بين ذاك و ذاك كجذور حية خفية في اللاوعي الذي تعكسه الذوات .

" أدب السيرة الذاتية إنسانيا ، يعالج قضايا الإنسان و أفكاره و إنفعالاته ، و ما الأدب الخالد إلا ما إرتكز على تجربة إنسان و عبر عنها" (3) تعبيرا مباشرا لما يشير إلى الحديث عن الذات ، ولوأمكن لنا أن نطلع على الأثار الأدبية التي قال فيها الزمن كلمته، بأنها سر خلودها كامن في أنها جعلت الأدب تاريخا حيا في أشخاص يصارعون الزوال ، و مازالت تلك وظيفته حتى اليوم ، مما جعلهم (المعاصرين) يؤمنون بأن السيرة الذاتية أفق إنساني متسع ، يرفض الإنصياع لظرفية زمانية أو مكانية ضيقة ، فالكاتب لا يثور على مجتمع معين ،لأنه في ظرف المفكر المعبر ولا شأن له في الحياة إلا لما هم بعد تجربته و لكنه يثور على العصر بمعطياته الجديدة .

(1) أنظراحسان عباس : فن السيرة ، ص97
(2) عادل فريجات : مرايا الرواية ، دراسة تطبيقية في الفن الروائي ، ص120
(3) السياب : وسائل تعريف العرب بنتائجهم الادبي الحديث ، مجلة الآداب ، بيروت العدد 10

و عليه فإن الكاتب يكون قادرا على استحضار وعي إنساني مؤثر في ممارسته الإبداعية كي يستطيع الغور في ينبوع الإنسانية ليستخرج منه عصارة الحياة ، من حيث أنه ينقل الحياة الواقعية و يجسدها في حقائق من شأنها أن تكون عمرا ثان ، فبسبب السنوات الإحتقان و الجمر و الرصاص لاحت بقوة في مستوى الهشاشة الاجتماعية ، فكانت التيمة البارزة في تلك النصوص ، لأن الوقوف على حقائق أي مجتمع يكون من حيث التركيز على المستوى الطبقي و خاصة الطبقة الأرضية، فالبؤس الاجتماعي صار واقعا مفضوحا منذ بداية الثمانينات ، كما يمكن أن نعطي الشمولية للتاريخ ، فالدقة للسيرة من حيث الأهداف و المقاصد، و من حيث المنهج فكل له ضوابط.

"فالنص ليس منتوجا جماليا فقط بل ممارسة دالة ، إنه عمل ولعب ، فهو ليست مجموعة أدلة مغلقة و لكن كتلة أثار متحولة "(1) ، فالأديب بهذا المعنى يحتمل لعب أدوار مجتمعية مختلفة تبعا للمصالح التي تحرك المستفدين من خباراته ، كما يكمن أن يكون في خدمة قضية ما التي تتجلى في كونها مبررا لنجاحاته أو منقلبا عليها ، و "عليه يصير الإنتاج الأدبي محكوما بالمصالح التي تؤطره و تحدد ولادته وكل ظاهرة فنية بوصفها إنتاجا مبنيا على مصالح خاصة بوصفها ممارسة سوسيوتاريخية دالة لها طابع إجتماعي" (2) .

(1) رولان بارت : المغامرة السيميولوجية ، ترجمة عبد الرحيم حزل ، دار تيلمن للطباعة و النشر ، مراكش ط1 93 ، ص 13
(2) بيير زيما : سوسيولوجية النص بين الانتاج و التلقي ، ترجمة عبد الحق بتكمنتي ط1 2005 ص 11

الدوافع الخارجية:

السيرة الذاتية هي سيرة الكائن الانساني بها يعبر و يتجاوز و يؤسس لهويته و لوجوده الممكن في مواجهات التحديات المستقبلية التي تحتاج إلى مواجهة حقيقية قصد تمييز خصوصيات الأمر الذي جعل المشروع القومي كاملا كما يشهد عليه تاريخ الأدب " على أنها إحدى المؤسسات الاجتماعية التي تشكل من الصيغ التنظيمية من خلال الكتابة عن الذات التي تتجلى في العام المجتمعي من مبادئ و قواعد و عادات وتقاليد التي تحدد البنى الاجتماعية وهذا ما تثبته علاقة التأثير و التأثر ، فالسيرة الذاتية تعد البنى الفوقية التي تقام للحفاظ على تلك المبادئ من التفكك و الانحلال ، و السيرة كمؤسسة اجتماعية تتأثر بظروف المجتمع في خظم المكان و الزمان حتى لأنها تعكس تلك الظروف و تؤثر فيها من جهة أخرى .

يتضح أن الدوافع العامة في السيرة الذاتية لا تخرج عن الوعي و القصدية ، لأن الاحساس بالكينونة الفردية تحت وطاة الشعور بالكينونة الفردية ، يتحول تدريجيا باستوائه مع سرد الأحداث الفردية و أو المجتمع الواسع ، و" الاحساس بالكينونة يتجلى في الوجود الاجتماعي لهذه الذات من حيث أنها لا تكسب خواصها الفردية إلا منه ووعي الذات باختلافها هو أيضا وعيها بالتميزات التي تتفرد بهذه الخصيصة أو من تلك الخواص التنشئة أو الثقافة أو الاعتقاد ضمن النسيج الجمعي الحاضن" (1) .

إن الوعي بالذات أو الواقع بالكتابة ينمو من مجرد وعي حر إلى وعي ملامح يفضي بالنظر إلى الذات ..."كما يمكن تفسير العناصر جميعا من خلال سياق اجتماعي وتاريخي وتحديد الموقع الفكري تنطلق منه هذه العلاقة وثيقة بموقع صاحب النص الداعي إلى فرض تلك العلاقة "(2) .

ومن هذا الإفتراض أن بعض الكتابات و لا سيما السيرة التي نجحت ، فإنها تدفع الكتابة بعيدا عن الذات من حيث استنطاقها ، وخاصة في لقائها بالآخر الذي لا يمكن أن يوجد إلا من خلال اللقاء التوافقي أو الاسطدام بالأنا ،

(1) عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ص 134

(2) انظر فيصل الاحمر ونبيل دادة : الموسوعة الادبية ج1 دار المعرفة 10 نهج عبد الرحمان ميرة باب الواد الجزائرص63

و من كتاب المعاصرين من كتبوا عن أنفسهم بتصوير الصراع على هذا النحو القوي الذي يدعوا إلى المشاركة و التعاطف ، خاصة أصحاب الترجمات الفكرية و السياسية التي يبلورها الكيان الإجتماعي و الثقافي ، كما أنهم عرفوا ضروبا من الصراع الفكري و الروحي و النفسي ، مما جعلت الصراع الإجتماعي يشكل قطبا معاكسا لحقيقة الذات التي تحددها الوطنية القومية .

و من حق المجتمع على أبنائه أن يكتبوا سيرهم الذاتية حتى يفيد من هذه السيرة كل من ينبغي له أن يستفيد منها ... ، "كما نعلم جميعا أن الكتابة تتخطى حدود الأجيال التي لا يمكن لبصرنا أن يمتد إليها ، هل كان الجاحظ و المتنبي أو فولتير يدركون أن أعمالهم ستلقى من الإهتمام بعد قرون من كتابتها ما يفوق الإهتمام الذي لقيته في حياة أصحابها ؟" (1)

"ليست التجربة الذاتية بحد ذاتها مبررا للخروج بنصوصها عن مقومات الأدب تحت دعوى أنها تجربة ذاتية ذلك أن كثيرا من ظروب الأدب قد تعبر في الواقع عن تجارب ذاتية "(2) .

كما لا يمكن أن يخلو النتاج الأدبي من ملامح الذات الكاتبة ، حينما يصبح النص مصدرا لحقيقة المؤلف يحكم في طرحها الشكل الفني (البناء) ، مما يبقي على أهمية القصد في الكتابة، "لأنه لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئا ذا قيمة إن لم ينطلق في فعله هذا من وعي خاص به يبين له من هو و ماذا يريد من وجوده ، ويوضح له معنى و كيفية تحقيق هذا الوجود ، كما أن هذا الوعي لا قيمة له إن لم يكن مصحوبا بإرادة تعمل على تحقيقه "(3) .

إن هناك اعتبارات كثيرة تحمل كتاب السيرة الذاتية على الجهر بالدوافع التي غالبا ما تحملهم على الكتابة ، وقد نجد على رأسها فيما يتعلق في النصوص المغربية المعاصرة الرغبة في نوع من الخلود المعنوي ، الذي يصبح رمزا للوجود الفردي المطلق على مر الزمان ، "كما يمكن أن تفسر هذه الرغبة على أنها الشعور الشخصي بالديمومة من خلال الكتابة بإعتبارها صنف للقداسة" (4).

---

(1) محمد الجوادي : مذكرة الهوات و المحترفين دار الشروق ط1 ، 1997 ص10
(2) محمد الجوادي : مذكرات الهواة والمحترفين،دار الشروق ص12
(3) د.حسين الصديق : الانسان والسلطة ،(اشكالية العلاقة و اصولها الاشكالية) منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق ص08
(4) عبد القادر الشاوي : الكتابة والوجود ص133

كذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أن بعض هذه الكتب من منطلق إراحة الضمير من ذكريات و أراء أصحابها " أنه لابد لها من أن تثبت على الورق وأن تأخذ مكانها في مواضيع ثابتة من كتب يتاح لها التداول و الخلود" (1) الذي يعد الهدف الأسمى وراء كتابة التجربة الذاتية .

"فماذا لو قارنا بين ما نكتبه من سيرة ذاتية (cv) كمصوغ من مصوغات طلب وظيفة و بين التجربة الذاتية التي نكتبها من باب الأدب ... فإذا كنا في الأولى نطلب قروشا فإننا في الثانية نطلب خلودا، ففي الأولى نبحث عن عناصر التميز، أما في الثانية نتحدث عن جوانب التميز التي أهلتنا للإرتفاع بهذا الكرسي إلى درجة التميز ... حتى لو من وجهة نظرنا ، و أن اعتذارنا في تواضع وإعترافنا في شجاعة أدبية بأننا كنا مخطئين "(2) .

فعلى هذا النحو يمكننا أن نشير إلى القول بأن التأمل هو الكفيل ببعث الرغبة في صاحب التجربة إلى التفكير في تسجيلها ، "ذلك أن صاحب التجربة يتأمل تجربته فيعتقد أن فيها ما يستحق التفكير، لأنه مختلف عن ما صادفه الآخرون من قبله ...، لهذا السبب يميل إلى التفكير بأن هناك شيئا يستحق اطلاع الناس عليه "(3) ، مما يعطي تأثيرا على قصدية الكاتب من كتابة سيرته الذاتية ، وهذا ما يتحقق عليه الوجود الذي كان يراه في الإندماج و الانتماء إلى من هم سواه . " فالغاية الحقيقية التي تهدف إليها السيرة هي الحياة قائمة على فكرة وحدة الوجود وقد تتخذ من وقائع حياته و تجاربها وسيلة إلى التأمل و التفكر، و لم يلجأ إلى السرد و التأريخ بقدر تجسيد أفكاره ، متخذا التأمل في الكون أداته لإستبطان الذات " (4) .

اليقين بأن الحياة وحدة شاملة كل الشمول ومنظمة ، و أن ما يصدر عنها لا يصدر بارتجالية و اعتباطية ، بل عن قصد و تصميم ، و الإنسان يسعد و يشقى على قدر ما ينسجم بتفكيره و سلوكه مع تلك الوحدة أو لا ينسجم ، و على قدر ما يفهم النظام فيسايره أو يعانده .

---

(1) د.محمد الجوادي : مذكرة الهواة و المحترفين فن كتابة التجربة الذاتية ، دار الشروق ط1 97 ص 08
(2) د.نفس المرجع : ص 23
(3) د.نفس المرجع : ص 20
(4) أنظر يحي عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الأدب اغلعربي الحديث ،ص308

يقول بيكاسو (picasso):" في اليوم الذي لاتعبر احدى لوحاتي حتى أكثرها اعترافا عن أمنية كبيرة تقدم حياتنا الانسانية فاكون أول من يمزقها بيدي" (1) .

هل لأدب السيرة الاذاتية خصوصية في الإبداع و أكثر منه في المغرب ، يجعله يتميز عن غيره من الكتابات ، بل امتدت السيرة الذاتية إلى قراءة المجتمع في بعض الأشكال و التعريفات والإعترافات ، السيرة الفلسفية ، التاريخية ، الثقافية ، الاجتماعية، الفكرية في استخدام تقنية التذكر وفق الزمان و المكان ، وخاصة و أن التاريخ استحضر في مرحلة " مع رجل عاد من المحطة الأخيرة ، التي يعود فيها إلى ترميم الحوادث التي هي جزء من الإنسان ، وهو من يؤرخها في ظروف خاصة استحضرها بقوة حميمية ، هذا الماضي الذي قال عنه الفيلسوف " هاليناكس "إن الماضي لا يحتفظ به ، إننا نعيد بناءه انطلاقا من الحاضر، فهكذا كان الإنجذاب نحوه كسيرة حياتية لذاكرة جسدية ، إجتماعية ثقافية و فكرية متواصلة وذلك لأسباب نعلمها و لا نعلمها" (2) .

(1) نفس المرجع : ص 92
(2) بنور عائشة بنت المصورة : قراءات سيكولوجية في روايات وقصص عربية رؤى وانطباعات منشورات الخبر ص92

مضامـــــــين مشتركة :

أ) - الإغتراب:

الكتاب الذين مارسوا و يمارسون فعل الكتابة خارج أوطانهم و لغاتهم الأم في وضعية اللاإستقرار ، وإحساس بالإظطهاد و الخوف ، جعلهم يكتبون عن وطن في " الذاكرة " ، يستوطن بدوره الورق ، يكتبون عن أوطان افتراضية و حس عنيف بالرفض وعدم القدرة على التلاؤم و الإندماج ، و في نفس الوقت حنين يفضي إلى العودة ، ولاشك أن الكتابة بهذه المشاعر ستؤثر في مضامين المكتوب و في صيغ الكتابة و في لغتها حتى تحقق أهدافها ، فماذا أضافت للنص السردي على مستوى الموضوعات و الصيغ ، وماهي المفاهيم الجوهرية التي ترتبط بهذا الأدب ، وهل هناك نوعية تميز هذا من الكتابة السردية المترتبة خصوصا بالقارىء الذي يريده الكاتب؟

" إن أدب المهاجر ليس دائما حنينيا مؤلما و شعورا بالاقتلاع ، فكثير من الكتابات التي تحسب على الأدب المهاجر تكون اضافة تثري اللغة التي كتب منها" (1) وتعدي ليستقبل الثقافة المضيفة و هي ليست أدبا فرنسيا مكتوبا بالفرنسية (أجنبية)، بل هي أدب فرنسي كتب بروح مغربية ، وما أقصده هنا ، الإشارة إلى إختلاف جوهري الذي يعني معنى الإغتراب و يعود ذلك إلى أسباب وظروف و إلى شخصية الكاتب، كالذي يندمج في مجتمع آخر ،غير الذي يرحل و يعزل قصرا عن بلده حوفا من الإظطهاد الجسدي و النفسي و السياسي و الإجتماعي "شكري" و" ليلى ابو زيد ".

"و السيرة الذاتية فضاء بذات النفس و الحقيقة تمثلت في رؤيا الكاتب الإبداعية على أساس من التطور الذاتي في النفس و خارجها ومن ثم فن يحي فيه السيرة صورة للإندماج المتحسن و التراجع أمام عقبات الحياة النفسية ، و قد تكون تفسيرا للحياة و قد يميل فيها الكاتب إلى رسم الحركة الداخلية لحياته" (2) ، جعل العمل الأدبي كيانا عضويا متصلا بالكون كله، فإنما بذاته يخفي ظاهرة بداخله و المتصل بخارجه ، وهو كيان مكون من عناصر شتى ، تتحدد عبر تفاعلات كثيرة قبل أن تصيره كما " هو "، فالنص لم يبدع نفسه بذاته و لذاته بل أبدعه مبدع ابن فلان من تجربة أو مدنية معينة ، قد يكون قد نشاأفي بيئة مستقرة أو مضطربة وهو إلى ذلك وريث ثقافة معينة

---

(1)محمد معتصم : الكتابة الوثيقة في الأدب المهاجر ، مجلة نزوى ،العدد 62افريل2010،الوادي الكبير مسقط ، عمان ، مقال ، ص56

(2) احسان عباس : فن السيرةص107

تعتبر مقولة الإغتراب من أكثر القضايا إثارة للجدل ، ليس السبب ما يكشف معانيها الدلالية من غموض ، ولكن بسبب كثرة المفاهيم ،أو ما يشوب أبعادها التي صيغت وصنعت لها ، لأنها من قضايا الإنسان الكبرى التي لاتتغير مع توالي الأزمان ولا شك في أنها ظاهرة إنسانية، بل إنها معاناة ناتجة عن ذلك الاصطدام بين المؤثرات الخارجية ، أو بطبيعة الحياة السائدة ، محيط إجتماعي معين من جهة و القيم الانسانية الراسخة من جهة ثانية ، سواء أكانت الذات الفردية أم في الذات الجماعية ، بإعتبار أن الإغتراب حالة تعتلي الفرد بقدر ما تعتري الجماعة .

جاء في المعجم النقدي لعلم الإجتماع أن كلمة الاستلاب (إغتراب) "في اللغة اللاتينية تفسيرا قانونيا (إنتقال أو بيع مال أو حق) و تفسيرا سيكولوجيا (الضعف الفكري العام) وتفسير علم الإجتماع (إنحلال الرابطة بين الفرد و الآخرين) وتفسيرا دينيا (انحلال الرابطة بين الفرد و الآلهة) ، حيث يشير المصطلح عموما إلى إنتقال شيء ما ينتمي إلى شخص آخر" (1) ، لأن محاولة فهمنا لظاهرة الإغتراب ترتبط عضويا بالإجابة عن سؤال الإغتراب عن ماذا؟ " فالإنسان طبيعة مرنة إلى أبعد الحدود و أن البيئة قادرة على أن تشكل و تصوغها وفقا لمقتضياتها ، لهذى فالذات و المحيط قد يكونان أحيانا على طرفي و يكون على الذات أن ترفض بضرب من الجنون أن تجد إنعكاسا في المحيط و أن تتخلص من فعله المدمر" (2) .

فإن تناول ظاهرة الإغتراب من منظور البعد الواحد و أبعاد متعددة في آن واحد لا ينطوي على تناقضات، لأن التـــأليف فيما بينها ضرورة منطقية ومنهجية يقتضيها الفهـم الشـــامل و العميق، علما أن السيرة الذاتية تستمد مادتها من الماضي بلسان الحاضر مبررة علاقتها بالعالم الخارجي المنعكس في الداخل، لأن تجليات الذات في النصوص المغربية قد رسمت سمة العزل الإجتماعي الذي زاد في اغتراب عمل السير الذاتي المغربي لإاغتراب الذات فيه .

ووفقا للاسئلة المحورية التي ينبغي أن تجيب عليها بعض النصوص السيرية الإغتراب عن ماذا ؟ و لماذا ؟ أي كيف حدث أسبابه وما نتائجه .

(1) انظر محمد الشيح : التحليل الفاعل نحو نظرية حول الإنسان ، الشارقة ، دار الثقافة و الإعلام 2001 ط1 ص121
(2) محمد معتصم : الكتابة الوثيقة في الأدب المهاجر ، مجلة نزوى ،العدد62افريل2010،الوادي الكبير مسقط ، عمان ، مقال ، ص56

بالنسبة للسؤال عن ماذا ؟ نجد أن النصوص السيرية من خلال ربطها بالظاهرة تتمثل الطبيعة الجوهرية للإنسان في الحرية و المعرفة ، ومتى فقد ما يؤهله إلى تحقيق أهدافه و الوصول إلى المبتغى وفقا للوسائل و المعايير السائدة ، فإنه يصبح مغتربا و أن كل من لا ينتمي لهذا الواقع الكائن فهو مغترب ، ففي سبب يجلي الضباب على المجارات غير الرشيدة و مستوياتها العديدة التي تنتهي بنمط التمرد و الثورة، وينعكس الوجه الحقيقي للشخصية .

و النفس المغتربة ، آلامها لا تبرحها تلاحقها حتى في الاحلام ، عندئذ يكون عذابها النفسي أقوى منه في وعيها ، فيأتي الحلم العملياتي ليعيد ما فعل المرء نهارا أو ليستبق فيه الزمن فيصبح الحلم نوعا من الواقع ، "واستخدام الكاتب الحلم لتجسيد الجو الكابوسي الذي يترجم فيه مخاوف الشخصية ، وفي تكراره يكشف عن واقع أليم تعايشه الشخصية باستمرار" (1) .و الماضي والذكريات الجميلة ، هما الجذور لجوهر المأساة و اليقظة والأحلام هما المرآة الوحيدة لازدواجية الشخصية في عالم الخيال وصدى الصراع بين الذات الميثالية والواقع ، "حيث الشخصية بعيدة عن الأرض التي أحبتها لم تستطع أن تنتمي إلى المكان البديل ، فشعرت بإحساس عميق يجذبها إلى الجذور إلى الإلتحام بالانتماء ، لأن في ذلك "ضرورة لتحقيق التوازن في الشخصية "(2) .

تقاسي الشخصية من وضعها بعدما هجرت قسرا ،أنها تعاني الوحدة والغربة فتنساق إلى مناجاة نفسها منطلقة من واقع معين فردي ذاتي ،إجتماعي، إقتصادي، أوسياسي ، يبعث الإرتباك والحيرة ، يقذف بها إلى عالمها الذهني الداخلي ، لعلها تقبض على ما يمثل وجودها،منتقلة من حالة الألم إلى حالة الأمل عبر مشروعية التأمل

فالمونولوج هو همس النفس ، يكشف عن أفكار الشخصية و مشاعرها الداخلية، وهو يؤكد انغلاقها على نفسها وانفصالها عن الواقع ، مشكلة بذلك عالما لنفسها تناجي به الآخر، وهو يحدد بجمل قصيرة كأنه حوار مضطرب ، يمتد أحيانا إلى عدة صفحات ، وقد غيب هذه المناجاة الشكل الإستفهامي الندائي والتعجبي الذي يعطي الجملة لونا عاطفيا معبرا ، حاملة حقيقة المشاعر في مواجهة حقيقة العالم الخارجي المغشوش ، وهذا المونولوج هو صرخة الذات التي تعبر عن صراع داخلي صريح .

---

(1) محمد حاج معتوف : أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية ، دالر الفكر اللبناني ، ص277

(2) انظر امينة العدوان : مقالات في الرواية العربية المعاصرة ، مطابع المؤسسة الصحفية الاردنية ، ص 13

ومن أولى المشكلات التي تعترض الدخيل مشكلة عدم قدرته على استعاب الساحة التي هو فيها من كل جوانبها الاجتماعية والسياسية والعادات والأعراف.حتى صيره ضعيفا أمام الآخر ومستجدات الحياة هناك ، " فالناس إزاء ذلك أربعة :فمنهم من يسقط في هذه المجتمعات لأنه ينتقل من مجتمع البادية أو القرية الصغيرة أو المدينة المتخلفة إلى مجتمع فيه كل أدوات التطوروالسرعة والحياة المنظمة" (1) .

فالإنبهار قد حفر في ذاكرة العديد من الكتاب ، والذي تنامى في نصوصهم وفي كل ما يجسد الآخر وإن في مرحلة الطفولة ، "لأن التجارب الأولى في عالم الطفل هي المسؤولة عن تشكيل شخصية الفرد وصبغها بطابع معين" (2) ، كمن تتشكل لديه بيئة داخلية تجعله يتأثر بالبيئة الخارجية ،لأن قوة العناصر فيها أكثر وأقوى من العناصر الموجودة في البيئة الداخلية .

فعلاقة الإنسان بوطنه حميمة جدا ، يمكن رصدها من منظور مادي ومعنوي ،فقد يرتبط المرء بوطنه ماديا وإجتماعيا ،فتنشأ علاقة مشتركة أساسها المصلحة المتبادلة بين الأفراد والجماعة ، ويشعر الأفراد بحاجتهم إلى التعاون والتضامن في دفع مضار وجلب المنافع ،ومتى تعطلت هذه المصلحة يفقد الوطن معناه ويبطل التعلق بذكراه .

ويرى بعضهم" أن مسقط الرأس ليس لأحد بوطن ،إذا صار مفتوحا على الدخيل المخالف،أو استحوذ عليه العدو ،ولم يبقى فيه أصل ولا ملك ولا جدوى ولا حق بما هو خير منه وأولى" (3) ،لأن الفقر في الوطن غربة ،و الغنى في الغربة وطن كما يقال .

---

(1) انظر محمد حسين فضل الله : الهجرة والاغتراب تاسيس فقهي لمشكلة اللجوء والهجرة ، مؤسسة المعارف للمطبوعات لبنان ، ط1 ، ص131

(2) خليل الشيخ : السيرة والمتخيل ، قراءات ونماذج عربية معاصرة ، ص137

(3) ساطع الحصري : أراء واحاديث في الوطنية والقومية ، مركزدراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ط1985.2 ، ص15

"قد يرتبط الانسان بوطنه وأمته فكريا ومعنويا ،كالأعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ واللغة والتاريخ ، كما شبه بعض المجتمعات البشرية بالنسيج العضوي للكائن الحي" (1)، ولا شك أن من أقصى مشاعر الغربة ،هي التي يحسها الإنسان وهو في وطنه، فالإغتراب لأسباب معايشة صعب ، لكن الإغتراب لأسباب همها تجنب مخاطر السياسة وطلب الأمن الشخصي يفوق في صعوبته وآلامه كل شيئ عداه ، وقد لا يقترب من هذا الإيلام إلا شعور الإنسان بالغربة في وطنه ، وهي ظاهرة عجيبة برزت في آخر عقد أو ثلاثة عقود في بعض الأقطار العربية .

إذا قلنا أن الإغتراب هو شعور الفرد بالعزلة و الضياع و الوحدة ، وربما ينتج أفكار عدم الإنتماء أو فقدان الثقة في من حوله ، يصاحبها إحساس شديد بالقلق ، قد يكون نقص واضح للقيم و المعايير السائدة ، فتخيل له روابط الحياة الأسرية ورغبة شديدة في التمرد على كل شيء ، أما إذا كان الواقع الكائن واقعا مثاليا فإنها سوف تبعث أسباب الإغتراب في الفرد نفسه بمعنى أن يصبح للإغتراب أسباب نفسية إجتماعية ، يرجع السبب إلى عدم قدرة الفاعل على السيطرة وفهم مواقف الحياة .

هل تسكن الذات في إنفصالها عن الجو العام ، ما دام أنها قد جعلت من نفسها الآخر، الذي يجعلها في حالة ضعف و في حاجة دائمة لتزكيته فيها والسقوط فيه وعلى هامشه؟

هل يموت الناس جوعا إذا كانوا من المستضعفين الذين لا يملكون القوت ولا يجدون الفرصة في ما يحقق وجودهم أينما كانوا؟ .

هل يسقطون تحت تأثير الحكم الظالم الذي يفرض نفسه ؟"بل يبدأ التاريخ الواعي للانسان الخلاق يراعي الفاعلية من حيث أن الانسان حر ومن ثم قادر على تحمل مسؤولية أفعاله وقراراته ، وليس معنى هذا أنه غيرمحكوم بطبيعة أو قانون"(2) ، علينا أن نجوب دواخل هؤلاء لعلنا ندرك مبعث الفكر و الإحساس و الشعورو الهوى لنكشف الفراغ الذي يكمن في جوانب الشخصية الضائعة ، التي تحتاج إلى مناخ طبيعي ، سواء أكان ثقافيا أم روحيا ، ومن ذلك فالسبب إجتماعيا .

---

(1) ساطع الحصري : اراءواحاديث في الوطنيةوالقومية ، مركزدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ط1985.2ض15

(2) انظر محمد حسين فضل الله : الهجرة و الإغتراب ، تأسيس فقهي لمشكلة اللجوء و الهجرة ،ص115

" من أجل أن ندله على نفسه ونرجع به إلى ما كان يعتبر من الثابت عنده لتهيئة المناخات التي تعكس حقيقة الوجود والانتماء الإجتماعي والسياسي الذي يمكن أن يملأ نفسه "(1) .

فتأثير الآخر في الذات المغتربة لا نجده إلا سلبيا ، فما مرد ذلك ؟ هل معنى ذلك أن الآخر لا يكون إلا كذلك ، أو أننا نؤمن به ، و ننكره لما فيه من إختلاف الرأي ، إن الغضب و الإنفعال و الحوار وكيفية التعامل مع الحياة و إحترام الذات لدليل على وجود الآخر كعامل في ظاهرة الاغتراب ، فعن الفرنسيين يكتب الطهطاوي قائلا : " ولهم فيها أمور و أفعال و تراكيب غريبة ، ينتج بها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا " (2) فمشكلة هؤلاء أنهم يقبعون في معايشة الآخر وفقا للظروف التي كانت في مجتمعاتهم بحيث يشعرون بالغربة عندما ينفصلون عنها ، لأنهم عاشوا فترة من الزمن ظلت تبعث فيهم الوهن و القعود عن السعي وراء التحرر الداخلي .

ومن ذلك " المرأة العربية مسجونة في مداها الغريزي الذاتي وحتى في التصورات التي تمنحها تفاعل الداخل مع الخارج ، تجهد نفسها لتقليل شعورها بالذنب ، المشكل من ذاتها و من فكرها صورة جديدة بأن تعبر عنها "(3) في نصوص تجاوزت الخلاف، إلا أن اهتمام النقد العربي بالسيرة الذاتية قليل ، ما جعل أغلبية النصوص تنبت في بيئة أجنبية لتدمج فيها الذات من خلال لغة الآخر، و على هذا فليس بالضرورة أن يبتعد الكاتب من وطنه ليكتب صفة الإغتراب .

فإغتراب الذات لا يقل صعوبة عن اغتراب الوطن ، فالإحساس مجاله الإغتراب عند الكتابة ، عبر ذكريات أليمة ، فيعجز القلم عن كتابة الكلمات ، فتذوب الصرخات في الأعماق " و الحقيقة أن السيرة الذاتية بصفتها الصريحة و بصورتها التقليدية المألوفة لم تكن جذابة في منحى القيمة الحقيقية ، لأن السيرة تكمن في كونها وثيقة حقيقية أكثر من كونها عملا أدبيا فهي تحتاج إلى شجاعة أدبية أكثر من حـاجتها إلى موهبة أدبية ، فإن قيمـتها توثيقية على درجة صدقها "(4) .

---

(1) انظر الشيخ خليل الشيخ : السيرة و المتخيل ، قراءات في نماذج عربية معاصرة ، دار ازمنة للنشر 2004 ، عمان ص 116

(2) حسين محمد فهيم : ادب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوكني للثقافة و الفنون و الادب ، الكويت ص 188

(3) آني انزيو : المرأة الأنثى بعيدة عن صفاتها ، رؤية جمالية للانوثة من زاوية التحليل النفسي ، ترجمة طلال حرب ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ص87

(4) انظر الشيخ خليل الشيخ : السيرة و المتخيل ، قراءات في نماذج عربية معاصرة ص 87

لذلك كان النص مساحة للنقد و الصراحة ، لكي تظهر هذه الحقيقة في علاقتها بالمحيط و البيئة على الأثار المحمولة في خبرتها المتراكمة عبر الزمن ،" أي أن للبيئة و المحيط تأثير في حياة الكائن ، و خاصة ما يتعلق بأفكاره وعقائده ، بحكم أنه المرجعية المنطقية و الحتمية التي لا مناص منها حتى يدرك جوهر ذاته المستخلصة" (1) ، و هي تعد أقرب إلى استظهار مقومات الشعور إذ عمدت على اللغة الاجنبية ، تبرز باستعادة واعية للمعنى و خاصة إذا أدركنا أن هناك استراقات متعددة لتحصيل المعنى و تحرير الذات و فك قيود الإغتراب في إنتقاء تغيراتها الرمزية للقراءة ، فتصبح السيرة شكلا لبناء العالم الذاتي لتحقيق التوازن الداخلي .

بهذا كانت الذات المغربية متسمة بمحاولاتها الدائبة للانعتاق في سطوة التقاليد و الأمكنة المغلقة التي كانت تحبس أنفاسها ، فكان الغرب بما يمنحه الفرد من حرية و انطلاق و ما ينتجه من فرص لتحقيق الذات بشكل (جسر الخلاص) على حد تعبير جبرابراهيم جبر في السفينة حيث جعل الكتابة تخفي وراءها نوع من التأثير التحويـــلي الذي يبني نوعــا مـن الغــواية للآخر، المعني في النص و الضمير في الوعي ، فالسيرة الذاتية هنا لم تكتب من أجل استخلاص الحكمة و العبرة من تجربة مضت ، بل من أجل تأسيس زمن مستقبلي ، فهي تصوغ زمنا مضى في عالم آخر"(2) بمبدأ الآنية و الحاضر.

" و لهذه الظاهرة عدة معاني و دلالات فمنها الإغتراب عن الوطن ومنه الإغتراب عن النفس وذلك حين يشعر المرء أنه يعيش غريبا بين أبناء مجتمعه ، وهناك إغتراب ينفصم فيه الفرد عن أهله ومجتمعه بالنسبة للعادات و التقاليد المتوارثة ، مما يعطي له عدة معاني ووجوه" (3) .

فاحساس الفرد ربما منذ طفولته الباكرة بفقدان الأمن و الحماية،و كل ما يوحي بالا استقرار و" أن البيئة لا توفرله الأمن و الحماية المطلوبة وذلك لبعض الأسباب منها الفقر ، الاظطهاد ، الإعاقة وكل مايؤدي إلى سلب الحرية و المعرفة ...إلخ" (4)، و إذا كان في القيود اغتراب ، فإن في الحرية مسؤلية طرفاها حق و واجب .

---

(1) سليمان حسين : مضمرات النص و الخطاب ، داسة في عالم جبرا ابراهيم جبراالروائي منشورات اتحاد الكتاب ص 18
(2) انظر الشيخ خليل الشيخ : السيرة و المتخيل ، ص 127
(3) انظرسليمان حسين : مُضمرات النصِّ والخطاب دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي 230
(4) انظر الشيخ محمد الشيخ : التحليل الفاعل نحو نظرية حول الانسان ، ص 129

سرعان مايبدوا على المريض الشعور بالغربة و علامات القلق و الخوف و الكآبة من الوجود في هذا المجتمع المقيد، تظهر عليهم أعراض مرضية زيادة على الأعراض السلبية الأصلية و" كان الإكتآب يزيد حدة عند من حجزوا بعيدا عن أهلهم ، وكانت هذه الانفعالات تنطبع على سلوكهم و كتاباتهم على أوراق علب السجائر وهم يرسمون القضبان التي تحيط بهم في المستشفى الأمراض ، مستعملين رأس عود الكبريت الأسود في هذه الرسومات" (1).

يذهب شكري إلى أكثر من ذلك ، فيتوصل للقصيدة الحديثة فيستهل معظم السيرة بقصائد نثرية تحمل الكثير من الأبعاد فيقول في احداها واصفا غربته.

" غربة
لي غربتان
واحدة هنا وواحدة هناك
ايهما الاغرب ؟
لا خيار بينهما
في زمن المحن
رغم الوطن ؟" (2) .

" كما يقول في الأخرى متحدثا عن دموع الفكر و حزن المتهورين:

لي البكاء هو البكاء
قد يخجل الحزن
من التفسير احيانا
عندما يغزى المقهورين "(3) .

(1) محمد الجوادي : مذكرات الهواة والمحترفين ، فن كتابة التجربة الذاتية ص41
(2) محمد شكري :وجوه ، دار الساقي ط1، بيروت 2000 ص35
(3) نفس المرجع ص 65

التمرد ظاهرة للتفرد:

لعل في ذلك أن الكتاب أنشأوا أدبا طلائعيا يدعو إلى التقدم والعيش الكريم داخل وخارج الوطن، مهتدين بما وجدوا عليه الفرد وما ينبغي أن يكون عليه ، وهذا يعني أن هؤلاء هاجروا وهم يؤمنون بمستقبل الوطن الأم ، يحلمون بتغير أنماط العيش إجتماعي وسياسي من الخارج ، بحيث أنهم وجدوا ما كانوا يصبون إليه من حق في الحرية ، حرية التعبير و الحوار والتصرف والرأي، بما لا ينبغي أن يلغي جوهر الإنتماء ، ينعكس من الجانب الإجتماعي الثقافي الذي صحبه تغيير ، لأن الثقافة هي المضمون و هي الجانب المعبر عن الإنسانية ، فكل من تثقف بثقافة اللآخر كان من أهلها ، فالثقافة أقوى من العرق وأقدر على البقاء .

على العموم يمكن القول أن النواة الصغرى قد انتجت أدبا من طينة أقوى، يمكن وسمها بالقلق الوجودي بالمفهوم السارتيري ، إنه أدب متخوم من الثقل الايديولوجي والصراع الطبقي، يبحث عن المعنى بعيدا عن السياسي والاجتماعي ،و ينحت لنفسه خطوط جديدة تنفلت من كل شيئ يخدع باللغة و الأسلوب إذا كان اكثر حكمة، هذا المد الأدبي يلوح أحيانا في صيغة تواجد إبداعي يعلن الإختلاف و الخروج عن السائد مضمونا وشكلا .

"إن الرغبة في البوح الذي يشكل في تجلياته صورة الذات بهويتها المحددة و أبعادها الفنية و الخوف من الصراحة ، تجعل من الإقدام على الإعتراف بالتجربة و تصويرها لونا من ألوان التعرية للذات في اطار اجتماعي شديد الحساسية و بخاصة تجاه كتابات المرأة" (1) .

و من ذلك جاء خطاب الحداثة مطالبا بالحرية و المساواة ومؤمنا بأن المبادرات السيرية، التي تساهم في صناعة التاريخ ، لأن التاريخ يحقق نوعا من التقدم الذي يحمل دلالات التنوع و التكامل و الإختلاف، " فهذا سند الإبداع و شرط الإحساس في الإنتماء بل هو التعبير الصادق عن الذات في أقصى درجات انتشائها ، وتظهر ملازمة للثقافة الخاصة في حدود ملامحها الأصلية و الآهلية التي تشكل حاملا للهوية الجماعية ، أي الهوية القائمة على الإرث الثقافي و السلالة المشتركة "(2) ، كما جاء هذا الخطاب مركزا على مبدأ ، أن لكل شيء سبب معقول، فالمبدع في حاجة إلى أجواء نفسية و صحية و بيئة سوسيولوجية مشجعة على اكتماله .

(1) الشيخ خليل الشيخ : السيرة و المتخيل ، قراءات في نماذج عربية معاصرة ص 108
(2) بشير خلف : وقفات فكرية ، حوار مع الذات ... وفن الاخر ، مقالات دار الهدى ، عين مليلة الجزائر ص113

"لا يمكن أن يصدر الإبداع من ذات تكبلها العبودية من الداخل ، ترسخ فيها القهر و الظلم منذ نعومة الأظافر و قيود العادات و التقاليد البالية ، و تنهش فيها أنياب المحسوبية و المنافع الشخصية و الجهل وكل مايدنس القيم ويدوس كل شيء جميل" (1) وجماله في أحقية أفكاره الحقة و لا تكون الفكرة صحيحة إلا إذا كانت نافعة ، ولا تكون نافعة إلا إذا كانت مطابقة للواقع.

إن العرب عاشوا ويعيشون في موقع جغرافي ومحيط حضاري أرادت القوى الغالبة باستمرار أن تسيطرعليها ،ثم استجد العنصر الإقتصادي الذي استوجب الإلحاح على السيطرة إلى درجة القتل إذا كان لازما ،" فنحن نهرب من الحق ومن الجغرافيا حتى لا تنسى الوقائع التاريخية المشهودة التي تشخص العالم الخارجي الذي يطمث هويتنا . وأخذ عقولنا مسرحا و رهانا تجري فيه الصراعات حتى أصبحنا إليه عبيدا ومنه نستقي ما يشف فيها ازدواجية الانتماء "(2) ، و"إذا كانت هناك خصوصية عربية فهل هي فنية أم جغرافية إقليمية ترتبط بالحيز و التجربة الإبداعية ؟ وهل يمكن أن نقول أن هناك أدبا مغربيا متميزا و إلى حد استطاعت تلك النصوص المكتوبة بلغة الآخر أن تشكل هوية مغربية ، و ما مـدى تميـز تلك النصـوص عن الآداب العالمـية؟ "(3) .

إن الكاتب محمد شكري و ليلى ابوزيد مثلا ، من الذين كتبوا بلغة الآخر أمدوا نصوصهم بخاصية فنية، تنطلق من الارتباط بالوطن على الرغم من الغربة في لغة الآخر، إلا أن ذلك في ظرفية الأحداث ، التي استمدت حضورها من الواقع المغربي و من الرؤية الفنية و الزخم الفكري ، قد شكل بهما الكاتب أسس الخطاب المنسجم مع اللغة التي طرحت بها الحقائق التي شكلت واقعا مغربيا بثقافة أجنبية غربية.

ومع ذلك نود أن نبرر أمرين ، نجدهما على قدر من الأهمية من الزاوية الفنية يتعلق الأمر الأول بربط اللغة بالثقافة و استخدامها كمؤشر للتحول و التغيير الذي حدث في ثقافة المغربيين و حياتهم الإجتماعية و الاقتصادية ، فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد أهمية اللغة في الدراسات المعاصرة ، "و في محاولة الكشف عن الأبنية العقلية و الفكرية و الثقافية لأفراد مجتمع ما ، و التي عن طريقها يمكن أن نصل إلى تفسير لمتعدد الثقافات الإنسانية و إختلافها" (4) .

---

(1) بشير خلف : وقفات فكرية ، حوار مع الذات ... وفن الآخر ، مقالات دار الهدى ، عين مليلة الجزائرص146/145

(2) انظر محمد حسين هيكل : أزمة العرب و مستقبلهم ، دار الشروق ط1 1990 القاهرة ص10

(3) انظر محمد تحريشتي : أدوات النص ، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب ،2000 ص09

(4) دكتور حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون الادب ، الكويت ، دار المعرفة 1978 ص 163

إن إنتشاراستعمال اللغة الفرنسية و الإنجليزية و ضعف استعمال اللغة العربية ، تعبير كذلك عن توسع الطبقة المتعاملة مع الثقافة الغربية ، فهذا مبرر يدعو إلى التحرر الذي يعتقد أنه مسعى الوجود ، و بالتالي مع السلطة الأجنبية المختلفة بإعتبارها منتمية إلى هذه الحضارة ، وهو تدرج عن الطبقة الإقطاعية القديمة نحو الإنحلال ونحو تحول عميق ، وما هذه الحالة إلا إشارة لها مدلولها السببي .

كان الصراع بين التيار الديني و التيار العلماني للمجتمع العربي تأثيره على طبقات هذا المجتمع بأنواعه، و قد ظل المجتمع العربي " متخبطا بين أنصار المجددين و المحافظين في الفكر الاسلامي بين انصار العلمانية ،وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن "(1) ومع بداية القرن العشرين اتسعت رقعة التأثير مجددا على الأدب بشكل واضح ، بحكم أن الأدب لا يحي و لا ينمو إلا في المجتمع ، كما أن الأدب ماهو إلا صورة عاكسة ترى مالا تراه العين من حقائق .

إن إنعكاس أوضاع المجتمع العربي على وعي المرء ، سواء أكان وعيا ذاتيا أم وعيا إجتماعيا أم سياسيا ، يؤكد أن " الوعي لا ينموا بعيدا عن المؤثرات الاجتماعية و السياسية و الفكرية السائدة ، كما أن هذه المؤثرات التي تساهم بالضرورة في نمو الوعي في مختلف الجوانب ، قد يكون هذا في جانب و يظل مختلفا في بقية الجوانب وأحيانا يكون العكس ، أي قد يفعل مؤثر من المؤثرات وقد يكون سببا وطنيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا ، يرتفع الوعي في الجانب قيساهم بدوره في تنوير غيره من الجوانب"(2).

لا يمكن أن يكون الأدب المغربي ذو هوية ومرجعية غربية في الرؤية و البناء الفني والطرح الموضوعي ؟، وخاصة إذا كان الانتماء الحقيقي وفق منظور ثقافي ، فبعض النصوص العربية التي يود من خلالها أنصار الحرية تحويلها إلى خطاب ايديولوجي حينما تعلن أنها ليست لغة الانتماء بل لغة مستعارة ، لأننا لا نجد فيها ذاتنا العربية بكل حقيقة ، " فيستحيل أن يكون المرء شاعرا في لغة غير لغته .فالنص الادبي وما ينتجه الكاتب لا يملك حقيقته في اللغة ، بل هو في كينونته العلمية عامل نفسي وتاريخي واجتماعي وذهني واللغة أضعف حلقة فيه .

(1) ليلى عبد الوهاب : "تاثير التيارات الدينية في الوعي الاجتماعي للمراة العربية،في المراة العربية بين النقل والواقع وتطلعات التحرر ص 163

(2) نفس المصدر : ص 172

ونحن في هذه الدراسة الوصفية للأدب المغربي المعاصر، دعت الضرورة أن ننساق للحديث عن بعض النصوص السيرية التي كتبت بلغات أجنبية مثل تجربة " ليلى ابوزيد في " رجوع الى الطفولة " التي تؤكد على أن فكرة كتابة سيرتها الذاتية مستبعدة لو أنها موجهة للقارئ العربي "(1) إذ أنها تركت أثر التفكير في الكلمات إزاء إختيارها لما يترجم قصدها،كما يمكن الإشارة إلى أن الكتابة النسوية العربية ما هي إلا انفجار ناتج عن ضغط ، مما يعطي معنا آخر على أنها ردود أفعال ناتجة عن وجد نار

تفضل الكاتبة الإعتراف بأن الكتابة عن طفولتها إنما كانت من اقتراح الاستاذة "اليزابيت فرنيا" كما تقول ، ولكنها تفترض أن النص لو كتب بالعربية ، مع أنها ترى فيها لغة الوجدان ولاتلقائية ،" لم تتصف بالصراحة التامة التي ميزت الصيغة الانجليزية هل هي لغة التعرية مثلما قد تكون العربية حجابا ؟ أم ان الصراحة المقصودة ليست سوى اعتمادا" (2) .

وضمن التوجه الرامي إلى اختراع وسائل مغايرة للتعبير عن الذات، نجد الناقد محمد الداهي من خلال استقرائه لنصوص نسائية ، خلص إلى أن المرأة واجهت معظلة الكتابة عن ذاتها في سياق اجتماعي ،كان يعتبر ذلك خروجا عن المحضور ، والاشتغال في المجال لم يكن مسموحا لها أن تشغله ، وهذا ما نعكس على وعيها بالكتابة ،" حيث واجهت ذلك بأساليب متعددة تمس اللغة و الأسلوب ومستويات الافصاح عن الهوية في النص المكتوب ، وهذا مايتجلى في الكسر المتعمد للميثاق السير الذاتي بهدف خلق الإنطباع بوجود مسافة بين الكاتب و السارد" (3).

قلة الإهتمام بالسيرة النسائية ، ذلك أن المرأة في المجتمع العربي مكبلة لا تستطيع البوح ، فموضوعات السيرة لابد أن تتناول الحب واحباطاته و الزواج و الطلاق ، كما أنه لم يكن هناك سيرة ذاتية لها وزن في مستوى الأيام لطه حسين وليست هناك كتابة في مستوى نجيب محفوظ ، وذلك حسب رؤية النقد العربي المعاصر.

(1) أمل التميمي : السيرة الذاتية النسائية في الادب العربي المعاصر ، المركز الثقافي العربي دراسة في نماذج مختلفة ص 104
(2) عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ص 137
(3) انظر محمد الداهي : الحقيقة الملتبسة ، قراءة في أشكال الكتابة عن الذات ، دار المدارس للنشر و التوزيع ، الدار البيضاء2007 ص 117

فهل تميزت حركة الأدب المعاصر بالهروبية نحو الغاب ؟ وهل هي حركة تأمل فلسفي أدبي؟، وما مكانة سؤال الذات فيها ، هل كان مثالا لسؤال الحرية الفردية ؟ أم أن هناك غنائية رومنسية ؟ وهل هناك تشخيص للظواهرقصد النظر، أم هناك دموع وغناء وحنين ؟

نص " الرجوع إلى الطفولة " من النصوص النسائية ، الشخصية ـ ذات ـ عربية تبنتها اللغة الانجليزية ، بحكم أن السيرة الذاتية النسائية بدأت في الظهور في أواخر القرن العشرين فهي ظاهرة أدبية ارتبطت بالمتغيرو الحضارية ، ومرجعية ذلك إلى وعي المرأة بأهمية حضورها في الخطاب الأدبي مع تجديد أشكاله ، ولاسيما السيرة الذاتية التي تعتبر فضاء أدبيا ملائما للتعبير عن الهوية الشخصية ، حتى يكون النص السيري بناء لهوية تعلي من مظاهر الدونية و الإظطهاد و القهروتعلى عليها ، و ما يفسر ذلك الأدب النسوي.

عندما نتحدث الآن عن حقوق المرأة العربية ،" ألم يكن لها حقوق ، فالثقافة العربية لم تعبر عن هذه الحقوق أو تدافع عنها من قبل ، بل المقصود فقط البحث في استعادة الثقافة العربية منذ عصر النهضة "(2) ، إن كنا نبحث ، فإن البحث يكون عن شيىء موجود إلا أنه مفقود قصد الكشف عنه.

" إن المرأة مسجونة في مداها الغرائزي الذاتي و التصورات التي تمنحها تفاعل الداخل مع الخارج ، تجهد نفسها لتقليل شعورها بالذنب لتشكل من ذاتها و من فكرها صورة جديرة بأن يعبر عنها"(3) ، و ليست الأساليب في ذلك شأنها شأن الحياة ، فليس المهم في الأسلوب و الايقاع و الأشكال ،بل في محاولة لإجاد نفسها بين الأنفس"أنا امرأة و لن أكون إلا كذلك ، و لكوني امرأة و في الحب المضطرب بمعانات الآخرين، فهل ستكون كتابتي حتما شبيهة بي ؟ و أي سر في ذاتي سيظهر و لم أكن أعلمه؟ اللاشعوري أم الأنثوي ؟ هل هذه الأنوثة التي نوقشت كحق قابل للنقاش ؟"(4).

---

(1) انظر عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ص 189 التحرر ص 163

(2) ياسين بوعلي : حقوق المراة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة ، دار الطليعة الجديدة ، سوريا دمشق ط 1 1998 ص03

(3) انيأنزيو : المرأة الأنثى بعيدا عن صفاتها ، رؤية اجمالية للأنوثة من زاوية التحليل النفسي ، ترجمة طلال حرب المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ،ص 07 .

(4) نفس المرجع ، ص10

الذات بين الأنا و النحن :

السيرة الذاتية ليست ذاتية إلى هذه الدرجة التي يتخيلها بعضهم ,وبمعنى آخر ليست السيرة الذاتية شخصية فقط ، إنها المرآة التي يلتقي فيها الفرد مع ذاته في الحقيقة تنعكس فيها أحوال الكاتب وعلاقته وتعامله مع الآخرين, فإذ كتب عبد القادر المازني في (قصة حياة) وقال فيها "ليست هذه قصة حياتي وإن كان فيها كثير من حوادثها " وأصبحت أعتقد أني أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن عيوبهم صورة صادقة - لا مزورة ولا مموهة_ من هذا الإنسان الذي هو أنا ، والذي هو كل امرئ غيري " (1)" وأن حقيقة تجربة فريدة في الحياة الشخصية هي ذات قيمة للآخرين .

ولهذا "لا يعيش الفرد حياته الشخصية فحسب ، بل يعيش أيضا حياة عصره وحياة جيله ، فالفن الجديد في أي عصر من العصور لا ينبع من عجز أصيل في الفن الذي سبقه و إنما ينبع من مفهوم حضاري جديد للفن ومن نظرة جديدة نحو الحياة والعلاقات الانسانية تخالف نظرة الفن السابق المعاصر الذي كان يعبر عن روح حضارة مختلفة "(2).

"فالسيرة الذاتية تصور للانتقال من مرحلة الاهتمام بالذات إلى فهم العلاقات بالآخرين ، أي الانتقال من المركزية الذاتية إلى المركزية الاجتماعية المتشابكة التي تش تقل على قيم و روابط الانسجام و المشاركة وروابط العمل المشترك و المعتقدات" (3).

إن الأجناس الأدبية إجمالا بوصفها وحدة بسيطة من وحدات التأثير الاجتماعي تعمل على استمرار الوضع الراهن ، و لكن لا يعني أنها تساعد على تغيير ذلك الوضع عندما تدعو الحاجة إلى ذلك . فإذا كانت البيئات على اختلافها لا تبقى دائما في حالة من الجمود ، فإن ذلك رهن بظهور مجددين على الصعيد الأدبي أو الفكري ، يكون قادرا على إيجاد حلول للمشكلات الجديدة الاجتماعية أو الوجدانية أو الفكرية أو العقلية.

(1)- عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان،ص 79
(2)- عبد القادر القط : في الأدب العربي الحديث ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ،ص 04 .
(3)- عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية ، ص 80 .

" تأسيسا على هذا الفهم يحسن أن يكشف المترجم لنفسه قبل كل ذلك عن غايته فهي التي تحدد أمامه معالم طريقه و ترشده إلى ما يجب أن يسقط ويهمل ، و ما يجب أن يثبت أو يختار " (1)، فإن انبعاث النسيج الذاتي من الأدب المغربي بكل القوالب و الزخارف مبني على مبدأ الغائية " فالأديب لا يكتب لنفسه كما أنه لا يكتب لإبراز مهارته الفنية و براعته اللغوية ،و إنما يكتب بوحي من مشكلة اجتماعية تؤرقه و تقلقه يهدف من وراء الكتابة أن يشاركه الآخر في التفكير فيها ووضع الحلول لها "(2) .

و لهذا الواقع الاجتماعي و النفسي أثره على السيرة الذاتية ، بل إن لهذا الواقع أثره على السلوك جميعا ... و من الضروري أن لا نعزل السيرة الذاتية عن المقومات الحضارية الأخرى ، لبلوغ صداها حتى على المبنى ، فإن النزوع إلى تصور مثال يحققه المجتمع ، و يجاهد الأفراد من أجل بلوغه ، ما هو إلا من ثمرات ذلك الإحساس بالذات العامة ، "كما أن التشبث بالأعراف و التقاليد و الأخلاق و العلاقات الفردية و الجماعية ما هو إلا من ثمرات ذلك الإحساس أيضا "(3).

و عليه لن يخرج النثر في الأدب المغربي عن تلك المقومات العامة ، لأن طبيعة الحياة جعلت و ظيفة الأدب ترتبط بالذاتية العامة للمجتمع أكثر من ارتباطها بالذاتية و الفردية الخاصة .

عبد المجيد بن طلون في نصه (في الطفولة) لم يشغل نفسه بتحديد مرحلة الطفولة كما يعمل المتخصصون في التربية ، لكنه بدأ مع فجر الإدراك و الوعي بالحياة و الواقع و انتهى بمرحلة التأهيل العلمي ، إلى جانب حديثه عن شخصيات واقعية ، ولم يسرف في ذلك حتى يعود إلى المواقف و الأحداث ، و بما كان ذلك متابعة لأسلوب التذكر ومناسبته ، أما الأخرى فهي وعيه بتوجيه الحديث إلى المخاطبين ، مما يجعل النص ترجمة عند المتلقي ، فلم يكن بذلك ساردا لمذكراته عن طفولته "و لم يسجل ذلك تحقيقا لذاته فقط و إنما صمم مشروعه ليكون أثرا أدبيا مذاعا بين الناس" (4) .

---

(1)- محمد إبراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص 04 .
(2)- شكري عزيز الماضي: محاضرات في نظرية الأدب ، ص 101 .
(3)- عبد المجيد يونس : فتحي حسن المصري ، في الأدب المغربي المعاصر، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ، ط 1 ، ص 25 .
(4)- انظر نفس المصدر ، ص 125 .

كما أنه حرص على رسم نماذج بشرية ليست لها خصوصيات تجعلها متفردة بين الناس ، لكنه يعني بها في نفس الوقت اتجاها أو دلالة تعكس حقيقة الواقع من سماته القومية الطبقية أو البيئية و الثقافية أو حتى المهنية ، هذ ه الذات المصاحبة في ظاهره ا و المتفردة في وعيها و باطنها التي تنازعتها عوامل قاسية ، وه ي تواصل السير في هذه الطريق الطويلة التي رسمها أجداده ا منذ عشرات السنين (الرجل المغربي) أما المرأة المغربية فإنها حطب لنار لم ينتهي لهيبها .

فالسيرة الذاتية وجود قلق و مضطرب ، فلا تدرك الذات نفسها في يسر أو بكيفية مطلقة ، ومع ذلك فقد سخر للذات الانسانية الفهم و الإدراك قصد الإلمام بحقيقتها المادية و الروحية ، كما أن الذات تشرع في تمثل نفسها و الاستفهام حول ماهيتها ، فنراها تستنجد بالماضي المختزل ، مسكونة بموروثات و حياة نابضة بصور الزمان و المكان و بالتربية و الثقافة المكتسبة و المبادئ و القيم المختلفة مشكلة" الأنا" .

الكتابة عن الذات لا تعني فقط مراحل التكون ، بل تعنى بأسئلة الفكر و الثقافة و القيم المدنية التي تجلي في ما وراء الحقيقة التي تتجسد في القصد و الوظيفة أو الهدف يتجلى من مجمل هذه المعطيات ، أن أغلب الكتاب في سيره م الذاتية لم يلتزم وا فيها بمعطى التسلسل الزمني ، وأهم ميزة لكتابة السيرة لديهم تكمن في انفتاح التجربة الذاتية على الحدث الاجتماعي و السياسي و الثقافي العام ،و لذلك تارة يكتب سيرة غيرية أو سيرة مكان و تراه م أحيانا يحللون فكرة أو مواقف أيديولوجية .

لقد تمكنت السيرة الذاتية من التعبير عن مركز المجتمع المغربي المعاصر بتناقضاته و التحولات التي حدثت فيه ، وهذا الزخم من الكتابة أفرز قضايا كثيرة منها ما خصها و منها ما تعالقت فيه مع جنس الرواية ، " فقد قدمت التاريخ العلني والمهمش بحركة المجتمع ، فكلما غاصت في الواقع ازدادت تواصلا مع الآخر و ، تناولت الهوية و الزمن و المكان و الشخصية و كل القضايا الفكرية الأخرى، لأنها تعبر عن الحياة و لا يمكن للحياة أن تستمر دون تفاعل" (1).

(1)- انظر جاسم الحسين : الأدب العربي الحديث و التراث، تحولات العلاقة وخصوصيات الأجناس ص 163-164

" فكتابة التجربة الذاتية هي نوع يخضع في تقييمه لمدى التزامه بالقواعد الفنية شأن كل جنس أدبي آخر ، و ليست التجربة الذاتية في حد ذاتها مبررا للخروج بنصوصها من مقومات الأدب تحت دعوى أنها تجربة ذاتية ، فلا يعطيها هذا أي حق ولا أي عذر في أن تفرض على النسيج الأدبي أي صورة من الصور الكفيلة بإظهار هذا النسيج في صورة أخرى مختلفة" (1) .

فلا يمكن للروائي مثلا أن يضع هامشا في الرواية و يقول فيه أنه مضطر لأن يكتب الحدث على هذه الصورة ، مع أنه يعرف أنه لم يكن على هذه الصورة ، و لكن الضرورة الروائية دعته إلى هذا ، فهل يمكن للروائي أن يسلك سلوك السياسيين الذين يقولون أنهم قالوا هذا أمام الجمهور و لكن كلام الحجرات المغلقة شيء آخر.

لعلنا نتوقف عند تعريف فيليب لوجون حينما يقول عن رواية السيرة الذاتية : "سأطلق هذا الاسم (رواية السيرة)ا على كل النصوص التخييلية التي يمكن أن يكون للقارئ فيها دوافع يعتقد انطلاقا من التشابهات ـ التي يعتقد أنه اكتشفها ـ أن هناك تطابقا بين المؤلف و الشخصية في حين أن المؤلف اختار أن ينكر هذا التطابق أو على الأقل اختار أن لا يؤكده" (2) .

ومن هذه اللحظة سيحظى هذا الميثاق بالأهمية في صياغة المتخيل السردي ، بل أنه ميثاق يعقد صلة بالميثاق الروائي ، و كأن السيرة الذاتية طريق تؤدي إلى عالم الرواية أو عالم السيرة الروائية ، و بهذا المعنى تعتبر بعض الدراسات نص "دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب تأليفا روائيا يدشن لوعي على صعيد الكتابة و اختيار الشكل الفني الملائم للتعبير عن حالات اجتماعية و تجارب انسانية معينة .

"لماذا يحب الفنان دائما أن يتوارى خلف عمله الفني ،لأنه لا يريدنا أن نراه هو إنما يريدنا أن نرى هذا العمل "(3) و أن حقيقة الفنان تكمن في هدفه و راء عمله .

---

(1)- د . محمد الجوادي : مذكرات الهواة و المحترفين ، فن كتابة التجربة الذاتية ط1 1997 ، دار الشروق ص12.
(2)- انظر فيليب لوجون : السيرة الذاتية ، الميثاق التارخي ، ص 37 .
(3)- عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، مكتبة غريب ط 4 ، ص 26 .

فإذا كان الكاتب يقنع بدموع جمهوره ، و لا يخطر له أنه يستغلها أبعد من ذلك ، تلك سمات الكاتب الذي يريد أن يخدم اتجاها محددا ، و علميا في أغلب الأحيان أو سياسيا ، "فالمؤكد أنه على وعي بفائدة العواطف التي حاول إثارتها ، و لكنه حين يصنع ذلك يكون "زعيما" وليس فنانا هذا ما يعطي للنص قيمته باعتبار القصد و الهدف الذي يمنح النص ماهيته، و في بعض الأحيان يحدث العكس مع الكتاب الصادقين فيما يبدعون وهم على وعي بأهداف عملهم "(1).

فالنص الأدبي لا ينبغي أن يقتصر على مقوماته الداخلية و بنائه المركب و صوره الفنية، بل يجب أن يتجاوز ذلك إلى مضمونه و ربطه ما أمكنه بنفس قائله و مشكلات مجتمعه و عصره ، "فكاتب السيرة الذاتية إذا لم يكن موهوبا ذا وعي ، بصيرا بالمجتمع و الناس في جميع أحوالهم ، يصبح عرضة إلى أن ينساق وراء تلك التجارب و المشاهدات الخاصة ، فلا تثقل لقرائها نفوسا مريضة ،و هذا ما نجده في بعض الكتابات التي قدمت مجتمعا منحلا دون أن يترك ما يشير عمله لديه من إرهاق ونفور أو رغبة في النفاذ إلى مشكلات ذلك المجتمع وفهمها في إطار انساني أوسع و أعمق ، وقد انساق وراء ما في الأحداث من طرافة و شذوذ ن فانجر إلى قصص الجريمة والوقائع المثيرة الغامضة" (2) .

إن ملابسات التاريخ الذي استنطقه النقاد و أسقطه الدارسون حول الكتابة الإبداعية المغربية، أصدرت في شأنها أحكاما قبلية ، ما تزال سارية ، إذ صار الأدب المغربي فنا حين نتحدث عنه في المشرق العربي في سياق النقد المقارن من الانتصار إلى النبوغ المغربي ، وهو انتصار ينبغي تفهمه و فهمه ، فالأدب المغربي لا يحتاج إلى حيازة ما له و ما ليس له عبر النفخ في الأبواق و القرع على الطبول ، بل هو بحاجة إلى انصافه بمقوماته وأفكاره ، كفن ناجع في معالجة واقعه ، وذلك ضمن الخارطة الإبداعية العربية في المكانة التي يستحقها .

إن حقيقة الوجود الانساني عبر التاريخ هو ما أقر به اللسان الذي يعتبر العقل موطن كل انسان و مربط كل فكر و موطن كل نزعة و مرجعية كل مجتمع .

---

(1)- انظرعز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، مكتبة غريب ط 4 ، ص 27 .
(2)- انظر عبد القادر القط : في الأدب العرب الحديث ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ص14.

فالتاريخ الأدبي الفني يشهد عليه بسمات لم تفقد ميزتها التي تحدد هويتها عبر الزمن أينما رحل هذا اللسان أو ارتحل ، فإن كل الإنتاجات الإبداعية التي تحمل قيمة انسانية ، كما كان لها الفضل في حل المشكلات ، يدل على الثبوت و الاستمرارية و الأصالة ، خاصة في القرن العشرين الذي نعتبره محطة نقف فيها وقفة تأملية ، في البداية هي نتاج محض يعكس مرجعية حقيقية و استدراك و تصحيح و بناء و تشييد ما كان موجودا ، مع الحفاظ على المبادئ و الضوابط الجوهرية التي تعكس جنس معين له مزاياه و غايات مستقبلية و سمات تختلف عن ما هو مجاور له من بقية المجتمعات العربية ،و هذا التطور في المسار الإبداعي و الإفصاح عن الجوهر زاد في توطين و إرساء ماهية المجتمع فوق قوة الهوية بحكم التاريخ و الروابط التي لا يفصلها فاصل .

إن النظرية التطورية لا ينكرها جاحد فالأشياء تتطور و الفكر خاضع لهذه القوة و هذا ما صقل الأفكار بطبيعة الكون من سلطة الاكتساب و التأثر و العمل على التغيير و التحرر ، الهروب و الفرار و غيرها من الدوافع وراء تشغيل عنصر البحث ، ومهما يكن حرا فهو مقيد بطبيعة الفكرة التي يسعى إلى تحقيقها ، هدف معين نحو نظرة مستقبلية التي صنعت الماضي و نقدته بما هو موجود في الحاضر لبناء المستقبل ، فتلك الشبكة المتأصلة التي تحكمها قوانين تعد ثقافة متعلقة بجذورها التي استحالتها قوانين تمخضت عن ظروف و متغيرات فرضت نفسها على المبدع المغربي و تلخصت في كتاباته التي ما فتئت أن تكون منظومة من القيم .

ولو انطلقنا من الظواهر الاجتماعية وأقمنا أنساق لها ، فلها أسبابها المنبثقة منها "وهذا ما يؤكد أن الأفعال الذاتية تولغ في تنشئتها الإجتماعية، من ناحية أخرى إذا بدأنا بالفعل الاجتماعي ونظرنا إلى الأنساق أنها نتائج مباشرة يمثل تلك الأفعال ، فإننا حينئذ لا نستطيع إستعاب القيود الحقيقية التي تمارسها علينا البني وتلك الأنساق ، بيد أنه لا مفر من افتراض وجود مثل تلك البني والأنساق باعتبارها قوى مقيدة" (1) .

(1)- إيمان كريب : النظرية الاجتماعية ، من بيار روستر إلى هابر ماس ـ ترجمة محمد حسين غلوم ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، ص 184 .

جدلية الذات في الكائن (الواقع) و الممكن(النص) :

إن الواقعية هي إعادة إنتاج الواقع في شكل الحياة نفسها ، ولكن كيف غدا ذلك ممكنا مادام "شكل الحياة نفسها" في المجتمع الرأسمالي يختلف اختلافا مطلقا عن جوهرها "(1) (الذات في الواقع) .

لقد خضع التحول الأيديولوجي العربي عامة و عند الكتاب المغربيين خاصة لأزمات عدة ، أولها الأزمة الكونية التي تعد مأزق كل مبدع ثم الأزمة الحضارية التي هي في أساسها أزمة طبقية أنتجتها الأزمة السياسية بكل أبعادها ، و أزمة الصرع الحضاري الذي وسع نطاق الآخر ، بحكم واقع المجتمعات العربية في مستهل القرن الماضي الذي كان مسرحا لمربع الحركة نحوى التغيير و التحرر . "ومن ثم كانت الذات منبهرة مأخوذة بهذا الواقع المستجد تلاحقه لاهثة، تسجله و تصوغه في مواقف وشخصيات و أحداث و فضاءات و أزمنة تحاكي وتشخص وتصف وتسرد" (2) .

و في البحث حول علاقة الحديث السير الذاتي بالايدولوجيا ،وجدنا أن العلاقة بين هذين الحدين علاقة جدلية ، وجدنا أن المجتمع هو عنصر مهم من عناصر الواقع في بلورة الذات ، هي المرجع الرئيسي للخطاب السيري ، فتتحول فيه الذات إلى كائن اجتماعي فور إنجازها الذي ينتمي إلى الحركة الاجتماعية وفق علاقة اعتباطية ،فيكون النص السيري أثر لعلاقة التأثير و التأثر، وعادة ما يكون الخطاب السيري الذي تطور كشكل أدبي يهدف إلى وصف الحياة وصفا صادقا أو واقعيا ، و من المفروض أن يكون الكاتب أشد الناس اهتماما بما هو واقعي .

ونحن مع الأحداث و ربطها بالمكان ، لم يقع تحديدها بدقة في أغلب النصوص ، فكثيرهم من عزف عن ربط الأحداث على نحو مباشر بالتاريخ السياسي العام ، لتتضح العلاقة ما بين المتخيل الذاتي و الواقع الموضوعي ، بأسلوب يخدم التوجه و القصد في ترك الأحداث كأنها من قلمه بريئة ، أي أن الكاتب مضطر قلمه في حذف ما يريد لإثبات ما يريد ، كما عمل خياله في سد الثغرات قصد إقامة جسور بين الأحداث، و ربما ابتدع وصل من نوع ما بين المراحل ، تجاوزها يكون في الزمن السريع (المختصر) ، بين طرفي المفارقة و العودة حقائق معلنة بلغة المنطق ، فمن يفهم منطق الطير يمكن أن ينطق الأبكم بالحقائق التي تثبت الواقع الصادق في النص السيري .

---

(1)- غيور غني غاتشف : الوعي و الفن ترجمة د . نوفل ينوف ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب ، الكويت 1990 ص 211 .

(2)- محمد رضوان : محنة الذات بين السلطة و القبيلة ، اتحاد الكتاب العرب ، شبكة الانترنت ص 11 .

" أن الأدب بوصفه جزءا من المذهب الفكري تعبير عن رؤية الكاتب لما حوله ، تتصل كرؤية الحقيقة ،و هذه الحقيقة ليست في طبيعتها الفردية بل تعبير عن رؤية اجتماعية ، يجعل طريقة التفكير لطائفة من الناس تفرض نفسها على الكاتب ، مما يدمج الحقيقة بالخيال في النص السيري أي بطريقة مباشرة للأحداث و إضمار الذات أو إظهارها في الواقع المتخيل فتكون المرجعية الواقعية للنص هي الفائت (الماضي) و المرجعية التخييرية هي الراهن" (1).

لعل المتأمل لطبيعة السيرة عموما ، يمكن أن يطلق عليها فن الأزمة ،" فقد كتب الكثير من هذه السيرة في لحظات في صراع الذات مع العالم الخارجي ، و كان الهرب نحو الذات بغير استكشاف ما فيها من أجل التعالي على الواقع أو التصالح معه أو من أجل تغييره " (2)ن فقد بدأت أزمة الكاتب في النص السيري بذاتية خالصة ، لكن ذلك ينتهى إلى قضايا فكرية و ثقافية و اجتماعية عبر تفاصيل جوانب الذات، فكل ينوي أن يكتب سيرة ذاتية مكتملة، لكنه يدرك صعوبة ذلك ، فكل يعطي تبريرا ذاتيا خالصا إلا قليلا هم من اعترفوا بصعوبة الاعتراف ليقروا حقيقة و يضمروا فيها حقائق ، لذا نجد أن عناوين " في رجوع إلى الطفولة " " في الطفولة " وقوفا عند مرحلة الطفولة لكنها تحمل إشارة تثير قيمة زمن اللا كتابة في زمن الكتابة و الوعي ونمو الذات.

" إن الحديث عن واقعية تسجيلية أو توثيقية لا يعني أن النص يخلو من الحوادث التخييلية التي ترمي إلى الإدهاش بالخيال " (3) ، فالحديث عن النص السير الذاتي كنص منفتح ع لى اجتماعية الأدب وواقعية بمرجعية تاريخية و ثقافية و النفسية و الفنية و علاقته ك نتاج انساني ، يجعل النص منفتحا على العملية النقدية أو على مقارنتها بالفائت ، معتمدا على واقع منجز أو متخيل موجز، فينشأ بين راهن النص و راهن الواقع حوار، مما يبقي النص بمعطياته وجهات نظر و أفكار لم تبلغ مستوى القاعدي .

" إن الواقع الذي يثيره الخطاب السير الذاتي واقع تاريخي يرصد آفاقا متعددة ، أولها الآفق السياسي و بالأخص الآفق السلبي لسنوات القمع و الجوع ، و ثانيها الأفق الحضاري ببعديه الاجتماعي الطبقي و الثقافي ، أما الأفق الثالث ينزع منزعا كونيا عبر التساؤل الغيبي عن مجريات العالم عبر البحث ، لكن الشرط النفسي لا يكتفي بانتظار الإجابات " (4)، بل يصحبه تراكم عبر مراحل الحياة ن، مبرزا السيرة النفسية.

---

(1)- سليمان حسين : الطريق إلى النص، مقالات في الرواية العربية ، اتحاد الكتاب العرب 1997 ص18
(2)- خليل الشيخ ، السيرة و المتخيل : قراءات في نماذج عربية معاصرة ، ص 132 .
(3)- سليمان حسين : الطريق إلى النص ، مقالات في الرواية العربية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ص 19
(4) -نفس المرجع ص 19 .

و حتى لا نتجاوز بذلك بعض الامتدادات الدلالية لآفاق النص ، لا إكتفينا برؤيته نصا منغلقا على راهنه و راهن متخيله ، و في النصوص المعاصرة ، ستجد جميع المضمرات الأيديولوجية المنقضية إلى رؤية النص في حالة تكوين مستمر ، لأن الكاتب لا يطرح أفكاره جملة واحدة ، جاعلا من مكونات النص (المكان و الزمان و الشخصيات و الأحداث) رموز (جسر) هذا ما يعطي للنص فرضيات جديدة لبناء عالم مستقبلي منفتح على راهنه الذي يعتبرالمرجعية الواقعية.

فالحديث عن الذات يعكس مواقفها بوع مكتسب من قضايا مجتمعها ،إذا كانت في صلب القضايا و المعارك السياسية الاجتماعية ، فإنها تبرز مواقفهم و مواقعهم في الصراعات القائمة ، فإن لم يكونوا فاعلين في الأحداث أو لا مواقف لهم منها ، فإن سيرهم تعتبر نوعا من الهروب أو الانهزامية ، و تكون مواقفهم بحسب ذلك سلبية ، "لأن الأدب الملتزم يجب أن يحمل في طياته رؤية الفنان لقضايا عصرية ، و إن كان بذلك مرجعية تكون له رسالة و غاية، حتى تكون حقيقة السيرة ضمن الأدب الهادف" (1) ، وبذلك يكون النص نتيجة إذا حكمنا على الخاتمة من المقدمة.

كثيرا ما أثارت السيرة المغربية المعاصرة م شكلة العلاقة بين الأيديولوجي و الفن ، حيث أنها تتحكم فيه من الخارج ، فللنص تتنازعه زوايا متعددة كونه سيرة تمجد الذاتي و تغيب الموضوعي ، حتى أنها تحكم عليه من الداخل ، فكثير من النصوص التي لها تصورا معاديا يجعلها تثير حافظة الآخر، رواية أو رواية سيرية على أساس أنها مسرح للخيال ، يجعلها جزءا لا يتجزأ من شخصية الكاتب لأنها تنبع منه، حتى أنها أوجدت في وعيها (الآخر)، " بحيث يكون الأيديولوجي والفني وجهين لعملة واحدة و لا يوجد أحدهما إلا بحظور الآخر " (2)، فالحوار مفتوح و الحق مع الواقع.

فالذين أقروا بذلك جعلوا الصراع الثقافي و السياسي و الاجتماعي ينتقل إلى المبدع حيث كان هذا المثقف يعد نفسه مسؤولا ، و داعية يعطي لكلمته فعالية النقل المباشر (الأدب الملتزم)، حتى ساهمت إشكالية الحرية عندهم في احتدام الصراع ، فراحوا يبحثون عن الشكل التعبيري الذي يستعملونه ، و من خلاله تصريف قناعاتهم و قول ما يريدون قوله حتى أنهم دِونوا في سجل المتمردين الخارجين عن قانون السجون فقالوا السجن أحب إلينا ، فاختاروا لسع عقارب الغرب و لا غربة الأقارب .

(1) - انظر عبد الحميد إبراهيم شيخة : في النقد و الأدب ، ص 109 .
(2) - انظر نفس المرجع ، ص 132 .

" فإذا كان الخروج من الضيق و فك الوثاق من الزمن الفاسد عند بعض المعاصرين هو جسر الوصول إلى معرفة جوهر الوجود الذي يعطي للذات معنى لذاتها فثمة دروب ضيقة جدا يضيع فيها من السالكين أكثر بكثير ممن يكادون يصلون"(1).

عموما "تبقى الواقعية تصور مادي للعالم، يقبل بمادية العالم(الواقع) و يرفض الحقائق المتعالية ، من حيث أنه يتعامل مع ما هو تاريخي و يترك اليومي العارض، ويبني العالم في أشكال متعددة الأبعاد ، كما تحتضن تقنيات المباشر و اللامباشر ، الواقعي و المتخيل ،بالوضع الرمزي ، لكنه يعتبر الواقع المادي مرجعية الأولى" (2).

يقول تاريخ الأدب:" أن الأعمال الواقعيةلا وجود لها ، فكل عمل يظل ملوثا في نقائه ، فكل كاتب يحتفظ ب "فرديته " وخصائصه ،إذ أن أعظم فترات الفن هي تلك التي تأتي عندما يتمكن الفن من أن يقوم بدور رئيسي في الحياة الإجتماعية ويصبح حلبة للمناقشة العامة حول الأفكار و الأراء في الحياة القديمة منها والجديدة"(3).

والحقيقة أن ذات الكاتب في السيرة المعاصرة واقعا بالحقيقة و الخيال ،أو ما بين حادث محتمل الحدوث و إحتمال لحدوث الحدث ، ففي السيرة الذاتية تنقسم الذات على نفسها ، لأنها هي التي تكتب في حين أنها هي موضوع الكتابة ، فالكاتب يجفو ذاته ليعرفها و ينأى عنها ليدنو منها ، "محمد شكري " يقول أنه كان يكتب ما هو حقيقي صحيح كل الصحة ،لأن المتخيل لا يكذب ، إلا أن هناك باب سري تلج فيه الروح إلى فسحة تواريها عن كل رقابة فتقول الحقيقة دون زيف" (4) .

---

(1) انظر ميخائيل عيد : وجوه و مرايا شيئ من السيرة شيئ من النقد ـ اتحاد الكتاب العرب 1999 ، .ص113
(2) أنظر فيصل دراج : الواقع و المثال مساهمةفي علاقة الأدب و السياسةـ دار الفكر الجديدة ، ط1 ،1989 ص20
(3) نفس الرجع ، ص19
(4) عادل فريحات : مرايا الرواية ، دراسة تطبقية في الفن الروائي ، من منشورات إتحاد الكتاب العرب2000، ص128 .

إن تناول أفكار العالم تعود إلى إدراك الفرد لأهمية الآخرين المحيطين به ،فإن الذات في النص تتصرف بشكل معين بواسطة التفاعل الرمزي ، أي من خلال عملية التأثير و التأثر التي تتلخص في بؤرة الذات و الأخر في مواقف إجتماعية ،فهي مضطرة لتحقيق وجودها ،فهذا في نفسها إعتقاد وهو في الحقيقة موجود ، وكل ذلك يترجم حالة الوعي في الإنتاج الأدبي ، عاكسة بمقضى الفطرة معاني و غايات الآخر مراعية تعدده المتكامل ، وفي ذلك تحديد لإحداثية الذات في المجتمع ،كما يتجلى ذلك في مختلف النصوص التي تعد كحالة ياريخية ، ففي ذلك إقرار لحقيقة أثبتتها عتابات النصوص كخلفية للمضم ر ،وفي ذلك إعتبار للآخر،حيث أنه لا يكاد يذكر اسمه إلا في مواقف مباحة تتلاقى فيها الذات معه .

وكذا الميثاق الزئبقي الذي إن وجد ، فالوقائع تنحصر في أحداث خيالية و شخصيات رمزية فهذا ما أقحم السيرة في مجال الرواية وكثرة المصطلحات (التخييل الذاتي ،السيرة الروائية ،رواية السيرة) .

السيرة الذاتية من أكثر أشكال الإبداع ارتباطا بحركة المجتمع ، وأن هذا الإبداع ـ غالبا ما يصطدم بعوائق تتمثل في الممنوعات و المحرمات الإجتماعية ، نتيجة لمنظومة القيم السائدة ، " أليس كل ما ينطبق على الذات ينعكس في النص، فالممنوعات الثلاثة التقلدية الجلية :

1)ـالممنوعات السياسية .
2)ـ الممنوعات الدينية .
3)ـالممنوعات الأخلاقية "(1) .

من هنا يمكن أن تظهر الذات بتصريحات أمام الآخرين إلى ما يهز كيان النص كونه من أصدق الفنون ، تكون الذات فيه بنوعين ، الأولى محتالة ، أي أنها تعطي إنطباعا لا يعبر عن حقيقتها التي لا تتشكل في الحروف ، "كما تخفي بعض الجوانب و تضمرها (الإيحاء ، الرمز ، الخيال) ، و في ذلك ملمس للآخركائن من كان ، و الثانية متصنعة أو إدعائية ،أنها تقدم انطباعات عن شخصية لا تكن لها علاقة بواقعها أليس للآخرين أداة قوية للسيطرة على سلوك و تفكير الفرد ، فنظرة الآخر إلينا هي التي تهددنا، فهي التي توجه و تحدد مظهر الفرد الخارجي مما يدفعه إلى أن يأخذ بعين الإعتبار قيم و أحكام الآخرين "(2) لأن الذات ترى بعين المبصر و ببصيرة الأعمى .

(1) صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ـميريت للنشر و المعلومات ـالقاهرة ،ط1 2002 ،ص52
(2) أنظر معن خليل عمر : نقد الفكر الإجتماعي المعاصر ـدراسة ـدار الأفاق الجديدة ـبيروت ،ط1 ،ص 207

فالحرية قرينة الإبداع ، وأن مؤشر قمع الحرية هو أهم مؤشر لتدخل المجتمع في تكييف الإنتاج الأدبي ، لا عند ممارسة هذا الفن ،بمعنى أن الكاتب الذي يعرف بحكم خبرته الإجتماعية أن أعماله تمنع إذا اتسمت ببعض الجرأة ، فإنه يمارس على نفسه نوعا من الرقابة الداخلية التي تفرضها الرقابة الخارجية ، و منع التداول و العقوبة بالسجن هي التي يمكن أن نقيس بها درجة حرية التعبير المسموح بها في المجتمع(1) ، ليس كل ما يعرف يقال ، ولا مسموع مسموح ، ولكن كل ما يكتب يقرأ.

"الصلة بين الإبداع و الحرية صلة بين المقدمة و النتيجة ، فالإبداع الحر لا ينبع إلا من الذات الحرة التي بوجودها يتحدد الآخر، بتجاوزها الواقع المتردي ، الذي يضيق بكل ما يحاصر عقلها و يقيد حركتها ، كما يضيق بقيود المؤسسة حتى ولو كانت الأهل و العشيرة و الأسرة "(2)

لكن أحقا توجد حرية؟ هل هي ظاهرة ، واقعية أو حالة ؟ فهي بهذا تشترك مع الإبداع في كونها فعلا ينتقل من الإمكانية إلى الوجود بفعل التحرر الذي تسعى إليه الذات ، "فإذا كان الإبداع فعلا للتحرر وتجاوز للواقع و قفزا على المألوف ، يعبر عن نفسه من خلال الصراع المعقد بين الذات المبدعة و ذاتها (الأنا) و مجتمعها (الأنا الأعلى) ، فهذا هو جوهر الحرية ، " فإذا كانت تستخدم المرآة لترى وجهك فإستخدم السيرة الذاتية لترى الجوهر المضمر في الآخر"(3) .

قد تعكس النصوص السيرية حالة فكرية تطورية ، في عالم أراد أن يستباح فيه كل شيء من الراهن الفكري العربي سياسيا و إجتماعيا و ثقافيا ، ليكون إشكاليةة سلطة النص التي تفرض تجنسها ، فتلك الظواهر إنتهت إلى جدال ، " أصبحت جدلية النصوص تؤدي إلى المواجهة مع عقل الآخر ، ومن ثم أصبحت للنص سلطة مطلقة ـ فإنه يقرأ من الداخل ـ على العقول و النقاد و على الحياة بصفة عامة ، يؤدي ذلك إلى صعوبة الكشف عن أبعادها أو تشريح لمدلولها و مكاشفة وظيفتها و المقصد ، وحتى في كيفية التعامل معها" (4)، ومع ذلك ، " فإن التشديد على الأعراف و التقاليد الذي تتشابه فيه الكتابات ،لا تصرف النظر عن العلاقة بين الأدب و المجتمع"(5) ، فأي نص مجازي أو مباشرطبقي ذاتي أو ريفي موضوعي بريئ ، إذا استنطق بشكل مناسب يقول لنا شيئا عن واقع مجتمع عصرها .

---

(1) صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ـميريت للنشر و المعلومات ـالقاهرة ،ط1 2002 ، ص53
(2)بشير يخلف : وقفات فكرية ،حوار مع الذات...وخز للآخر ـ مقالاتـ دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ،ص129
(3) نفس المرجع : ص132 (بتصرف)
(4) بنور عائشة بنت المعمورة : قرآت سيكولوجية في روايات و قصص عربية(رؤى و إنطباعات) ط 2 ،ص43 (5) رينيك ويليك ـ أوستن وارين : نظرية الأدب ، ترجمة : محي الدين صبحي ، مراجعة : ص109.

السيرة الذاتية و اشكال التعبير :

أ) ـ الرواية السير الذاتية :

هل السيرة الذاتية حكي استرجاعي نثري ، يتولى إنجازه شخص واقعي مركزا على وجوده الخاص و حياته الفردية ؟ أو أن السيرة الذاتية عملية بناء أدبية فنية على حساب ما يتطلبه هذا الجنس (حياة الأنسان) ، إنها المسار الحيوي الذي عاشه الفرد في سياق التتابع المنطقي نحوى الوجود ، فماهي المادة المشكلة النص؟.

هل السيرة تختلف من حيث المادة و المنهج عن المذكرات و اليوميات،حيث يروي الكاتب حياته المركبة من أجزاء تدعم وجوده ، أم أنها أدب يضم رأى صاحبه في الحياة ليكمل جزء لا يكون إلا من منبر السيرة ، تطرح أبرز الأحداث بتقنية (الوحدة و التركيب)، في الزمان و المكان و الشخصيات .

يشرع الكاتب في كتابة سيرته عندما يشعر بذاته وإكتمال الوعي فيها ، فلا يمكن أن يكتبها بقلمه قدر ما يمسك بأنامل الحقيقة ، و مداد النفس الممزوج بالمؤثرات و الإفرازات التي تعد لبنة النص و الوعي بالتعبير يبنيها ، فهي بناء له شكله الخاص بين الأشكال الأخرى المحيطة به ، وفوق كل هذا و ذاك يجمع بين التفاصيل المعقدة المتداخلة و المترابطة ، مما جعل " السيرة الذاتية تتميز عن سائر الأجناس الأدبية أنها مزيج من تقنيات أدبية التي يستخدمها الكاتب" (1) ، "ولكن ليس في الواقع وسع المعايير الأدبية وحدها أن تحدد عظمة الأدب و أن كان من الواجب أن نتذكر أن المعايير الأدبية هي وحدها التي تحدد إن كان ذلك أدبا " (2) .

فلا شك أن العلاقة بين التجربة و بين السيرة (النص) قد إختفت تماما ، بقدر ما يتعلق الأمر بالإصطلاحات التي تحدد الجنس ،و لا سيما الأشكال التي اتخذتها السيرة المغربية كلها ن و التي تؤدي بنا إلى الوعي السوسيولوجي و السيكولوجي و الثقافي ، لإن "الإنتاج الأدبي عموما هو صياغة ذاتية للكاتب ، أدى ذلك إلى تنوع القواليب التي تحدد إنفتاح الجنس على أجناس تتطور فيها الذات "(3) ، و هذا ندرأ به الخلط بين الذات الكاتبة (المرجعية) و بين النص السيري لأن الكتابة ذاتية و القراءة موضوعية.

---

(1) انظر محمد شهين : أفاق الرواية " البنية و المؤثرات " دراسة ،منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2001 ص10
(2) مجلة العلامات : النادي الدابي الثقافي بجدة ، حي الشاطئ ، جده ص.ب 5919 العدد 50 ص 438
(3) انظر رينيه ويليك : مفاهيم نقدية ، ترجمة ، جابر عصفور ، سلسلة عالم المعرفة ،فبراير 1987 ، ص 400

من خلال وقوفنا وتتبعنا لنصوص السير الذاتية الصادرة في المغرب طول العقود الأربعة الماضية ، يقطع النظر عن طبيعة تواترها في هذ الصدور ، "و يمكن الوقوف على أشكال متمايزة نسبيا لمفهوم كتابة السير الذاتية ، نستخلصها من التسمية الإجناسية المصاحبة لها 1- السيرة الروائية الشكارية 2- السيرة الروائية 3- السيرة الذهنية 4 - الذاتية 5 - نصوص عالقة غير مجنسة ، وربما كان القاسم المشترك بين السيرة الممثلة لذلك هو تعبيرها عن التجربة الشخصية للمؤلف باسطناع ضمير (الأنا) المتكلم في غالب الأحيان "(1) .

فهذا لا يعني أن نعتبر الأنا في السيرة الذاتية " الذات الكاتبة " صوتا حواريا نقوم بوصف وظيفته أو بناء نصه ، و إنما هوموضوع نصي يعد معيارا ، يعطي للنص شرعية السيرة ، لأن وظيفة الفن هي الكشف على أن الإنسان له جوهره الذاتي يتخطى حدود الزمن و المكان و الشكل.

فالإنسان قبل أن يكون مخلوق العصر و البيئة ، كائن ذو جذور وتراث ورواسب يكون في مجموعها مانعرفه بالعموميات الإنسانية ،" فيخون الفن صاحبه و يظلله عندما يفقد الصلة بجوهره ، في أبعاد مأساته كمخلوق يقضي عليه بالموت ،وعندما يجد نطاق روايته محدد بقيد أو آخر، تكون المشكلة ماثلة في حياة العصر و البيئة "(2)، إلا أنها ليست حقائق نهائية ثابتة ، وإنما هي حقائق تاريخية خاضعة لتغير الأزمنة و أنماط العيش و علاقات الإنتاج الإجتماعية ." لم يكن الفنــان أو الكاتــب المغربي يسدد خطاه في الظلام ، فيعرف إلى ماذا يهدف ويظل هادفا دوما "(3).

"حين يتعلق الأمر بالكاتب المغربي الذي لا ينتظم في تقاليد النوع ، ولا بالإلتزام بالقواعد و القوانين ، و لايخضع أحيانا لضغوط الميثاق المفقود بين الكاتب و القارئ ، استنادا إلى الأعراف المكرسة ، لأنه " يكبح ذاته السيرية (الذاتي) و يمنحها للوعي الجمعي)" (4).

---

(1) عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ، السيرة الذاتية في المغرب ، ص 29

(2) انظر رشيد ياسين : دعوة إلى وعي الذات ، فصول في نظرية الدراما و النقد المسرحي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000 ، ص 155

(3) مخلوف عامر : الرواية و التحولات في الجزائر ، دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية ، دراسة، اتحاد الكتاب العرب ص 56

(4) محمد صابر عبيد : تمظهرات التشكل السير الذاتي ، قراءة في تجربة محمد القيس السيرة الذاتية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب 2005 ص 94 (بتصرف).

تلك هي خصائص فنية تدعم السرد في السيرة الذاتية من جهة ، وتؤكد من جهة أن الرواية من أكثر الأشكال الفنية قربا من السيرة الذاتية، و لا سيما في الإرتباط بمصطلحي الذات و الشخصية، فالسارد الذاتي الذي يتعدد بكونه هو البطل و الراوي معا في السيرة الذاتية ، يكون هو الشخصية الرئيسية التي تدور حولها الأحداث ، لكنه يتحكم في الشخصيات الأخرى و الأحداث ، فبذلك تتعدد زوايا الرؤية للواقع .

فالسيرة الذاتية غير دقيقة في التنظير الغربي ، ولا يعني أنها ليست صادقة " فالحاجة مشروعة جدا لأن نحمي أولئك الذين رافقونا أو إرتبطوا إرتباطا مباشرا بالأحداث من خلال صلتهم بنا، " حتى إذا قررنا أن نقول كل شيء حول حياتنا ، فنحن لا نملك كل شيء عن حياة الأخرين ، أو على الأقل نحن نعتقد أننا نملك هذا الحق" (1).

فالرواية بحكم طبيعتها الأجناسية الفاعلة و المشتغلة في فضاء تخييلي ، تساعد الكاتب من ضغط الإدلاء بمعلومات أو باعترافات داخل فضاء تمثيلي و تسويقها ، و على هذا الأساس فإن تصرحات السير ذاتي لا يمكن أن تكون حسب " اندريه (oùndrih)إلا نصف صادقة ، و لو كان هم الحقيقة كبيرا جدا ، فكل شيء معقد دائما أكثر مما نقوله بل و ربما نلمس الحقيقة في الرواية ، حيث يتمتع الروائي بالشجاعة الكافية التي تتصف على قدر ممكن من الصراحة ، لأن الكاتب يتحصن خارج امكانية الإدانة ، لأن العمل يؤول بوصفه عملا تخييليا صرفا ، "كما هو الحال لدى السارد السير الذاتي الذي يحتاج لجرأة صادقة كما يحتاج لكثير من الصراحة ، فاذا كانت لديه الشجاعة لأن يكشف كل ذلك عن نفسه ، فإنه ربما يخرج عن ذكر الوقائع كاملة، لأنها عندئذ تمس شخصيات الآخرين الذين شاركوه تلك المواقف "(2) .

فكاتب السيرة لاينتقم طواعية لمحاكمة أخلاقية ، و إن كان باعترافه يضع نفسه في موقف المدافع عن نفسه أمام اتهامات ، و" أن مجرد اعتراف الطواعي في السيرة بمثابة مواجهة الذات للآخرين ، و بقدر ما يعمل من تبرير فعمل يعود لصاحبه و يجعله أشبه بشاهد عند" ملك " في قضية دون متهمين" (3) .

---

(1) انظر ، مورا اندريه : التراجم و السير الذاتية ، ترجمة و تقديم و تعليق ، احمد درويش ، بالقاهرة ، المجلس العلمي للثقافة 1999

(2) محمد صابر عبيد : تمظهرات التشكل السير الذاتي ص 99

(3) انظر عبد الله الحيدري : السيرة الذاتية في الادب السعودي ، الرياض ، دار المعراج الدولية للنشر 1998 ص 608

إن الحياة تكون حياة و الواقع واقعا قبل التحرر و الكتابة ، أما بعد هذه الأخيرة تصبح تلك الحياة وذلك الواقع مشروع حياة جديدة واقع جديد ، فالكاتب لا يمكنه أن يكون ناقلا للواقع وناسخا له ، لأن القارئ يدرك من الوهلة الأولى أن ما سيقرأه يقع على الماضي و ليس في المستقبل ، على الرغم من أن الذات لا تنصرف عن الحاضر إلا لتعود إليه من الناحية النفسية ، أما من ناحية الفكرية يعد كتجربة لها دلالات.

إذا فسرنا التطوربأنه تغيير، فهو انتقال من الجهل إلى المعرفة و من اللاوعي إلى الوعي، و من بياض الواقع إلى تشابكه ، يظهر مفهوم الترحال و الإنتقال يدعو إلى اللا استقرار (الداخلي و الخارجي) ، " فإن الفرد هنا لا يتأمل ذاته ولا يستنطق ذاكرته ، و إنما يعيش حالات متغايرة تنم عن التصدع والإنفلات ، و هو ما ينعكس تعبيريا على طبيعة الذكريات المسرودة ، التي تبدو في أغلبها مرويات انتهت إلى سمع السارد ، و ليست في أغلبها من جنس الوقائع التي تكون قد حبلت بها الذات ، حتى تعدو السيرة الذاتية كمحاولة لترسيم الذات المتصدعة وشعور الأنا بالفرح ،لأنه شعور يحايث حضور الكتابة"(1) .

لا يكتفي الكاتب بحدود الاستدعاء والانشغال على ما وفرته ذاكرته ، بل يعمل على إعادة تركيبها حركيا في زمن النص من خلال الحفر بالتدقيق في الذاكرة و الوجدان معا ، إن الماضي هنا ليس مجرد مساحة زمنية لحركة الأحداث والوقائع ، بل هو ملجأ سري نصعد منه عبر مستويات الزمن كلها إلى الأحلام ، دون أن نبتعد عن منطلقنا ،هكذا تصبح مقاربة الماضي فعلا أكثر قسوة واشراقا من مجرد التذكر، الذي هو بمثابة هيكل ألبسه الكاتب حلة نفسية بنسيج المجتمع ، لأن فالكاتب له زوايا نظر خاصة به ومبادئ ومواقف ومصالح ومطامح ورهانات واختيارات تتحكم فيما يكتبه ، فيصبح بالامكان تحوير الواقع والحياة موضوع الكتابة ملايين المرات .

بحيث تصبح الحياة الفردية الواحدة حياة متعددة لا متناهية ، حيث تسترد في مجتمع لا مبال كما في "الخبز الحافي" أو حياة بريئة كما "في الطفولة "أو حياة مكرسة للعلم و المعرفة كما في "حكايات في الذاكرة " للجابري ، ولكن هل يعقل أن تكون الحياة باكملها مجرد تشرد أو براءة أو علوم ومعارف أم أنها وظيفة الأدب في خلق عوالم في عالم افتراضي غير موجود ؟.

(1) عبد القادر الشاوي ،الكتابة والوجود ، السيرة الذاتية في المغرب ، افريقيا الشرق 2000 ،ص45

قد عرف الإنسان كثير من الاديولوجيات والافكار ، وخاض ضروبا من الثورات الفكرية والإجتماعية والسياسية ، تركت أثرها القوي في وجدانه وجعلته يعرف ذاته في أعماقه وأبعادها الدفينة المتخفية تحت الشعور ، مما جعلت الإنسان يعلي من قدر نفسه ، ورغم ذلك "فإن تجارب الحرب و الثورة و ميل الحديث إلى التزييف ، سبب في تبديد الأفكار المغالية في قيمة الإنسان" (1) ،فهذا ما يجعل الكاتب ينظر إلى نفسه نظرة أقرب إلى حقيقة واقعه ، كائن يظم بين جنبيه ثنائية ، إذ هو ينطوي في داخله على الخير و الشر و القوة و الضعف و يجمع بين الفضيلة و الرذيلة و بين مؤيد و مفند منند.

كانت العلوم و كشوف وراء الحقيقة ، عوامل قوية ساعدت كاتب السيرة الذاتية في العصر الحديث و المعاصر على تصوير نفسه تصويرا صادقا بعيدا عن التحيز أو الغرور، " فيسجل حياته منذ طفولته مراعيا التدرج الزمني مبرزا أثر الوراثة و البيئة في تكوين شخصيته ، (الأحداث الخارجية ودواخل نفسه) ، ومن ثم استقر للسيرة الذاتية مدلولها بوصفها جنسا أدبيا له خصائص مميزة بين الأجناس الفنية و الأدبية"(2).

فإذا كان العالم لتمكين الإنسان من السيطرة على قوى الطبيعة و أموره المعايشة و السياسية و الإجتماعية ، فإن الأدب يختص بهندسة النفوس البشرية لحماية القيم الروحية و الضمير الإنساني ، يطلب من الأدباء أن يقللوا من التشدق في كتاباتهم و الإكثار من الحديث عن وظائفهم ، لأن الأديب كائن إجتماعي له وظيفة تجعله لا يترفع عن الوقائع البسيطة التي تتألف منها حياة الناس اليومية ، حتى لا نبقي على الظاهرة الاجتماعية لغز يستدعي التحليل و التفسير.

فالجاحظ كان عظيما في إبداعه من خلال تصوير الشحاذين و البخلاء في عصره، وفق جمع كل الصفات المتمثلة في شخص واحد نموذجي ، و كذلك "مجتمع البؤساء " لـ(victor hugo

---

(1) لبرد ياتيف : الحلم و الواقع ، ترجمة فؤاد كامل مراجعة علي ادهم ، القاهرة ، مطبعة اطلس 1961 سلسلة الف كتاب ص294

(2) انظر يحي ابراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الادب العربي الحديث دار احياء التراث العربي ، بيروت لبنان ص 25

"فإذا كانت حياتنا ذميمة فليكن أدبنا من شهود الإتهام ، لأن السكوت عن الرذيلة كتمان لها و إغراء بها "(1) ، وليس معنى هذا براءة في الإفصاح ، أي أن نجعل الحقائق في النص مرهونة بالإحاء ، لأنها تجعل النص مفتوحا على رؤية القارئ الذي يجد نفسه يتماهى في محور الذي تنتمي إليه الشخصية وفق تشابه في الأحداث التي تمسك أطراف التفاعل و الانفعال .

وعندما نتحدث عن تيار أو مذهب أدبي معين في السيرة الذاتية ،يجب أن نراعي عدة اعتبارات تتعلق بحقيقة هويتها وظروف كتابتها وواقع حياة كاتبها ، فهي تحتاج قدرا من الحرية يسمح لها بالتعبير ، " فهي صورة مجتمع ما والمقابل التاريخي العامل الاجتماعي والحياة في أطوارها المختلفة لدى الفرد في زمان ، فضلا عن كونه أدبا له خصائصه الذاتية يقدم تاريخا "(2) الذي يقوم فيها على فهم عام لروح العصر.

" وقد يكتفي القاص باستنطاق التاريخ ومفهوماته عن العصور، فيكتب تحت تأثير ذلك الإستحاء من خياله على أن يكون صادقا مخلصا في التعبير عن روح الزمان و المكان دون تسوية للحقائق الكبيرة و المشاكل العظمى ، فيمكن أن يكون جوهر القضية التاريخية حقيقية و لكن الأحداث متخيلة" (3) ، و لكن ما المراد من ذلك ؟ فهل يمكن أن تعبر عن الأحداث التاريخية أم أنها ليست من أهداف السير الذاتية التي ترسم حياة الشخص ، وهل هدفها أن تستعيد صورة الماضي لإثارة المتعة التي لايحققها التاريخ ؟ إنه لايمكن للسيرة أن تقوم بهذا الدور الخطير إلا في جو يسمح بحرية القول و الإبانة بصراحة وصدق ، مع أن الصدق سمة ضرورية لسائر الفنون الأدبية ، قد جعلوا السيرة تزاوج متعادل بين حقاقق التاريخ و القوة المتخيلة البارعة في صياغة الحقائق.

لذى يمكن القول أن حاجتنا إلى السيرة الذاتية تكمن في التعبير عن العلاقة القائمة بين المجموعة و الفرد ، وبين الواقع و المتخيل ، و التعبير عن هذه العلاقات يعتمد على الصدق ، " فيجب أن نعطي العملية الابداعية كامل الحلاقات المتعاقبة و الوعي بالعمل الابداعي الأدبي إلى آخر بعض التنقيحات التي تكون لدى بعض الكتاب أكثر الأجزاء إبداعا و ثراءا ، لأنها ناتجة عن حضور الوعي"(4) .

---

(1) فوزي معروف : هكذا يصفون انفسهم ، شخصيات و مواقف ، منشورات اتحاد كتاب العرب 1997 ص51

(2) احمد سيد محمد : الرواية الانسيابية و تاثيرها عند الروائين العرب لمحمد ديب ، نجيب محفوظ ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص117

(3) احسان عباس : فن السيرة 86

(4) رينيك ويليك ـ أوستن وارين : نظرية الأدب ،ترجمة : محي الدين صبحي ، مراجعة : حسام الخطيب ،المؤسة العربية للدراسات و النشر ،بيروت1987 ص 88 .

ب) ـ شكل اليوميات :

فقد عاش الكثير من الكتاب المغاربة المعاصرين انفصاما سيكولوجيا على المستوى الذاتي بسبب التمزق الاجتماعي بين الأماكن ، و لا سيما بين البر البحر وبين الذات و الآخر، جعل السيرة الذاتية يغلب عليها طابع المناجاة و المونولوج في بعض الأحيان ، واضعة في الجهة المقابلة الآخر الاجتماعي الايديولوجي الثقافي في موقف يحدده القصد من وراء النص ، كما يمكن ادراج تلك النصوص في السير النفسية القائمة على الصراع النفسي و التأمل الذاتي و تشظي الذاكرة و تقاطع الذهن و الوجدان .

إذا كانت السيرة الذاتية في عصور مختلفة قد عنيت بالحديث عن الحياة العلمية والعملية ، فقلما وقف شخص عند نشأته و المؤثرات الخارجية التي وقعت عليه و أثرت في حياته ، ومن ثم "كانت هذه التراجم فقيرة من حيث المادة النفسية و الاجتماعية" (1) و لكن لكل زمان رجال، قد أصبحت السيرة (الجنس) على غير ذلك نظرا لطبيعة الظروف و ما أحدثته من تغيير على مستوى البناء و المضمون جعلها تهتم بمراحل الطفولة ، إذ أنهم خصصوا لها نصوص منفصلة وبما بعدها متصلة لكونها مراحل تشكل الحديث عن تاريخ الذات وبعث هويتها .

" فارتباط السيرة بالفكر المعاصر ، جعلها تتبع تيارات مختلفة ، وقعت عند كثير مما لدينا من حقائق أدبية و فكرية ونفسية ، وعن مدى دلالته على الشخصية الفكرية وصلته بالعصر الروحي للكاتب "(2) ، فالسيرة تنبع من ذاكرة تعتمد على الإسترجاع أصبحت تخضع لإرغامات في زمن الكتابة، فيقع الكاتب تحت سلطة شروط متنوعة متداخلة ، أقحمت النص في محور مشدود بطرفي الأهداف و الدوافع ، أخذت طريقها في النشر عبر أصداء المجتمع واستنطاق التاريخ ووضع معالم السلطة و استهجانها .

فحين يقع الإختيار على الكتابة كوسيلة انسانية في التأليف السردي ، فإن الكاتب يخضع لشروط تطور الكتابة عن الذات التي تعكس صورة الفن ، فبعد خروج الذات الفردية أو ذات الكاتب تحديدا من ركام الأوحال و سرديات كبرى و صورة ضخمة ، تشرع و تفسر وتحلل كل شيء بلغة السياسة ، تكاد ترفض أية لغة أخرى .

(1) شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، دار المعارف ، ط4 ، القاهرة ، ص 02/01

(2) محمد ابراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الادب العربي الحديث ، دار احياء التراث العربي ، بيروت لبنان ص06

ظهر "محمد شكري" في نصه كأنه يرفض الهدنة ، يجري في سباق مع الأيام وهو في الحقيقة من قساوة الظروف هارب ، في مواقفه اليومية في علاقته مع الطرف الأسري ، تبناه المجتمع ، في أسواقه ، الحانات و الأماكن التي توحي بالهامش ، فهو في ذلك أميل إلى اليوميات التي تتحدد بفترات الليل بهواجسه و النهار بأهواله بين الصباح و المساء ، فقد انتقل من الشكل الروائي في " الخبز الحافي" إلى شكل مغاير ، ذلك في المقدمة التي كتبها في " زمن الأخطاء"، "لقد لفت نظري ابتعادك من النوع الروائي و لجوءك إلى كتابة تحمل عناوين فرعية... فقد أجهد نفسه أن يلغي المسافة بينه و بين ما عاشه ذات يوم "(1) .

فالسرد عامة يتعلق باليومي من الأحداث ، " فيغرق السارد في تسجيل أحداث يومية مفصلة لكنها متشابهة من حيث طبيعتها ، إذ يدور أغلبها حول حياة التسكع في الحانات و الشوارع ، ولكنها تكرارا يساهم مساهمة ناجحة في اضفاء على النص شاعرية لا تنكر"(2)، النفس و الإجتماع و الطب و القانون و الفلسفة ، بعد ذلك انساق المؤلف نحوى ذاته المقصية و المستبعدة، وشرع في التصرف على ذاته المغتربة ، "فإنه يحس مثله مثل أي إنسان آخر بالحاجة إلى الخلاص ، ولكي تصبح قصته خلاصا حقيقيا لابد له من ذريعة يجدها في قصة حياته أكثر انسجاما من رغباته" (3).

" فالفنان إنسان تتنازعه تيارات متضاربة في حياته ورغبات كثيرة (4) ، ونحن في زمن توسعت فيه مجالات الأعمال و تنوعت مساعي الرجال و انكمشت الأبعاد و تقلصت الفوارق ، "فكان لحركة الفكر و حريتة آثار سلبية مرة وإجابية مرة أخرى ، ذلك تبعا لما تتمتع به أفكار المفكرين من قوة و ما تملكه من زاد في زمن عليه طابع الصراع في ميدان الأخذ و العطاء (5) لأن الذات تصنع المجتمع على عينها في النص ، جاعلة منه سلطة ، " فالمتمرد و الثورة و التعليم و التثبيت و الشرح و التفسير وتقديم السيرة بوصفها مدرسة الشعب ، سمات أعطت المفهوم الذي لم يفارق البرجوازية العربية الحديثة منذ صعودها " (6).

---

(1) محمد الباردي : عندما تتكلم الذات ، السيرة في الأدب العربي الحديث ، اتحاد الكتاب العرب ،2005ص158

(2) نفس الرجع ، ص 160

(3) مطاردات في اللغة و الادب : المجلة علمية ، معهد الادب و اللغات بالمركز الجامعي العدد 02 ص 39

(4) عبد الله بن حلي : الفكر الفرويدي واثره في النقد العربي بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه في الادب ، جامعة الجزائر، ص 189/188

(5) محمد صابر عبيد : تمظهرات الشكل السير الذاتي ، قراءة في تجربة محمد التبسي السية الذاتية منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2005 ص 36

(6) حسين يوسفي : المسرح و المرايا ، شعرية الميتا مسرح ، انشغالنا في النص المسرحي العربي و الغربي ، موقع اتحاد الكتاب العرب ص 184

الذاكرة المسرودة و المتخيل:

فالسيرة التي تقدم الذات و تصور جوانب عصر من العصور أو جانب من بيئة معينة " تعتمد على الصدق في التصوير، و تكون في ذلك قريبة من الطبيعة و الحقيقة الذاتية التي تنطبق على الشعب "(1) ، "لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا من خلال الواقع الذي يكشف لنا أسرار الذات "(2) التي جعلت الآخر منبرا للخطاب ، في حين أن الذات في السيرة المعاصرة تعيش في مكان و زمان معين محاطة بالمصائب و النزوات وهذا الإنسان و ذاك هو كاتب اليوم ، كاتب السيرة .

إن السيرةالمغربية محمولة بأ سماء حقيقية لكتاب ،و الحقيقة أن الذات كانت بين الواقع والخيال و بين حادث محتمل الحدوث وإحتمال حدوث الحدث ، فالكاتب يجافي ذاته ليعرفها، وينأ عنها ليدنو منها ، " يكتب كل ما هو حقيقي صحيح كل الصحة ،لأن المتخيل لا يكذب و ينشئ دائما بابا سريا تلج فيه الروح إلى فسحة تخرجها من كل رقابة "(3) ، فقد كان (شكري) عاق يمقت أباه و يلعنه ويتمنى موته فيقول: "مرة تعثرت ، سقطت هوى علي بالعصا ،عويت، شتمته في خيالي ، يضربني ويلعنني جهرا، أضربه وألعنه بخيالي ، لولا الخيال لانفجرت"(4).

الكتابة السردية منفتحة على المجتمع و تاريخ المرويات مع خصوبتها بالتخيل في تشخيص بعض وقائع ، "فهناك المستوى الذاتي يسرد الوقائع المرتبطة بالمؤلف ، و مرجعه دائما الذات ، و المستوى التاريخي الذي يؤسس الوقائع المرتبطة بالمكان ، لذلك جاء الخطاب بصيغة التعريف حتى أصبح التكامل بين المستويين في النص بصفته سيرة ذاتية ، عن قوله في الطريقة الخرافية هو "بمثابة الخروج من تاريخية الفرد و اندماجه في تاريخ الجماعة "(5)، و"هذا هو مركز الذات المكتمل بشكل مرعب بين الوعي الصحوب بالأنفعال إزاء العذاب و الموت ، وبين الوعي الذي يطورها تطويرا أدبيا"(6) .

---

(1) انظر محبة حاج معتوق : اثر الرواية الواقعيةالغربية في الرواية العربية،دار الفكر العربي ص18

(2) نفس المرجع : ص 20

(3) عادل فريحات : مرايا الرواية ، دراسة تطبيقية في الفن الروائي ، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب عام 2000 ص118

(4) أنظر نفس المرجع : ص129

(5) عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ، السيرة الذاتية في المغرب ، ص 29

(6) رينيك ويليك ـ أوستن وارين : نظرية الأدب ،ترجمة : محي الدين صبحي ، ص 91 .

فالسيرة فن هادف و له وظائف تحملها الأحداث ، (دون مراعاة طبيعتها)، مستعملة اللغة لتقديم الواقع لا للحكي ، إلا أننا لا نرى من ورائها، ومن الواجهة إلا ما أرادت له أن يرى، في إنسياب متواصل للفكر و الإحساس، ذلك بإستخدام المونولوج و الأسلوب الحر غير المباشر ،" في هذه الطريقة تقدم الأفكار على هيئة حديث يسرد بضمير الغائب و في زمن الماضي" (1) .

يتبدى هذا التقارب بين الشخصية الواقعية (المؤلف) و الشخصية الخيالية التي تبرز الذات ، تراها ولا تقبض عليها ، وكأنه الظل الممدود يحاكي صاحبه من أي زاوية ، سواء من الواجهة أم من الخلف ، وهكذا يمتزج الواقعي بالخيال ، مايجعلها تتمرد على انحصارها في خانة السيرة الذاتية لتتموقع في إطار ما يسمى برواية السيرة الذاتية ، و "أن الرواية التي تتخذ نقطة انطلاقها من التجربة الشخصية من موقع الذات للإطلال على الواقع بعوالمه و شخوصه لتبني فضاءها الروائي الخاص" (2) .

إن الكتاب يلجؤون إلى استغلال مرويات القصص التخيلية في رواية السيرة الذاتية للتغطية على العلاقة المباشرة من أحداث الرواية وأحداث حياتهم مراعين سلطة المجتمع التقليدي (الأنا الأعلى) بواسطة الرمز و المجاز و الأقنعة التي تتباعد فيها الأوجه المستعارة قصد الإشارة إلى موضوعها الأصلي أو الأوجهه الحقيقية ، "فنحن نبحث في الرواية عن الشكل ... و يجب أن نحصل على ذلك ، إذا كانت الرواية عملا فنيا يجب أن تكون ، طالما كان من الواضح أن النقل الحرفي للحياة أمر مستحيل" (3).

إن التخيل الذاتي يجسد فكرة عامة تكشف فكرة المثقف وخطاب المثقف غير القادر على مواجهة معضلات الواقع ، وقد تجسدت أزمة الكتاب بأنهم يعيشون على هامش الحياة، فأبدعوا لأنفسهم حوار متخذين من الحقائق التي تعد نقدا للواقع و تعقيدا لأراء وتفنيدا لأفكار و رفضا لظروف ، تعكس عكس الفطرة الإنسانية التي تضع مجمعا كالذي تطمح إليه الذات ، وذلك ليقدموا أنفسهم إلى الحياة التي لا تعترف إلا بأهل السلطة والمال ، أخذوا بالخيال لعبور الواقع و حواجز السلطة لإقرار الحقيقة و البحث في ثنايا المستقبل ، يبقي الخيال كرمز دال على بقاء شريحة إجتماعية على حافة الفناء، فليس لها إلا أن تحلم و تتخيل وتروي خيالاتها كعزاء أخير.

---

(1) محمد شعبان عبد الحكيم : السيرة الذاتية ، في الادب العربي الحديث ، رؤية نقدية ط1 2008 ،ص 165

(2) احمد البيوري : دينامية النص ط1 ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، الرباط 1993 ص 56

(3) أنظر صنعة الرواية : ترجمة عبد الستار جواد ، منشورات وزارة الصحافة و الإعلام الجمهورية العراقية (الكتب المترجمة رقم 101) 1981 ص 20

فالخيال قناع سردي في النصوص التي من شأنها تصوير الواقع ونقل الأحداث له حضور مختلف عن الواقع المادي ، حيث يسمح بممارسة أقصى درجة التخفي ، وبالتالي ممارسة المحضور إجتماعي و سياسي ، فهو يتناقض مع طبيعة الأقنعة التي ترمز إلى الزيف و الخداع و التمويه ، يكتسب مشروعية سردية في النص السيري ، كما يقترح حلولا غايته أن يصلح لا أن يفسد ، لأن الذات الواعية هي أصل للموضوعية.

يقول ديفيد دينتشي :" السيرة قليلة العون في تعيين قيمة الأثر الأدبي ، ولكن علينا أن نؤكد أن هذا لا يعني أن سيرة الأدباء الكبار قليلة القيمة في ذاتها ، ربما تساعدنا السيرة على تقدير قيمة الأثر الأدبي و لكنها دراسة مهمة" (1) ، فهو لا يعكس دائما حياة مؤلفه ، و لا هو باستمرار تعبير عن تجارب الشخصية الذاتية ، بل إن الأثر الأدبي قد يجسد حلم الأديب لا واقع حياته ، يكون نقيض الذي يختفي وراء شخصه الحقيقي ، قد يكون صورة من الحياة التي يريد الأديب أن يهرب بها في الفضاء من قضاء إلى قضاء.

" قد يجرب الحياة تجربة مباينة من خلال فنه ، فيرى التجارب الواقعية من حيث فائدتها للأدب، فتأتي إليه وقد تلونت بعض الشيء بلون التقاليد و المواصفات الفنية" (2) ، كما أن معيار الحقيقة لا نقصد به على الإطلاق أن يكون الأثر الأدبي صفحة من تاريخ المؤلف أو وثيقة من وثائق حياته ، إذ هو عندئذ حكم على الصدق الواقعي المستمد من سيرة الأديب ، و ليس الصدق هو بحث الناقد و إهتمامه ، لأن ذلك هو مربط الفرس للكاتب ، فالصدق هو قصده ، ولا نكاد نقف على هذا الاخير إلا من وقوفنا على حقيقة الشخصية من حيث المذهب و التوجه الفكري و الثقافي خارج النص.

إن صورة الواقع هي غير الواقع في الصورة ، و إن هذا الأخير لايعدوا في الحقيقة ، "أن يكون مجرد نتاج اختيارات تقنية معروفة لأداء دلالة محددة ، وكل هذه الإختيارات و كل هذه المناورات تثبت بناء صورة و بالتالي دلالتها" (3) ، لأن الحقيقة ليست هي الواقع ، و إنما هي ما يجب أن يكون عليه الواقع .

(1) ديفيد دينتشي : مناهج النقد الادبي بين النظرية و التطبيق ، ترجمة محمد يوسف ،ص 504
(2) نفس المرجع : ص 504
(3) مجلة ،علامات العدد 49 ، النادي الادبي الثقافي ، جدة رجب 1424 ، سمير2003،اليات الخطاب الاشهاري ض31

"في الوقت الذي يخضع فيه أحدنا للضرورة ، يكون ما يصيره خاضعا بدوره للتغيير بالقدر الذي يتغير به هو ذاته"(1) ، إعادة تركيب الذات في النص من حيث تتبع مسار السهم في حلاقات تطور الذات التي إنتهت إلى الكتابة التي تعد كمشروع للذات ، لأن تعدد صيرورات الأمور هي الأكثر تعذرا للإدراك ، لا يمكن أن يحتويها سوى حياة معينة ، ولن يعبر عنها سوى أسلوب معين،" إذ لا تكمن غاية الكتابة في الكتابة نفسها ، لأن الحياة ليست أمرا شخصيا ، فالغاية في الحياة التي تنسجها" (2) .

لا يقر الخيال على قرار ، فهوجنين لزمن آجل ، فالزمن النفسي يلعب دورا كبيرا لأن الذات تحاول الهروب من زمنها الحاضر عندما تواجه مشكلة ، فيكون هناك ربط سيكولوجي بالماضي ، إذ تلجأ إلى الخيال في كتابة الحاضر بانفعال ، "فعندما تريد الهروب منه تجد نفسها تعود إليه"(3) ، فإذا كان أصل الوعي طيف من اللاشعور، فإن الخيال أصل الحقيقة ، والذات في الخطاب المعاصر قد أظهرت أنها قادمة من مجتمع (البؤساء)، ولم يظهر ذلك إلا في صيغة خليط كيمياء مع الآخر الذي يتعدد في كل اتجاهات الذات .

يدرس النص الظواهر الاجتماعية ، مثل الصراع الطبقي و السلوكات المحدثة ، مو اقف تبرز الآخركيفما كان ، الذي يرى أن هذه المواقف ليست وقائع موضوعية إلى هذا الحد ، وليست نماذج سلوكية ، بقدر ماهي مواقف معقدة ، و لهذا فإن الأدب الخيالي يتفوق في شرحها على أي طرح آخر ، "فعلى دارس الاتجاهات و التطلعات الاجتماعية أن يستخدموا المادة الأدبية إذا عرفوا كيف يفسرونها تفسيرا ملائما ،ومن أجل المعالجة سيضطرون في الواقع إلى استخدام مادة أدبية أو شبه أدبية بسبب الحاجة إلى أدلة من علماء الاجتماع المعاصرين لتلك المراحل"(4) ..

---

(1) جيل دولز- كلير بارني : حوارات في الفلسفة و الأدب و التحليل النفسي و السياسة ، ترجمة عبد الحي أرزقان - أحمد العلمي ، دار غفريقيا الشرق ، ص 10

(2) نفس المرجع : ص 11 /14

(3) نورة بنت محمد بن الناصر ، البنية السردية في الرواية السعودية ، دراسة فنية لنماذج من الرواية العربية ، ص172

(4) رينيك ويليك - أوستن وارين : نظرية الأدب ،ترجمة : محي الدين صبحي ، مراجعة : حسام الخطيب ،المؤسة العربية للدراسات و النشر ،بيروت1987 ص108.

اتجاهات الذات السير الذاتية:

أ) ـ إتجاه الواقعية النقدية :

"لايمكن أن نتجاهل الإشكالات التي أصبحت تثيرها الدراسات العربية فيما يتعلق بالأدب النسائي بحكم اختلاف مكتوب النساء من مكتوب الرجال ، وتختلف النساء عن الرجال في الدرجة لا في الطبع "(1) ، وعليه فإن هناك اشكالات اخرى تنطلق من أن أدب الإعتراف حرام لدى النساء بحكم الوضع الاجتماعي للمرأة ، ولعل ذلك ما خلق التباسا لدى " ليلى ابو زيد " باحثة عن نفسها ،كأنها تقول : من أنا " وذلك لمن يسمح و يسمع لها خارج الوطن مظطرة لتطلب ملاذا تحمى فيه من القهر الاجتماعي ، السياسي و من الاظطهاد النفسي .

حيث عرف المغرب حملة على كل من بتبنى أفكارا مختلفة ومغايرة للسائد ، و لكن هؤلاء المهاجرين انشأوا أدبا طليعيا يدعو إلى العيش الكريم مهتدين بما وجد عليه الفرد في المهجر "وهم يؤمنون بمستقبل الوطن الأم "(2) ، فكل انسان أقام بعيدا عن أصله يظل يبحث عن زمان وصله ، ومن ذلك يتجلى الواقع النقدي لنظرة المجتمع إلى المرأة ، حيث "إن الكتابة تنقد ما يعتقده المجتمع العربي عيبا و يمنع المرأة من التعبير عن حريتها في أبسط أشكالها و هو منادتها بإسمها"(3).

و نخلص من هذا لتحديد مفهوم الفن في هذا السياق إلى تفاعله مع الكينونة بوصفها جزء من الهوية فضلا عن اسقاط الذات في عالم أخر، سعيا وراء الإرادة التي تسمح للذات أن تعي نفسها ، فالكاتب هنا يحمل واقعا يصبح موضوعا ،وبموضوعية التجربة يطرح فكرا، فالكتابة باللغات الأخرى هي إقتطاع لحم من أصله وبنفس متميز ليجعله جسدا مستقلا بذاته منفصلا عن هويته ، من لغته وعاداته وثقافته، محققا بذلك نظرية داروين التطورية في حقيقة الأجناس بحكم تجارب العرب ، كأن سياسة الغرب لا تخطئ ، لأنها علم ، يقوم على استنساخ الفكر بالتذويب و الإنسلاخ .

---

(1) ياسين بوعلي : حقوق المرأة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة ، دار الطليعة ، دمشق ط1 1998 ص05

(2) اسماعيل الملحم : التجربة الابداعية ، دراسة في سيكولوجية الاتصال و الابداع من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003 ص 19

(3) نورة بنت محمد بن الناصر : البنية السردية في الرواية السعودية ، دراسة فنية لنماذج من الرواية ، رسالة علمية مقدمة للحصول غلى درجة الدكتورة في الأدب الحديث ،ص 201

إن خصوصية الثقافة المغربية تكمن بالضبط في أدباء وشعراء ، يحدون بالناقة في الصحراء ، وآخرين يكتبون النثر في إحداث النماذج العربية في الرباط والدار البيضاء ومراكش وأنهم لا يجدون حرج في إعتمادهم لغة الآخرى في الكتابة ، فهذا المجتمع محال على التعدد بانفتاحه على العالم ، أمكننا أن نقول : التاريخ يعيد نفسه في بؤرة التهافت الذي استهجنه الغزالي بحكم نقل كل ما ينافي القيم التي حيلت عليها الذات بوصفها متمردة في مجتمعها شاردة في كل ما يحيل إلى الآخر .

"ونحن تطالع الأبحاث والدراسات الفكرية ، تجد هم يرصدون تيارين ، تيار المحافظة وتيار التجديد "(1) باعتبار أن احترام الخصوصية الثقافية ومبدأ التعدد ، هو احترام أولا للذات التي تعترف بهذا التعدد ، لأن احترام الذات هو من احترامها لخصوصية الآخرين كيفما كانوا ، وقد أوجده الإستعمار الثقافي اللبيرالي تحت جنا ح الوجودية التي حلقت بالذات ، "فلا يمكن أن يتحقق وجودها إلا بإعترافها بوجود الآخر (الثقافة) الذي وقف إلى صف التيار الذي خلقه هو بطريقة مباشرة من خلال العملاء المفكرين والمثقفين ، أو بطريقة الإعجاب والإشهار بحضارته التي جعلت بعض الناس يستهينون بتراثهم" (2) وعنه تمفصلوا حبذا لو انفصلوا .

ومن ثم قد أصبح التهديد الخارجي مستوطنا ومقيما وسط العالم العربي في اللب لا في التراب ، "وليس مجرد أساطيل تظهر في البحر أو جيوشا تغزو من البر" (3)، "فالاجناس الأدبية إجمالا بوصفها وحدة بسيطة من وحدات التأثير الإجتماعي ، تعمل على استمرار الوضع الراهن ، ولكن ذلك لا يعني أنها تساعد على تغيير هذا الوضع على مستوى عناصره ومكوناته الفكرية والثقافية" (4) ولامنها،إن وظيفة النص السيري إلا كصنم من أحجار الغير يعبد في أرض العرب .

فكل عالمية تنمو بالضرورة من المحلية،ويتعلق ذلك بصون المحلية لأنها رديف الخصوصية وضمانتها ، ولا سيما في مرحلة ما بعد الاستقلال ،"هذاما يؤكد أهمية التراث في دعم الهوية ...حتى وإن خرجنا عن القول الجاهز "(5) .

---

(1) شلتاغ عبود شراد : تطور الشعر العربي الحديث،الدوافع، المضامين، الفن،قسم الغة العربية ،جامعة سبعا،عمانط1ص91
(2) انظر المصدر نفسه : ص92/91
(3) أنظر محمد حسين هيكل : أزمة العرب ومستقبلهم ، دار الشروق ط2 2002 القاهرة ، ص 11
(4) عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر، قلونجمان ص97
(5)أنظر نبيل سليمان : أسرار التمثيل الروائي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2005 ص 15

وإذا كانت البيئات على إختلافها لا تبقى دائما في حالة من حالات الجمود ، فإن ذلك خليق للاستمرارية و التجدد على الصعيد الأدبي و الفكري والثقافي العام ، يكون يكون فيه الأدب قادرا على ايجاد حلول لمشكلات جديدة إن لم يكن في حد ذاته مشكلا ، إذا كان الإختراع كحدث للإستجابة لضغط واقع على ، "فإن الذي يحث على الإبداع والإختراع هو حاجة الفرد الخاصة به" (1) ، فكل في فلكه سابح ، و لكن إن لم تشتغل بواسائلك أستغلوا ضعفك.

إن " شكري "أول رجل مغربي كسا جسده بجلد و أشعل النار ، ولم يقم بذلك مدفوعا بشعور مجتمعي ، وإنما فعل ذلك لشعوره بالبرد ، وجدنا أن الدافع لتغيير نظام ما ، تتحكم فيه الظروف المتغيرة ، لا يصدر عن فرد لا يشكو منه ، "فالذين يخلقون الإبتكارات الاجتماعية والثقافية الجديدة هم الذين يعانون من الأوضاع الراهنة ، و لا حتى أولئك الذين يستفدون منها"(2) ، لأن ذروة الإحساس بالذات تنكشف بكل أبعادها الإنسانية من خلال أوضاع معينة ، أو تعرف اضظرابات وهزات اجتماعية أو سياسية وحتى فكرية ، ففي هذه الظروف الزمانية تجد الذات نفسها في حاجة إلى التوفيق بين نفسها و العالم الخارجي من حولها ، إذ تطمح إلى التعرف على هويتها وجوهرها وتجتهد في استقراء باطنها في ظل الموضوعية بمبدأ القياس مع الآخر، من حيث مناهجه و أساليبه و البحث عن مفاتيح قوته في أنفسنا ، ففي ذلك مكمن لقوتنها.

أليس " وهذا ما ينطبق مع قول " عبد الله العروي حين قال :" إن الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية أدب فرنسي بأقلام مغربية " (3) ، كيف استطيع و حتى أن أزعم أنه سيكون بإمكاني الإعتراف دون أن يكون لإعترافي قيمة غير قيمة الإعتراف الصادر عن شخص واحد وكيف ننظر إلى التجارب الذاتية على أنها المكونات الكبرى للأدب القومي في كل حين وآن(4) .

(1) انظر عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر، نلونجمان ص 98
(2) نفس المصدر : ص97
(3) ليلى عبد الوهاب : "تاثير التيارات الدينية في الوعي الاجتماعي للمراة العربية ، في المراة العربية بين النقل والواقع وتطلعات التحرر، ص 62
(4) محمد الجوادي : مذكرات الهواة والمحترفين فن كتابة التجربة الذاتية،دالا الشروق ط1 ص 12/11

ب) - الرؤية الانبهارية:

تتأمل الذات منجزات الآخر، وفي ذلك تامل للذات ، في البداية تكون نظرة تمفصلية توافقية ، بحكم الفوارق التي تطبع على وعي الذات ، وهذا كفيل بتفسير الصراع ،فقد انبهر كثير من الأدباء بالحضارة الغربية فانساقوا وراء نزواتهم الشعورية ولا شعورية ، فقد كانت رؤيتهم للغرب على أنه رمز للحرية و العلم والتقدم والإشباع الغريزي لكل المكبوتات ، ولكنهم سرعان ما استيقظوا من سباتهم ، ليتعرفوا على حقيقة الغرب المادي ، باعتبار أنه يعطي الأجساد و يأخذ الأرواح ، الدخيل الفكريا ودينيا وأخلاقيا واجتماعيا وثقافيا، لذى لكل بيئة مقوماتها الخاصة ، و القصد هنا هو معنى بالأضداد تتضح الأمور.

وتحضر هذه النمطية الحضارية كذلك في نص "في الطفولة "لإبن جلون" الذي يقابل فيه بين بيئتين مختلفتين حضاريا ودينيا واجتماعيا و تربويا ، البيئة الإنجليزية المتقدمة و البيئة المغربية المختلفة ، فهو يستحضر في سياقه الأوطوبيوغرافي فضائين متقابلين ، فيذكر فضاء (منشستر) وفضاء (فاس)، وهنا نسجل جدلية الداخل و الخارج و جدلية الانفتاح و الإنغلاق ، فضلا عن جدلية التغريب و التأصيل ، كما يدل ذلك على الحوار الحضاري و الثقافي و الديني ، إن لم نقل الصراع بناء على أسماء خاصة للأمكنة التي يحاكي بها الواقعية ، قصد الإحالة على مجموعة من القيم والسمات المتقابلة ، كالتطور و التخلف و العلم والجهل والبداوة والحضارة.

"النصوص التي تطرقت لموضوع الهجرة وأثارها على المهاجر، آثارت من قبل الذات إشكالية الثقافي و الحضاري ، جعلت الأدب يلقي الضوء على العديد من الظواهر التاريخية و الإجتماعية عبر الملاحظة و المقارنة و الإستنتاج" (1) ،وقد نتج عن كل هذا صراع و قلق و حيرة و الشعور بالغربة في البيئة المحيطة وبعدم الإنتماء فوقف الكثير منهم موقف الحذر و الريبة وسوء الظن و السخط و السخرية .

لا نستطيع في معرض الحديث عن الذات العربية أن نتجاهل الآخر (الغرب) سواء بوجه إجابي أو سلبي ، "وعندما يتم النظر إليه لوحدة لا تتعدد على أنه ميدان حضاري يحتوي موقفا ، ومن خلال بحثنا في اللحظة نفسها يصبح موقفنا منه إعترافي بالفعل، إذ يتحول إلى عدو و صديق في الوقت نفسه" (2) ، على أن أغلب السير الذاتية المعاصرة في المغرب ، ترصد حالة صراع في أطيافها نحو الغرب .

(1) مجلة نزوى : العدد 62 ، عقيلة ثقافية ، مؤسسة عمان للصحافة و النشر و الإعلام ص63
(2) مصطفى عبد الغني : الإتجاه القومي في الرواية العربية ، مكتبة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص96

إننا في رواية " الطفولة "(لعبد الحميد بن جلون) ، نعثر على العديد من الخيوط التي تجهد لنطرح علينا وجهة النظر الخاصة بصاحبها ، وهي رؤية مغايرة في زمانها، "فبدلا من أن يسعى الكاتب نحو الآخر الثقافي بوعي ، يبدو فيه الحرص على الذات الوطنية (كما فعل رفاهه الطهطاوي في مصر) ، فإنه على العكس يرى إطارا مرجعيا لكل شيء في الحياة العربية، وأن هذا الحس بالمغامرة يبدأ من السنوات الأولى التي تشكل وعيا بالبيئة الانجليزية "(1) .

عادة حينما يسبح الخيال فلا نجد أنفسنا إلا فيما نريد ، فما نكاد نخرج منه لولا الواقع المتحقق في الوعي ، فالعودة إلى البيئة المغربية (مراكش) دون روح الانتماء ، يفسر الإنبهار بالحضارة التي تبدو كطرف أقوى في خلق الصراع ، ما جعل إحساس الغربة يتحول إلى غرابة في الفترة الإجليزية ليظهر الفارق بينها ومثيلتها في بلاد العرب " المدرسة ، التقاليد ، الاكل و الشرب و الاغتسال ، الأيام الأفراح عادات الأنسان طرائق البيع و الشراء ، و النظام " ، كل شيء فيها غريب ، أطفاله نساؤها وحالها ، أكلها بيوتها .

وعلى هذا النحو راح الراوي يسرد من الواقع العربي ، بشكل (إحالة) كي تفعل فعلتها في وجدان المتلقي ، وفي ذلك الواقع المرئي الخارجي ، واقع نفسي ، فلا يلاحظه إلا الذات المماثلة ، فالآخر يظل هو الوجه المنقطع عن نظيره (المغرب) فظل هو صرح الذكريات التي تأبى الذاكرة نسيانها ، و يبقى المغرب يمثل بالنسبة لشخصية الطفل مرجعا مستمرا لكينونته ، لذلك كانت العودة إليه بالعودة إلى الأصل المفقود ، ثم يصبح الرجوع إلى " مانشيستر " عاكسا قــوة المرجع الذي احتكمت إليه الذات ،لإحداث التوازن و التوافق و الانسجام ،حتى تساهم في تثبيت الشعور الشخصي بالانتماء ، وهي تؤرخ لتطور الذات لإختفاء المعنى في مبدأ الإختلاف ، كأنها تتفاعل في الظاهر والإغتراب في الجوهرالمضمر.

(1) مصطفى عبد الغني : الإتجاه القومي في الرواية العربية ، مكتبة االسرة ، الهيئءة المصرية العامة للكتاب ص100

واقعية النص السير الذاتى المغربى :

يتعين على النص فضاءا دلاليا ، يعمل دلالة جاهزة ونهائية ، فهو كالجسد يغوي قارئه ، ويفتح شهير الكلام لديه ويحرك رغبته في الغوص إلى الأعماق فإن حاجة المجتمع المغربي إلى سبل كفيلة لترسيخ فن طارئ ، جعلت الكتاب يقومون بدورهم في خلق شروط فنية لتكثيف النصوص السيرية مع طبيعة الثقافة السائدة ،" وقد اختلفت وسائل التكيف بوسائل وثائقية و قراءات تاريخية حينا وجمالية حينا آخر، حتى جعلوا النص السير الذاتي مرآة لذاته و لواقعه في آن واحد ، وذاك ما أفرز نزعة تأملية ذاتية داخل هذا النص بمواصفات كل ما يشغل قضيته القومية "(1) .

إن من تطور المجتمع و اختلاف ذهنيات الناس وطبيعة اتجاهاتهم تسير وفق منظور تطوري في اندماج الخاص بالعام ، قد أسهمت في نضج المنهج الكتابي وخصوبته ، إذ نجد أن الكاتب قد تمكن من تحويل فداحة القضية و اشكالاتها المعقدة بواقعها الإنساني إلى مشكل ابداعي يتكافأ مع المشكل الوجودي ، فالكفاح الثوري كان في الكلمة نحو مراتب متقدمة في السن ، فحسن التغيير عن جوهر القضية وتقديمها إلى الآخر بأسلوب حضاري يضاهي الأسلوب النضالي المتجسد بصورة " الفدائي " ، وهذا مايعكس جل النصوص العربية التي ،أرَخت لحقبة استعمارية ، جعل النص السير الذاتي مدفوع بالحس الجمعي ، ليأخذ دوره في ربط الذات بعصب القضايا ، كلما سعت السيرة إلى الذهاب بها بعيدا في حقل الإنتماء الخاص " (2) .

"حينما نتصفح صورنا أو نواجه المرآة يصرخ شيء عميق فينا و تتلون الأشياء و الكلمات تنشرح الصدور... وإن عزاءنا في أننا حاولنا أن نكون فاعلين في واقعنا العام وأن صدقنا هو الشاهد" (3) كشهادة النجوم على أسرار الماضي حتى وإن حجبتها الغيوم ، وماهي في النصوص إلا مواقع تركتها ليهتدي بها من هو بعدهم في سياقات وأشكال تعكس طبيعة الحقائق، وحكمة الأهداف حتى لا تعمل ذاتها في الوظائف ، فكل عصر يقتضي إشكاليات تفاعلية فكرية و اجتماعية و تفاعلات أدبية و فنية خاصة به ، منها ماهو مطروق سابقا ومنها ماهو مستجد ، تصنع للعصر الذي تنمو فيه تمايزا يجعله مختلفا عن العصور الأخرى وفق الزمن ، والخصائص المكانية بدلالة الإنتماء .

---

(1) حسين يوسفي : المسرح و المرايا ، شعرية الميتا مسرح ، انشغالنا في النص المسرحي العربي و الغربي ، موقع اتحاد الكتاب العرب : ص 184

(2) محمد صابر عبيد : تمظهرات الشكل السير الذاتي ، قراءة في تجربة محمد التبسي السية الذاتية منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2005 ص 44

(3) أنظر نفس المرجع : ص46

" إن القوانين في الأدب تتوحد دائما من خلال الظواهر اجتماعية التي تعد قيمة متغيرة، يعيد كل جيل من الأجيال المتعاقبة انتاجها بطريقته" (1) ، ومن هنا فإن مضامين السيرة الذاتية المغربية المعاصرة تحمل عبء الواقع المحلي الذي يختفي فيه صوت الفرد ويعلو فيه صوت العام المشترك محدثا التفاعل الذي يسعى نحو غد أفضل بواقع أجمل.

فالسيرة المغربية جريئة بقوة أزمات الواقع المغربي المعاصر، السياسية والإجتماعية و العاطفية و الفكرية ، إنه لا يتساوى في ذلك الكتاب و الكاتبات إلى حد مايساوي الأدب الرجالي و النسائي ، فإن الكاتبة" ليلى ابوزيد" في سيرتها "رجوع إلى الطفولة" لم تهتم كثيرا بقضايا المرأة (الأنثى) بقدر عنايتها بأزمات المرأة (الانسان) و الحفاوة الشديدة بأزمات الواقع، جعل الكاتبة تنتج معرفة جدية حول زمن الإستعمار الفرنسي و هو الزمن المهيمن ثم زمن الإستقلال الذي ينتهي به النص، بحيث يشكل الزمن الأول من أحداث الإجتماعية و سياسية التي تمحورت حول الساردة و حياتها و انتقالاتها بين مدن عديدة بحثا عن زوجها ، فلم تدخل مجال السرد منفردة ،وإنما انخرط مع الإنفتاح السردي لهذه السيرة في نون الجماعة .

لاشك أن الساردة بمعادلة استعادتها لطفولتها ، أرادت استحضار الآلام التي صنعت هذه الطفولة قصد اخراجها من الصمت التاريخي ، ثم دفعت بها من الإنجاز المعبر ، فهي تبحث عن اكتمال هويتها ، وبهذا الحضور القوي يتحول رهان السيرة من الحكي عن الخاص الفردي و الذاتي إلى الحكي عن العام الاجتماعي ، عن الأم و التاريخ و بالأحرى عن المرأة ، عن النساء ، عن دور المرأة في المقاومة .

فالسيرة الذاتية جنس أدبي يأبى على الإنضباط في شكل محدد ، يتظاهر في شكل التمرد ،و الرفض والإنفتاح على مراحل التوتر و القلق في حياة الشعوب ، و من هنا يعكس هذا الجنس الأدبي العلاقة القوية في البنى الأدبية و الاجتماعية ، ويمزج بين واقعية الرؤية و شاعرية الأسلوب ، فالسيرة الذاتية ليست أدبا مستقلا و إنما هي نوع من الأنواع السردية ، تتخذ قواليب و أشكال مختلفة حسب اختلاف المقاصد و الاهداف، تتجسد في الوظيفة التي تتطلع إليها الذات وهي تجربة أدبية تصور حياة شخصية تعد همزة وصل بما قبل و ما بعد ، لكنها تؤدي إلى وحدة الإنطباع .

(1) رامان سلدن : النظرية الأدبية المعاصرة ، ترجمة، جابر عصفور ، دار قباء للنشر و التوزيع ، القاهرة1998،ص51

معظم النتاج السيري المغربي المعاصر يصور عن رؤية واقعية جديدة ، يمكن أن نسميها الواقعية ، بحكم أنها رؤية تعبر عن لحظة في حياة المجتمع لذات معذبة تكسبها الذاتية انفعال الذي لا يقبل الخيال ، رؤية تتسم بواقعية التصوير حيث تناول سرد الحدث بوصفه السبب و النتيجة ، تستوحي طريقة العصر في التفكير و التعبير و البحث عن الحقيقة ، من خلال أسبابها المنطقية الموازية لحركة الأحياء.

يدور مضمون السيرة حول شخصيات تمثل مختلف الشرائح الاجتماعية التي تجسد في الذات الكاتبة ، من المهمشين إلى ذوي انطباعات العالية (البرجوازية) تتحرك بتلقائية و ببساطة دون تضخم أو انكماش ، فإذا كان في الرواية و القصة بطلا ، فليس في السيرة المعاصرة المغربية بطل ، يمكن أن يكون هو واحد من الشخصيات العادية ذات أحلام متواضعة ، لأن الشخصية المحورية أصبحت تكشف للقارئ عن حقيقة انسانية كانت مغيبة .

فالسيرة المعاصرة ، هذا الفن المتمرد الذي يأبى الانظباط في شكل محدد . يهدف إلى تحطيم الحواجز النوعية بين الخطابات الأدبية ولاسيما الرواية ، " فمن خصوصية الابداع التمرد على المتعارف عليه و الثورة على الروتين و الخروج على المالوف " (1) ، باعتبار المتغيرات الخارجية التي تكون النص، من أشكال و مضامين، القدرة على تجاوز الذات و تصوير هموم الانسان المغربي في عالم سريع متغير ، و التعبير عن أزمته النفسية و الاجتماعية، وازدهار السيرة المغربية في العصر المعاصر بشكل لافت على ما سبق ، تؤكد قدرة هذا النوع على عكس نبظ الواقع و التعبير عن آلامه و آماله .

فالذات المغربية المعاصرة تسعى بقوة نحو الاسهام في مسيرة الأدب العالمي من خلال تقديم نماذج تحافظ على الهوية القومية و الشخصية المغربية ، فالمحافظة على الهوية الذاتية تعد بداية نحو العالمية ، حتى تكون في مستوى الرواية و القصة ، بحكم أنها تمثل الحياة العامة انطلاقا من الخاص ، و لا سيما في استرجاع الأحداث و الموضوعات اليومية " حتى بذلك تمثل الواقع و الفن ذاته ، إلا أن الرواية تستخدم الواقع اليومي كمادة خام تعمل على انتقاء ذلك الواقع وتنظيم لاهتمامها بالفن ، مما يجعلها تتحاش الواقع و التاريخ على العكس من النص السيري " (2) .

(1) بشير يخلف : وقفات فكرية- حوار الذات...وخز الآخر- مقالات -دار الهدى- عين ميلة -الجزائر،ص151
(2) انظر فيصل الأحمر : نبيل داودة - الموسوعة الأدبية ، الج 2، وزارة الثقافة - دار المعرفة ، ص250

1) - دوافع الكتابة:

لماذا يكتب الكاتب سيرته الذاتية ؟ هل لاستدراك ما مضى في آنية الكتابة بالبحث في هوية الذات ، أم لأمر تحقيق المستقبل ؟ أم لاعتبارات منها ماهو سياسي أو فني فالدوافع عديدة حسب مقومات الشخصية و مبادئها التي تفرض عليها أن تحقق، ففي المجال الاجتماعي ، يجب أن تكون الشخصية سوية لها دورها في تقصي طبيعة المجتمع والبيئة ، ناقما أو معقبا ،أو مؤيدا سائدا أو لنزعة عقلية ، إلا أن الجابري في نصه لايكاد يُبين ، فإذا أشرت إلى دافع معين ،كأنك تلمح إلى نجوم في السماء من بعيد ، حتى أنك لا تستطيع تحديده " لا استطيع تحديد دافع خاص كان وراء كتابتي لهذه الحفريات " (1) ومعنى كلمة (الخاص) التي تعني اثبات العموم الذي يشمل دوافع داخلية وخارجية .

ومن جهة أخرى يردف قائلا " الشيء الذي استطيع تأكيده هو أن كثيرا من الأصدقاء طلبوا مني مرارا ومنذ سنين كتابة نص عن طفولتي" (2)، ولا غرابة في ذلك ، حيث نجد أن هذا الدافع يتكرر عند كبار الأدباء و المثقفين قي البحث عن طفولة الشخصية في مثل مادفع "جبران خليل جبران"، لما لهذه المرحلة قيمة كمرجعية لشخصيات أثمرت في مجالات و فضاءات، حيث يبقى منبعها مجهولا ، يجعل الذات في النص السير الذاتي ركيزة أساسية في دراسة الشخصية في وعيها و العالم و إتجاهها الإيديولوجي وفكرها حتى لا تبقى النتائج مبتورة في أصلها .

وقد نجد في ثنايا النص التابع ، ينوه إلى السبب الذي أنتج من أجله النص " يرجع أولا وأخيرا إلى حاجة فكرية قبل أن يكون الدافع نفسيا أو إجتماعيا"(3) ، فهذا ما يعطي للسيرة الذاتية شكلا مطابقا حسب طبيعة الذات ونزعها الإيديولوجية و ال فكرية و الثقافية ، فما حاجة الجابري وما طبيعة الرسالة في النص؟، كان هناك دافع عائلي محض، " فالذي دفعني إلى الكتابة هو الإحساس بأني أريد أن أقول شيئا هو التعبير عما كان يختلج في صدري له علاقة بالزمن و النمو من متطلبات الإدلاء ابتداء من مرحلة الصبى ، و ما أفرزه الجو الأسري العام و العلاقات الإجتماعية داخل الأسر التي تلقى فيها كل أنواع الرعاية الكاملة"(4) ، إلا أن هناك شحنات زادت الضغط مع مرور الأيام، وغياب دور الأم الذي غيبته جدته لأبيه من جهة وجده لأمه من جهة .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات الذاكرة من بعيد ص 221
(2) نفس المصدر: ص 221
(3) نفس المصدر : ص 221
(4) نفس المصدر : ص 200

المثل الأفصح على ذلك هو المرأة التي يقع عليها عادة الجرم الأكبر، الذي "يفرض على كيانها القسط الأوفر من الإستلاب من خلال ما تتعرض له من تسلط ، مايفرض عليها من رضوخ و تبعية وأفكار لوجودها و إنسانيتها ... "(1)، مايعكس طبيعة المجتمع ونظرته إلى المرأة التي يعود إليها الدور الأساسي في مستقبل كل جيل ، إلا أن الجابري قد أثار الإستقرار و التوازن و الإنبساط الذي غير الشخصية التي تعلمت كيف تعيش مع نفسها والعالم و تفاعلها مع النفس و الاشياء ونمو الإحساس بالثقة والتوافق الإجتماعي.

والواقع أن ما حدثنا عنه يسلمنا إلى الحديث عن علاقة النص ، كسرة ذاتية بتقنية التشفير (المعرفة الموضوعية)، ولعل القارئ يشعر أن الحديث عن مرحلة الطفولة بمختلف مستوياتها ، "إنما هو رحلة تنطلق من التصورات الذاتية التي يتغلب فيها الالتزام إلى التصورات التي يبدأ فيها الموضوع بالانتصار على أوهام الذات الحاضرة دائما بشكل من الأشكال حتى في المعرفة العلمية" (2) .

فهل الكاتب هو معني بالإصلاح النفسي و التربوي والإجتماعي الذي أدته مختلف أعماله لحقن اخلاقيات المجتمع ، مع العلم أن الدراسات الإجتماعية أثبتت أن فئات المجتمع تنجذب إلى قراءة الكتابات الوجدانية العاطفية أكثر من قبول فكرة تخضع للعقل و يسيطر عليها المنطق ، إن الجابري كان منطقيا في الطرح انطلاقا من الأحداث التي تصور أو تعطي مستوا اجتماعيا ، فما تفرزه هذه الأحداث من آثار نفسية التي عرضها وحصرها في أطراف المجتمع في غياب أمه ودورها عليه ، ما أثار في نفسه حسرة وغيظ و قنوط و غيرة على المرأة في وسط مجتمع متخلف ، "إن السيرة هنا ليست تجسيد للواقع فحسب ولكنها فوق ذلك موقف من هذا الواقع ، و هذا الموقف لايمكن أن يتخذ إلا بإعادة إنتاج الصراع الواقعي في النص "(3).

فالسيرة الذاتية هي سفر في الحياة عكس إتجاه الزمن ،"فالجابري" يربط نقطة انطلاق إلى الماضي بعد سن ستة و أربعين عاما بعد تذكره لتفاصيل وهمية ، " لقد شعر صاحبنا حينما كان يسترجع لأول مرة ...أنه يسافر في الذاكرة إلى الوراء بلمح البصر ، ولكن عبر مراحل (4) وكل مرحلة تربطه بأخرى ، و المراحل أحداث وواقائع التي تشكل في مجملها الحفريات حتى أنه بدأ في أول حدث في الزمن مع أمه .

---

(1) د،مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ،مدخل الى سيكولوجيا الانسان المقهور،المركز الثقافي العربي ط9، ص 32

(2) حميد الحمداني :النقد الروائي و الايديولوجيا ـ فن سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي ، المركز الثقافي المغربي بيروت ط1 ص 24

(3) نفس المصدر : ص 51

(4) محمد عابد الجابري : حفريات الذاكرة من بعيد ص 174

فالكتابة متعة و الرسالة أمانة ، " فلا يمكن للكاتب أن يتجرد من ذاته و لا هويته و لا من مجتمعه ودينه وقيمه ، لذا ربما يكتب من أجل ذلك كله" (1)، إننا نكتب بداية من أجل أنفسنا حتى و إن قلنا ذلك من أجل فكرة ما ، أو من أجل الدفاع عن مبدأ أو قضية، فإن ذلك لا يتعارض مع منطق الجابري في نصه وهو يتحدث عن نفسه ، كانت محور كل حقيقة التي انطوت عليها الذات و تعددت معها الدوافع ، جعل الجابري يقفز فوق عقبة همومه ، فهو بذلك يتخلص نفسيا وجسديا من قوقعتها إلى الكتابة بموضوعية تنطبق مع نزعته الجماعية و الفردية الوطنية ، انطلاقا من استبطان ذاته ، لاسيما في واقعنا المعاصر الذي يضج بالأحداث و المتغيرات .

في (الحفريات) لم يهتم بالمجال الفني على قدر إهتمامه بطريقته الخاصة التي تعود على الأخذ بحريته واستقلالي بقدون أي ضغط خارجي ، إلا أن الكاتب المعاصر(الجابري) لن يتعب في ايجاد الموضوع الذي يتحدث فيه ، مع العلم أنه يتعذب ولكن إذا رآه الناس عليه أن يقول ما يقلق الناس ويفيدهم في حياتهم ويهديهم إلى ماهو أفضل ،" فالذي يقدم طعاما للناس لا يعرض عليهم أدوات المطبخ ، فليس هذا عن نشأتهم "(2)، فالمعاني مطروحة في الطريق ، مثبوتة في التاريخ ، جلية في الواقع يعرفها العجمي و العربي و البدوي و القروي ، لكن من يتلقاها يقدمها لنا ثمرة ناضجة

وعليه نجد أن الكتابة في الحوادث الإجتماعية تستدعي بحكم الترابط الحي للظاهرة الإجتماعية ،مجالات وعلائق تنتمي للفكرة العامة و لطبيعة الأفعال ومقاصدها ، لأن الفن وراءه دافع و أمامه هدف ، "والكتاب في مجال المجتمع والحوادث الإجتماعية طموحون وراء عملهم المنصب على ما هو اجتماعي في وجود أفكار مسبقة طموحة ، هي اعطاء أحكام على المجتمع والحضارة "(3) ، فقد تتوالى على كل مجتمع فترات اتباعية وأخرى ابداعية ، في الحالة الأولى يكون الوعي العمومي مساويا للبنية الإجتماعية ،" فبهذا يسهل رصد أوجه التطابق والإنعكاس، حتى يكون في وسع الدارس تكوين صورة تمثل بنية المجتمع"(4) ، فما من عمل أدبي إلا وكان من منطلق ذاتي بموضوعية تتلاقى فيها مع الآخر .

---

(1) بشير خلف : وقفات فكرية ، حوار بين الذات .. وخز للآخر، مقالات ، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ص 286

(2) نفس المرجع ص 290

(3) علي ريعور : أحاديث نفسانية واجتماعية ومبسطات في التحليل النفسي والصحة العقلية ،دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ص30 .

(4) أنظرعبد الله العروي : ايديولوجيا العربية المعاصرة ، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء ط11995ص 27

معنى العنوان: "حفريات في الذاكرة من بعيد".

حفريات في الذاكرة ، عنوان السيرة الذاتية ، فهو في معناه المنهج الذي اعتمد عليه الجابري في كتابة سيرته ، لأن معنى الحفريات قد تجلى في استرجاعه لبعض الأحداث وهو لم يبلغ الفطام ،لأن الوقائع بمجرد وقوعها تتحول إلى ذكريات وتتراكم ، حتى أنها تأخذ حكم الأثار ، وما الذاكرة إلا منقب على تلك الأثار التي قاومت عوامل التحلل و الاندثار ، وهذا ما يوحي بصدق ما جادت به ذاكرته ، وكانت له قراءة و تحليل و تفسير في ذلك ، كما يكون للمنقب و عالم البحث في قراءة المعالم .

كما لا يكون الحفر إلا بأليات مخولة لذلك ، ولم يكن الجابري في ذلك ليعطي قيمة لكل ما جادت به ذاكرته ، لأنه كان بصدد التنقيب على ما يخدم موضوعه ، فكان يمحص و ينتقي الأحداث التي يفرضها السياق ، و خاصة أنه لم يراعي في ذلك الترتيب الزمني أثناء حضورها في الذاكرة ، فهذا ما يفسر حضور الوعي و العقل ، الذي أعطى للأحداث دلالات أخرى غير التي كانت عليها في الواقع ، إلا أنها أفرزت في النفس بعد طول الزمن ، كما أصبحت تحمل معاني في تراكمها ،مما يثير اعتماده على سياق ما كان يثير خانة انفعاله ، حتى أنه كثيرا ما كان يستطرد .

لم يكن لتلك الأثار في النفس و لا في الفكر ، وإنما اعتمد على ما جادت به ذاكرته ، وبحكم أنه في موقف استرجاع و العودة إلى الماضي ، حتى أنه خص لكل حدث كلمة "أتذكر" التي يحدد فيها مستويات التذكر ، التي يؤكد فيها اليقين ، وأحيانا أخرى يعطي للحدث نوع من الشك ، وخاصة في الأمور التي تعكس الجانب الداخلي ، حتى يعطي للسيرة الذاتية حقيقة بصبغة نفسية اجتماعية ، من حيث اعتمادها على آلية التذكر، منوها إلى أنه لم يتذكر أشياء ، كما أنه لم يصرح بكل ما استحضرته ذاكرته .

إلى جانب ما أضافه تحت العنوان " من بعيد " ، إنما يدل على أن هذه الحفريات تعكس أن صاحبها قد أتى من عالم كان غير العالم الذي يعيشه أهل زمن الكتابة (الحاضر) ، وذلك بحكم الظروف و الأوضاع التي كان يقف معها في تحدي ، وكل من كان متزامنا معه في تلك المحن ، إنه آت من بعيد ، كأنه في ما وصل إليه سابق فيه الزمن ، في تخطيه كل الحواجز التي جعل منها حوافز صنعت منه ما هو عليه الآن ، لأنه أراد من وراء ذلك أن يؤكد فكرة التغيير ، وأن يسن في ذلك سنة حسنة للموافقة بين التراث و مصايرة الراهن.

لقد أعطى " الجابري" لكلمة (بعيد) معنى أبعد ، فالأول كان محصورا على مستوى الذاكرة الفردية منطلقها مرحلة الطفولة، أما الثاني فقد ناء بمعناه نحوى الحقائق التاريخية العامة التي تحدد مرجعية العام و هوية الذات القومية والثقافية ، من حيث أنه انطلق من تاريخ الجماعة الذي يشمل القسمات الثابتة ، و هو بذلك يتفاعل مع التاريخ الممتد ، و حلقة في سلسلة تشكل السيرورة و الامتداد من الماضي إلى المستقبل ومرورا بالحاضر، كأنه "نهر يمتد منبعه بعيدا منذ منتصف الثلاثينات ، حيث يتصل بروافد آتية من مسافات أبعد"(1) .

فمعنى "من " التي أصبحت تفيد الغاية الزمانية بحكم ما تفرضه الكلمة بعدها، فغايتها الابتداء التي تعكس المرجعية الفكرية و الثقافية، لأنه يتحدث بحاضره عن الزمن الماضي الذي تجاوز الزمن المرهون بالمكان في حياته الواقعية في سياق المقارنة ، فهذا الانتقال من نظام و طباع اجتماعية (التقلدية) سائدة إلى نظام وطباع جديدة ، هو أهم ما يلفت نظر الكاتب في " الحفريات" بصفة خاصة ، بل تصوير هذا الانتقال أو التطور أصبح ميزة تتميز بها السيرة المغربية المعاصرة ، لأن أغلب النصوص المعاصرة شغلهم أمر مجتمعهم و أزعجهم التغيير السريع الذي فرض نفسه على الحياة من حولهم .

فلهذا جاء نص " الحفريات" قسمة بين التسجيل و التعليم ، فالتسجيل يهتم بوصف الأماكن و الأحياء ، لذلك يريد أن يثبت كل تراه عيناه قبل أن يغيب عن الذاكرة ، فإنه نوع من الاعتزاز بالماضي و الانتماء إليه ،أما التعليم ـ النزعة التعليمية ـ في السيرة لأن الكاتب في حديثه عن نفسه لم يأخذ موقعا حياديا ، يصف الاشياء و الأشخاص والأحداث من وجهة نظره ، ويلاحق الوصف بابداء الرأي و يعقب على ذلك الرأي باستخلاص الموعظة و توجيه النصائح .

(1) محمد عابد الجابري : حفريات الذاكرة من بعيد ،ص07

مضمون النص ومعطياته:

أ) - الأحداث :

"حفريات في الذاكرة" تتعرض لحياة الجابري الطفولية كيف عاش هذه المرحلة العصيبة و المهمة في حياته ، طفولة الحنان الأسري و الدفء العائلي على الرغم من التفرق الأبوي الذي لم يجعل منه حلقة مفقودة ، "وهذا يعود إلى طبيعة الأسر الكبيرة والتي كان لصاحبنا حظا وفيرا من جده الذي لم يكن يبخل على حفيده بقطعة من السكر عندما يكون بصدد إقامة الشاي ... إذ لم يكن يحضى بمثلها أحد من أفراد العائلة " (1) فهذه الحياة كانت كافية أن يعيش صاحبنا طول حياته الطفولية حالة الإستقرار الذي يتجلى في كل تصرفاته الإجتماعية وحتى النفسية .

لم يشأ أن يخضع في النص السيري لتقنيات الكتابة المعروفة ،إذ ظهر في كتابه ميلا واضحا في التنويع وفي مجال استعمال اللغة بتقنيات جديدة ، يشعر أنه أكثر استجابة لتجربته من جهة، وتوفر له من جهة أخرى حرية أكبر في أظهار مهاراته الكتابية وتقديم صورته بشكلها الطبيعي من دون تحسينات، مركزا على حياته الطفولية من اللحظة التي دفعته فيها أمه ، كأن تلك الدفعة هي مسرح عالمه النفسي ، جعلته يخرج من عالمها (الأم) إلى عالم مشتت، أصبح وضعه كقطعة لحم بين المجانين ، وخاصة بعد انفصال الوالدين" (2) فانفصلت روحه عن جسده فبقيت عالقة مع أمه

ولكن ما فائدة الجسد و إن تلقى الرعاية الكاملة من عائلة جده لأمه أو جده لأبيه ؟ فهذا بيت القصيد في نصه "حفريات في الذاكرة"، بحثا عن هويته في مجتمع يدوي كرمز طبقي ،الذي يتجلى في الصراع الطبقي برؤية ذات طابع مونولوجي، كان ذلك واضحا في لغة المناجاة، جعله يقوي من الوسائل الفنية التمويهية بجلب انتباه القارئ لوجهات نظره ، كأنه بذلك ينظرلأسس مجتمع سليم وفق أولوية الروح على العقل و وللعقل على الحسد، و الاهتمام بالمجتمع الذي يعكس قية الفرد فيه ، و لا يكون ذلك إلا إذا عرفت الذات قدرها وأدركته .

---

(1) أنظر محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ،ص 30

(2) نفس المصدر : ص37

إن تأثير السنين الأولى في باقي الحياة، و خاصة إذا ما عانت الحرمان وو المنع من السؤال في الأشهرالأولى من الطعام و الراحة و المحبة ، "قد يصبح من المعتقد أن مشاكل الكبار النفسية من قلق وشراصة وشقاء في الحياة الزوجية ، وما شبه من انحرافات المراهقين ،تبذر بذورها في السنين الثلاث أو الأربع الأولى من العمر" (1) .

ومع كل العناية التي حظي بها "صاحبنا" من جميع أفراد عائلته سواء أهله من جهة أبيه أو من جهة أمه ، فإن الشخص الذي يقره ، هو جده لأمه يستحق فعلا أن يسمى مربي صاحبنا " الحاج محمد الحاج " ، وفي هذا إشارة لتزكية الأصل الذي تجسده الشخصية"الحاج" ، وخاصة بما أثر به في وعي الذات ، مروجا لمجمل الأخلاق النبيلة و التواضع الرافع و العلم النافع ، جاعلا منه النور الصاطع لا على القرية بل إلى حاجة كل الأمكنة إلى مثله ، مثلما يضفي على الذات الموضوعية ،فهي بذلك قبس منه، و"الحفريات" نص ليس للجابري ، وإنما الجابري كل من تزامن معه وآمن و فكر بمثل ما يفكر به ، "فما صاحبكم بمجنون" لأن الشخصية مبادئ ، والمبادئ أفكار و سلوك .

ولو تعمقنا واقتربنا قليلا من أنماط الشخصية المزاجية و الحماسة الاجتماعية و النفسية ، نجد أن الكاتب حاول تجسيد صورة النشأة في كل حالة من هذه الحالات، وكل نمط من أنماط الشخصية ، له علاقة بالآخر مشكلين في ذلك طبيعة الشخصية المركبة ، وقد تكون حالة الإنبساط التي يأتي بها الكاتب ،بوضع الحقائق وفق آلية فرضتها الظروف ، وكأنه يلمح إلى حقيقة (الأم) كشخص ، هي التي تصنع الأمة على أنها هي التي ترعى وتربي ،هل بعده عن أمه شكل له الحرمان ؟ هل كان حرمانا كليا أم أنه جزئيا، مع العلم أن أثار الحرمان تظهر في تعطيل النمو الجسمي و الذاهني و الإجتماعي و في اضطراب النمو النفسي .

من هذ ه الزاوية نجد أن الشخصية في نص "الحفريات" ظهرت وكأنها تحاول أن تلملم نفسها من خلال اظهار المواقف التي كان لها سبب فيما هي عليه ، ومن أهدافه أن يخرج بنا من الواقع الكائن إلى خلق واقع ممكن ، و كأنه في موقف يريد فيه المصالحة مع التاريخ بعد المصارحته بما كان ، وذلك عبر مراحل حياته ، فكلما اقترب بذاكرته نحو الحاضر زادته انفعالا ، لأن حاضر الذات كان خاضرا من خلال ماكان ينتابه من مشاعر اتجاه ماكان بصدد الحفر فيه ، عسى أن لا يكون قد نفخ في الرماد .

---

(1) كامل احمد : سيكولوجية الطفولة ، مركز الاسكندرية للكتاب دار المعارف ، 1998 ص 05

ب) ـ شخصيات الأسرة الكبيرة:

فإن الأسرة هي البيئة الأولى التي يرجع إليها الأمر، " حيث تهيء باستعداداته البيولوجية و النفسية ليغدو لبنة لعملية التنشئة الاجتماعية السوية التي تكسبه ثقافة الجماعة ، و ليست الأم ذات دلالة في عملية التطبيع الاجتماعي للطفل وحدها، و لكن الأب له د ور هام في مجرى تكوينه "(1) ، لأنه ثمرة المستقبل بالنسبة لكل بلاد نمت وتفشت و استثمرت استثمارا ناجحا وفق ما تجسده الأعمال ، وهذا الفرد لم يولد كبيرا وإنما بدأ صغيرا " من الواقعة الأولى وهو ما يزال رضيعا يحبو "(2) ، ولا يعني النمو الجسدي فحسب ،لأن الانسان لا يكون دافع متميز لمجتمعه إلا إذا كان الاهتمام به كبيرا من جميع النواحي النفسية، الاجتماعية، الثقافية، ليستطيع أن يكون استثمارا مجديا وعائدا مضمونا لوطنه كأنه يقول: " فإذا كان الإنسان العربي حضاري لم يكتمل ، فالطفل العربي مشروع ذلك المشروع "(3) .

فالطفولة التي يجد فيها الطفل إشباعا و رعاية لشؤونه ، سوف تعطي للطفل إحساسا بالطمأنينة المريحة في العالم الذي يحيط به من حيث يراه مكانا آمنا يعيش فيه ، "فقد كان الأب يحب إبنه وجده لأبيه يدلله "(4) ،و جدته لأبيه لا تفارقه، "كانت هناك زوجة خاله تعامله هي الأخرى بنفس العناية التي كانت تعامل بها إبنتها التي كانت في مثل سنه" (5) "ولم تكن جدته لأمه أقل عناية به" (6) .

ولم يركز الجابري على كل الشخصيات الواقعية ، وإنما كان له من ذلك أن يكتفي ببعض الشخصيات الرئيسية ، أي التي تتحكم فيها الأحداث التي كان ينتقيها ، وقد ذكر البعض منهم بأسمائهم ، واكتفى بالإشارة في الكثير منهم وفق ما كانت تقوم به ، لتكون معبر لبعض المظاهر و السلوكات في هذا المجتمع .

---

(1)أنظر كامل احمد : سيكولوجية الطفولة ،مركز الاسكندرية للكتاب دار المعارف، 1998 ص 07

(2) محمدعابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ص 11
(3) كامل احمد : سيكولوجية الطفولة ،مركز الاسكندرية للكتاب دار المعارف، 1998 ص 08
(4) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ص 30
(5) نفس المصدر : ص 32
(6) نفس المصدر : ص 35

الأم" الوازنة" (رمز القهر) :

الأم هي الغائب الحاضر حضور الذكريات ، وقد أرتبطت بأولى الذكريات وهي تدفعه عنها ، لأنه كان أشد التساقا بها ، وكان فيطامه متأخرا ، التي تحمل معها معصرات الانفعال من جراء ما ع انته في حي اتها كأم لصاحبنا ، التي كانت موسومة بكل أنواع التهميش كأم في العائلة من حماتها (الجدة) ، حتى وصل النشوز إلى درجة الطلاق كان أبوه من ذلك بريئ ، لأنه كان يحبها و يكن لها الاحترام وإن كأم لإبنه

كأن صاحبنا لم ينفطم وهو يجوب ذكرياته ، في مرحلة الطفولة وتشتت الأسرة ، ولم تزل على تلك الحالة (الطلاق) حتى بلغ صاحبنا أشده بعد السن السابعة ، لتعود ريم إلى حالتها القديمة ،" قد تحصلت على رخصة الطلاق الثانية من زوجها ، بعد أن تداعت صحتها ، و برهن زوجها أنه غير قادر على فعل شيئ"(1) فلم تكن ذات حظ في الحياة ، وهي من كل دلك تعاني المرض الذي أسكنه اليأس و الاضطراب و اسكته التهميش و الخوف ليبقى مدفونا في الجوف"كانت أمه تعاني من مرض و لكن لم يعرف عنه شيأ"(2) ،ومن كتب له ان يموت في ارض ، فلا يموت في ارض غيرها ، فلم يبقى "للوازنة" في الفجيج من تلجا إليه من الأقربين ، فقد رحلت هي الاخرى إلى وجدة لتعيش مع اخويها ، و يسدل الستارعلى الواقع المر.

الأب :

لم يكن ذلك الشخص الذي كان من الذاكرة إلا ما كان سائدا في تلك الحقب ، بحكم اشتغاله بعيدا عن عالم الطفل ، في سفره إلى الجزائر بحثا عن العمل ، حتى أنه لم يكن مهتما بما يجري في عالم الأسرة ، وبعد طلاق أم صاحبنا سافر إلى وجدة أين كان له محل تجاري ، توالت عليه هو الآخر الخطب ، كساد التجارة، إلى جانب أنه أتهم بقضية سياسية و المشاركة ضد الاستعمار الفرنسي ، فبقي تحت الاقامة الجبرية هناك ثم اعادته إلى منطقته الأصل، الذي كان له في بناء مدرسة النهضة المحمدية" كان والده من بين أعضاء التي كانت مكلفة بالسهر على بنائها(3).

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريل في الذاكرة من بعيد ،ص135

(2) نفس المصدر:ص135

(3) نفس المصدر : ص77

ولم يكن للأب بد في تربية انبه إلا الرعاية قصد تحقيق توازنه النفسي ، "ليس معنى أنه لم يولي له اهمتمام ، بل كان يحبه و يدلله و يتلذذ بالدخول معه في جولات حبية من الملاكمة"(1) .

الجد للأب:

شخصية متواضعة ، تمارس مهنة خياطة البرانس، حسنة الظن بالناس ، تتخذ من الدين غاية و من الأخلاق وسيلة في التعامل مع مختلف الأفراد و العالم من حولها ،فقد كان يمثل الملاذ الذي يلجأ إليه "صاحبنا" ما إن أراد أن يرتبط بالعالم الخارجي ، بحكم أنه كان يصطحبه معه إلى أماكن العلم (البستان و حقول الفلاحة) ، مع كثرة تهافته على (المسيد) بصحبة "صاحبنا" زاد من الألفة و الثبات ، الذي علمه الحكمة و مكارم الأخلاق التي أحيت الضمير، لا زالت في مخيلته لأنه عاش بها "كان رجلا صموتا وقورا ، لا يتكلم إلا عند الحاجة "(2) .

الجدة للأب:

أما جدته من أبيه، تمثل الشخصية المرهوبة الجانب ، غالبا ما يكون رمزا من رموز القهرو الاستبداد، وفي بعض الأحيان تظل كذلك دون أن تمارس سلوكا يجعلها تندرج ضمن ذلك المعنى(القهر) ، حيث تمثل السلطة الحاكمة في الأسرة ، لأن مطالبها أوامر تفرض من حيث أنها ترفض ، فهي تمثل صبغة أيام الوازنة(الأم) ، بألوان الحسد و الغيرة، وفي ذلك حقيقة أقرها تارتها الفطرة التي تثبت حقيقة العلاقة بين المرأة ـ بكل صفاتها و عبر مراحل الحياة ـ و التي تؤثر على كل ما يتمثل فيه وجود الذات ، فكان لها ما أرادت ، كان لها الفضل في تسميته صاحبنا "محمد" على الرغم مما حصل من نزاع مع أخواله ، فكان لها ما أرادت بعد تهديدهم بحرمانهم منه ، لأنها تتصف بحب التملك ، بحكم مرجعيتها في الانتماء ، فقد لعبت دور وفي الآخر جردت امرأة مثلها من صفها كزوجة و أم إلى ثكلى مطلقة .

---

(1) نفس المصدر : ص30

(2) نفس المصدر : ص30

الجد للأم(الحاج محمد) :

كانت شخصية الحاج محمد من الأباء الذين لا يعنيهم ما لا يعنيهم ، و ذلك يغنيهم ما داموا في أشغالهم فاكهين ، كانت حياته في المثلث، من أشغال الفلاحة إلى البيت ، منه إلى المسجد ، فكان ظله لا يكاد يسقط خارج ذلك ، إلا ما كان لصالح العام ، متصفا بالهدوء و السكينة ، حتى أنه لا يدخل في صراع لا طائل منه ، وخاصة بما يتعلق بزوجته ، التي لم يكن لها سبيل في أن تبعث الاحساس بوجودها في العالم إلا بالدخول في صراع معه ، وقد كان متفهما ، وذلك ما يعكس طبعه مع غيرها .

الجدة للأم :

أما جدته لأمه التي فقدت بصرها و انعزلت عن العالم الخارجي، حتى زوجها الذي لم تكن تكلمه إلا نادرا ، بسبب الخصومات الدائمة بينهما ، فلعب حفيدهما دور السلكي بينهما "إذا اضطر أحدهما أن يكلم الآخر"قل لجدك... " ،"قل لجدتك..."(1) ، فكانت تلك العلاقة السائدة بينهما ، فكانت دائما تخاصم و تشاكس زوجها لأمر في نفسها ، فما كان له إلا أن يقول لها"إن ما أصابك من عمى إنما هو لطبعك و سلوكك" ، إلا أنها ظهرت كشخصية تحمل الأصل و الأصالة ، فما كانت ترويه و تحكيه لحفيدها من حكايات كان لها الأثر العميق في تلقين حفيدها " إلى جانب القصائد الشعرية(2) .

شخصية الفقيه: "الحاج محمد فراج".

مثلها لا يخفى في المكان و لا ينسى في الزمان ،من الشخصيات المناضلة التي كان لها الفضل في استقلال المغرب ، شاهدة على تلك المرحلة بوعيها و اخلاصها للوطن ، وذلك لما قامت به من تعليم للصغار و متابعة مراحل تعلمهم ، من بناء للمساجد إلى المدارس ، و تطوير العلم من حيث المادة و المنهج ، وهو بذلك في تحدي مع الاستعمار الذي كان يهدم ما كان يبنيه في ذهن الأجيال لضمان مستقبلهم ، ولا مستقبل لهم إلا في وطن مستقل ، فقد كان محل ثقة " فهو المشرف و القائد لكل هذه المستجدات"(3) ، و ما كان له أن يخرج من زمن الفقيه حتى أنه ترك المجال لأصحابه للتأريخ لمثل تلك الشخصيات أو الترجمة لها ، مما يعطي للسيرة الذاتية سيمة الدقة فيما يربطها بالتاريخ.

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريل في الذاكرة من بعيد ، ص91

(2) أنظر نفس المصدر : ص 35

(3) نفس المصدر : ص 77

شخصيات أخرى :

أما بقية الشخصيات لم يكن ذكرها إلا في سياق الحديث بما تمليه الذاكرة ، فتنوعت منها شخصية أثارت سيمة العجائبية "ناسا"، التي كان من شأنها أن تخلق صراع في زمن الطفولة ، الذي كان ينتقل بين داره في المدينة و بين ضريح "سيدي فضل" صباح مساء ،و رغم طول المسافة فإنه يقطعها في لمح البصر"(1)، فقد تذكر الناس أنه لم يكذب و لم ينافق ولم يغش و لم يغتب .

و في هذا السياق ، هناك شخصية" الشيخ حمان" فقد كان شخصية من نوع آخر، بحكم أنه لم يعش في المحلي ، بل قضى فترة ليست بالقصيرة في فرنسا ،" كانت الشخصية معروفة بالحكمة و الحمق ، لأنه كان ذا عبقرية فوق العادة "(2) ،إلى جانب الشخصيات الهزلية ، شخصية راعي قصر (زناكة) ، الذي كان أعربيا الوحيد في هذا القصر"ابن صفية"، معروفة بالخوف ، كأنها شخصية هشة إن صح التعبير، تخشى المجابهة و التحدي" وقد اكتشف فيه الأطفال ذلك فصاروا يطلبون منه ما يثير الضحك"(3) ، ولا نغفل من ذلك شخصية "ماما قو" من الشخصيات التي كان لها دور في الحكايات التي تحكى للأطفال ، و التي تبحث على الخوف .

(1) الجابري محمد عابد : حفريل في الذاكرة من بعيد ، ص59
(2) نفس المصدر :ص61
(3) نفس المصدر : ص63

ج) ـ الأمكنة:

إن للمكان أهمية بالغة في استرجاع الذاكرة ،لأنه لا يوجد حدث خارج المكان ولو كان في المتخيل ، فما كان على الجابري في ذلك إلا الاعتماد على أمكنة مختلفة عبر مراحله حياته بحكم الظروف التي اضطرته إلى تغيير المكان و لو بالسفر، فنجده لا يكل و لا يمل من وقفات الوصف ، وذلك ما يعكس حالات الانفعال(التعجب ، الحيرة ، الدهشة و الحسرة) ، كما تدل على ثنائيات (الغنى / الفقر ، العلم / الجهل ، الحضارة / التخلف ، التراث / المعاصرة) ،بحكم أن المكان لا ينفصل عن الزمان ، فهو يمثل البنية العميقة لظرفية الأحداث ، مما يجعل الكاتب يستنطق المكان بدلالات شتى عبر مراحل حياته، والذي يكسبه أبعادا .

أماكن النشأة :

بحكم أنه لكل مولود مكان يتسب إليه ميلاده ، ولهذا كان تركيزه على مدينة"فجيج" وما تزخر به من قصور ، شارك أهله من أبية و من أمه في تلك الأمكنة ، التي تراوحت بين قصر زناكة و قصر آل جابر،إلى جانب البساتين و حقول العمل الفلاحي الذي كان يعكس طبيعة المنطقة الصحراوية، ولم تكن الحياة محصورة في تلك الأمكنة بل كانت هناك مساجد أين يتعلم الأطفال ، و لا سيما ذلك المسجد الذي هوى سقفه على الأهالي ، وما كان منه من خصائر مادية و بشرية ، فتلك صورة البادية في أثناء الثورة التحريرية ، "فهي مكان يشكل حلبة الصراع المباشر، من أجل الدفاع عن الهوية، فإنها أصبحت تشكل مع المدينة حلبة الصراع الاجتماعي المباشر و غير المباشر"(1) .

أماكن التعلم و الدراسة :

لقد تحكمت الظروف في تغيير المكان ، لأن منطقة فجيج منطقة معزولة ، لا علم ولا معلم ، بحكم ما كان سائدا فيها من جهل ، تعكسه تلك الخرافات و المعتقدات ، وفي سعيه وراء العلم و المعرفة ، تنقل من مسقط رأسه إلى مناطق كان له فيها ما كان يبحث عنه ، و خاصة (الدار البيضاء و بو عرفة ووجدة).

---

(1) أحمد طالب :جماليات المكان في القصة القصيرة الجزائرية ، دار الغرب للنشر و التوزيع ،2005، ص54.

هذه الأخيرة التي كانت عبارة عن عالم لم يخطر على بال "صاحبنا" ، لما وجده من اختلاف على مستو ى النظام الاجتماعي، مظهرها العمراني الذي يثير الدهشة ، من شوارع و أزقة ، إلى جانب ما تتميز به من حيث العادات و التقاليد و حتى الأكل ، فهذا ما يثير معنى البعد الحقيقي بين الأمكنة وإن كانت قريبة ، و الذي يقربها و إن كانت بعيدة .

ما دام أن الجابري لم يتوقف عند هذا المستوى من التعليم ،حتى أنه اعتمد على نفسه في تكوين نفسه، وذلك حسب امكانياته، بعدأن حقق مكسبا من المال من العمل في مدرسة النهضة، فإن المكان مرشح التغيير إلى خارج المغرب ، لأن المغرب في تلك المرحلة لم يكن قادرا على توفير ما كان يطمح إليه المغربي ، يتطلع إلى مستقبل المغرب فما كان عليه إلا أن يسافر إلى مختلف الدول العربية، منها(الاسكندرية) بمصر.

كان لهذا المكان على تشابه فيما اعتاد عليه خارج فجيج ، لأنه وجد ما يربط به بين الأمكنة ، وإن كان ثقافيا أو عمرانيا أو من طبائع الناس و سلوكاتهم ، وما كان في ذلك سائحا ، وإنما اضطرته الضرورة لأن يغير المكان يزور دمشق التي عاد منها إلى المغرب و لم يخرج منها ، لأن عالم المعرفة قد وصل في المغرب إلى حد انشاء الجامعة التي اشتغل فيها .

2) - الذات و وعي العالم :

"إن وعي الذات عند الكاتب وهو يهيمن على مجموع عوالم و الأشياء بمنطق السيرة لايمكنه أن ي ج اور وعيا آخر ، وكما أن حقل رؤيته الذاتية لا يمكن أن يوضع إلا بجانب ذوات أخرى "(1) ،ففي السيرة الذاتية "الذي يتكلم هو الشخصية المجسدة وكلامه هو موضوع لتشخيص لفظي أدبي ، وليس هو خطاب منقول أو أعيد إنتاجه ، بل هي حقائق مشخصة بطريقة فنية "(2) .

ألا تعتبرأن السيرة الذاتية ،ذلك الإبداع الأدبي والفني الذي فيه ذرة من قوة الإنسان الخلاقة ، و في الأساس الأعمق اتصالا بطبيعة الكاتب ، فالسيرة الذاتية لا تصور وكأنها تدور في حلقة باطنية على ذاتها ، فذلك الذي كان يختلج صدر "صاحبنا " ، بل ينبثق من ذات عاقلة شاعرة ليتوجه إلى الآخرين بما تفيض به هذه الذات ويعمم عليهم هذا الفيض الفكري الشعوري ويجعلهم شركاء به " (3) ، فالسيرة الذاتية تبقى ويجب أن تبقى ذاتية في جميع الأحوال ، "فالأهم من هذا بالنسبة لي هو الصدق،ولم أكتب حياتي الشخصية وحدها بل عن حياة جيل بكامله،الذي أنا فرد منه"(4)

اعتمد الجابري في نصه "الحفريات "التي ظهر في شخصية "صاحبنا " أن المتكلم ناب عن جماعة المخاطبين ، الذين تنتسب إليهم الذات التي يحتمل حضورها (ثقافيا اجتماعيا ، و الدين عبر التاريخ في الزمن الفكر العربي) ، ذلك ما غيب الذات في سياق النص ، ف"الجابري " معروف بسيرته الثقافية و الفكرية التي تخطت حدود الوطنية إلى القومية العربية الإسلامية ، فهو لم يقنع بدموع من تحدث عنهم في نفسه (الام) ، فقد خطر له أن يستغلها أبعد من ذلك ، فكيف يمكن أن تكون الذات حيادية ، فهل معنى هذا أن المصباح لا يضيئ قاعدته ليخدم اتجاها محددا، فالذات هنا إنسانية صادقة ، فالجابري واع بأهداف عمله ، جعل النص السيري لا يقتصر على مقوماته الداخلية وبنائه المركب وصوره الفنية ، بل تجاوز ذلك إلى مضمونه وربطه ما أمكن بنفس قائله ومشكلات مجتمعه وعصره .

---

(1) انظرروبير اسكاريت : سوسيولوجيا الأدب ، تعريب انطوان ، عويدات للنشر والطباعة ،بيروت لبنانص 32

(2) انظر ميخائيل بختين : الخطاب الروائي،ترجمة محمد برادة دار الامان ، الرباط ص 1987 ص90

(3) روبير اسكاريت : سوسيولوجيا الأدب ،، تعريب انطوان عرموني، عويدات للنشر والطباعة بيروت ص6/5

(4) محمد عبد الجابري : الحفريات في الذاكرة من بعيد ص221

فكل كاتب عضو فاعل في مجتمه ،" يمكن أن يدرس ككائن اجتماعي ، بالرغم أن سيرته مصدر رئيسي ، فهي واسعة تشمل كل المحيط الذي الذي عاش فيه "(1)، ذلك ما وجدنا عليه الكتاب المغاربة ، يمارسون تجاربهم في ظل القول ، من الرومنسية الى الواقعية الاشتراكية و في الإرتباط بالقضايا الإجتماعية والعالم العربي .

في "الحفريات" نلاحظ محاولة إعادة نوع من التماسك للفرد و تسوية الصف مع جماعة تحتويه وتعلي من قيمته الوجودية ، كما يرى (goldman) أن هذه العلاقة الأساسية بين الحياة الإجتماعية و الإبداع الأدبي، ليس في مقارنة مضامين الذاتية و الموضوعية، بل في تحليل البنى الذهنية لما تحت الذاتية و البنى اللغوية ، تنظم في وقت محدد الوعي التجريبي لمجموعة اجتماعية معينة ، مادام في المجتمع مجموعات و طباقات تحمل الصراع ، يحتم على ذات صاحبنا ذات اجتماعية تعتبر كأصل علمي و عملي للإنتاج الثقافي وبخاصة في النص السيري "(2) فتنقله بذلك السيرة الذاتية وظيفة ذات امتياز عالي حينما تحظر عوالم ضمن المجموعة المعبرة ، فإنها توحي بدرجة من التماسك مفاده تأثير الوعي الجمعي .

يمكن القول أن مشكلة السيرة هي أن نجعل ماهو في وعي الكاتب تجريدي والأخلاقي كعنصر جوهري للمبدع ، حيث لا يمكن لهذا الواقع أن يوجد إلا وفق حالة غياب الذات أو مايعادل حضورها كفرض كفاية ، فليست الأخلاق هي المشكلة الوحيدة في السيرة ، في جوهرها تاريخ مبعوث وبحث عن قيم أصيلة في عالم به قيم دخيلة ليست أصيلة ، فهي سيرة وتاريخ اجتماعي ، فقوة الذات في النص تكمن في إرتباطها بالآخر لأنها موضوعية ، و في ذلك قتل للآخر و استسلام للعقل " فحفريات في الذاكرة" كانت تستهدف ليس فقط التاريخ التطوري لوعي "صاحبنا" و تشكل آناه ، " بل كانت أيضا تعرف البيئة الإجتماعية و الطبيعية و السياسية و الثقافية التي كانت تشكل المجال الحيوي للطفل صاحب الوعي المؤرخ له " (3) .

لقد كان صاحبنا " متكلما كما لوكان يمسك بصورة تذكارية " و بدأت أت أملها لم أكتشف نفسي إلا بصعوبة ، لأن الجميع متشابه متراص، ومنهم من أصبح طبيبا ... ولذلك فعندما كنت أكتب عن تجربتي، كنت أتكلم في نفس الوقت عن جيل بأكمله وعن مرحلة تاريخية بأكملها ... كنت أحس أنني أتكلم بلسان الجميع "(4) .

---

(1) رينيك ويليك ـ أوستن وارين : نظرية الأدب ،ترجمة : محي الدين صبحي ، ص 99 .
(2) انظر الدكتور محمد ساري : الادب و المجتمع ، دار الامل للطباعة و النشر و التوزيع
(3) محمد عابد الجابري : الحفريات في الذاكرة من بعيد ص228
(4) نفس المصدر : ص 230

فرؤية العالم في نظر الجابري تنطلق من الذات، بحيث أنها تأخذ وعي الجماعة بطريقة ميكانيكية ، فبهذا المعنى فإن الجابري عبر عن وعي الجماعة ، و لكن ذلك عبر بالضرورة التي يفرضها المقام ، أي عبر الذات و الوعي الفردي ، الكاتب، ليس كونه شاهدا على العصر بل و حاكما على قيمته ، يطرح الأمر بالحجة و الدليل، كي لا يكون في الذات خلل .

إذا كانت السيرة هي عمل للتحرر ، و بفعل إرادي يصحبه الوعي بكل حكم و حكمة " فهل هي مجرد حالة شعورية أو أنها مجرد حشد من المعلومات التي نتفوه بها دون رابطة منطقية لتصرفات و أفعال إرادية و غير إرادية و مناقشة لتجربة داخلية تعانيها الذات؟" (1) .

فإن جعل الذات محور للدراسة و البحث عنها في النص ، نجدها قد تلاشت و ذابت في الجماعة، أدى إلى إختفاء الذات التي أقحمت نفسها في ضمير " نحن" ،الذي يبرر الحقائق الخفية بإعلان مايدل عليها ، والأهم من ذلك سبب اختفاء الفردية وجعلها في سر الجماعة ، مفادها البعد الإجتماعي الذي جعل الفرد عضوا فاعلا من حيث أنه ملازم له ، جعلها (الذات) تنظر إلى نفسها في مرآة المجتمع ، وهذا بتوافق مع طبيعة الشخصية الصحراوية الريفية البريئة ، عاكسا مبادئ و أخلاق ،إلى جانب الصدق في الطرح الذي يتبدى في العلاقة بين الشكل الأدبي و البنية الإجتماعية ، قد يبقى دائما في جوهر الذات .

فالأديب هو ابن بيئته ، يتأثر كما يؤثر ، فذات "صاحبنا" جعلت حفريات الذاكرة "تتصف بميزة الشمول ، حيث يبلغ إلى مرتبة الحقيقة البديهية "(2) ، و النص السيري تعتريه الموضوعية أثناء التذكر ، ولكن في تطرح تكون الذات قد اختارت لنفسها سبيلا ،بقوالب مختلفة "استطيع أن أؤكد أني لم أصدر عن تصدر مسبق لا بخصوص البناء ، الموضوع ، و لا بخصوص المنهج ، وإنما صدرت عن عفوية (أي بدون تكلف) ، ليس معنى هذا الهروب مما يشكل جزءا من شخصية الإنسان (3).

---

(1) انظر بنور عائشة : بنت المعمورة ، قراءات سيكولوجية في روايات و قصص غربية (رؤى و انطباعات) منشورات الخبر ص108

(2) روبير اسكاربيت : تعريب ، امال انطوان ، سوسيولوجيا الادب ، دار النشر و الطباعة ص 06

(3) محمد عابد الجابري : حفريات الذاكرة من بعيد ص 222

فأي الظاهرة يمكن أن تكون إنسانية قبل أن تكون فنية ، وهي في صميمها إهتماما يتعدى نطاق الكلام العابر ليصل إلى ميدان الكلام العلمي المسؤول ، و من الأدب بركائزه الثلاث : الأديب ، النتاج الأدبي و القارئ ، موضوعات للبحث عن حقيقة تطرح تاريخ جيل اكتشفته ذاكرة الماضي في الحاضر ، والواعي الذي ينتقي بمنطقه و فلسفته وتجربته ما يدعم شباب المستقبل ، وذلك بتشخيص العلل وطرح العلاج لتفادي الزلل.

يعتمد العلم غالبا في دراسته للإنسان ... معتبرا البيئة الجماعية أثارا ذات مدلول فكري ونفسي و ثقافي يعكس الشخصية ، أعطى ذلك للنص السيري طابع تاريخي سياسي اجتماعي في المجتمع لا يعترف بالوعي الكلي الاشتراكي ،"عاكسا الفكر الطبقي المتسلط على النزعة الانسانية إبراز أبناء الحرفيين و التجار، الذين هم أكثر إنتاجا للأدب المعاصر ،لأن الطبقة الارسطوقراطية تمجد اللهو و المجد"(1) ، في حين أن الطبقة الوسطى تنعكس في الحرمان من أدنى الأشياء كالتعليم و التعبير، حتى وجد الكاتب بين الوعي الفردي و الوعي الجمعي اللذان يتشكلان وفق علاقة إعتباطية شيئا أكثر تعقيدا وجدلية .

إن ما يرقى به "الجابري" إلى مستوى القداسة ، هو الحياة التي خلعت إهاب الأنانية و الطموح الفردي ، و تحولت إلى شعاع من نور في شمس الذات الجماعية الخالدة ، حياة يشكل الحب فيها القلب النابض و حجر الزاوية و نقطة الانطلاق و الخصم القوي الذي يتحدى الزوال ، إنه مثل النهر الذي لا يتوقف على تل و لا يصده جبل ، فقد كان في حياته عقابات ، تعداها وهو يسابق الزمن ، " يشق طريقه عبر معارج و التواءات ، حتى إذا مضى عليه ربع قرن أخذ في الانقسام ، تغمر أحدهما تجربة سياسية ، وتغمر الآخر اهتمامات و هموم ثقافية " (2) .

---

(1) أنظر رينيك ويليك ـ أوستن وارين : نظرية الأدب ،ترجمة : محي الدين صبحي ، ص 99 .
(2) أنظر الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص07

حاضر الذات بين الماضي و المستقبل (آلام و أحلام):

أ) ـ ماضي الذات و الزمن النفسي :

إن السمات الأساسية للسلوك الاجتماعي للفرد ، مكتسبة من المرحلة الأولى لحياته إلى علاقتة بأفراد أسرته وإتجاهاتهم وأنماط سلوكهم ، لقد كان " صاحبنا " يسبح في جو من الرعاية التامة ، وخاصة أنه قد توفرت له كل المطالب التي جعلته يتعلم كيف يعيش مع نفسه و مع العالم ، يتفاعل فيه مع المحيط القريب (الأسرة) أو مع العالم الخارجي ، وأكثر من ذلك أنه تلقى ما ينمي الاحساس بالثقة التلقائية ومبادئ التوافق الاجتماعي ، لم يشعر قط أنه عان أو يعاني وضعية مأساوية بل بالعكس ... لأنه يعيش وضعية طبيعية ... "أن ما جعله لايعاني ذلك الجانب المأساوي في طفولته هو تلك الرعاية التي كان يحظى بها من جانب افراد اسرته العائلتين "(1) .

" إن ما يدرك لابد أن يكون متعاقبا مع الواقع وحاصلا مع الديمومة" (2) ، فالذات في العمل السيري تشكل إحدى دعائمه الأساسية ، وذلك لأهميتها وحساسيتها البنائية والجمالية ، "وما يهمنا من هذه الجوانب هو العلاقة الفنية بالطبيعة التي تربط بين الشخصية كعمل فني وبينها كانسان واقعي" (3)،"الذي يتطور في عالم الظاهر المحسوس "(4) ويعني هذا درجة المقاربة مع عالم الظاهر غير البعيد عن حوار النفس الذي يعيه " صاحبنا" .

إن المقصود في هذه الخبرات هو الواقع النفسي ، بل الواقع التاريخي الذي تمتزج فيه الأحداث بين عناصر جمة متصلة بالذات ، "فإن ماضينا بأسره يسهر وراء حاضرنا وبما أن " الأنا" ، يملك فعلا واقعا حقا ومصدر اتصالاته في أصله ، فهي ذكرى وليست اكتشافا أبدا" (5) ، فذات صاحبنا مرتبطة بنواتها وفعلها الحاضر لا يمكنه أن يكون متصلا بالانجذاب ، وعليه فلابد من الافصاح الدائم حتى لايكون الماضي والحاضر في مسار منكسر .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 137

(2) محمد توفيق المنوي : مفهوم المكان و الزمان في فلسفة الظاهر و الحقيقة ... دراسة ميتافيزيقية ، برادلي ، دار النثر و المعارف ص61

(3) بشير بويجرة محمد : بنية الزمان و المكان الروائي الجزائري جماليات واشكالات الابداع ط 1 دار النشر و التوزيع ص36

(4)جاستون باشلار : جدلية الزمان ، ترجمة ، خليل أحمد خليل ،الموسسة الجامعية للنشر و التوزيع ،ط3 ،ص14

(5) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 136

فالذات الكاتبة في الحاضر فما هي إلا ظاهرة لما مضى ، وهذا الأخير معلوم كما وكيفا ، إلا أنه يسطر حدود ومواقع أساسية التي يمكن أن ترقى بها الذات ، وليست كل الأحداث ، ولا يرجع هذا إلى تفادي التكرار (الحدث)، وإنما كانت الحفريات نصا يطرح الذات نفسيا لا كما كان يعيشها وإنما بعد مرحلة الوعي ، الشيء الذي جعله يرى طفولته بما يثير انفعالاتها ، حتى أنه لم يستطع السيطرة عليه وخاصة لما له علاقة بأمه اسماه "بالاتصال البعدي" وهو يجزم بأن انفعاله إلى حين كتابة هذه السطور الذي يبذل جهده كي لا ينعكس على عباراته مشبها ذلك بما يفاجئك من خطر فتفر في ذهول ، ثم يستفيق ثم بعدها تدرك هول الموقف .

يجب أن يأخذ مصطلح الذات بعدا واسعا دقيقا كفرع انشطر من دلالة " صاحبنا" يوحي بالجمع الذي أصبح مشتتا ، فالأدب بالحياة و الحياة أهداف تتطور و أمال في استرجاع ما فقد ،لأنه تعبيرا عنها "فهو رفيق الانسان الساعي إلى اكتشاف نفسه و العالم ...، و الفنان الكبير هو ذلك الانسان الذي تعمقت تجربته و اتسعت حتى غدت رمزا للانسان كله ، كأنه يحمل قضايا العالم "(1) .

ولكن ما مصدر الإنفعال إن كان قد عاش دون نقص ، و هو ابن تلك الأسرة التي طالما افتخر بها و بأمجادها؟، ألم يعش حياة "أمه" في بعدها عنه ، "فكان لا بدأن ينعكس ذلك على المسافة النفسية في كيانه"(2)، حتى جعلته في خلوته يجوب زوايا اللا وعي الذي عبر عنه بالتمني، معتمدا على طريقة السرد التي تعطي معاني مباشرة من العقل، وفيه اعتمد على المناجاة النفسية و المنولوج و التذكر و التداعي الحر، لذا ينساب الماضي في الحاضر و الحاضر في المستقبل، في سيرورة و ديمومة، و في المناجاة النفسية يتم تقديم المحتوى الذهني .

و في هذا الكتاب صورة من حياة "الجابري" تلميذا بالمدرسة و طالبا للعلم ، و باحثا عن الوظيفة ، وفيه صور من حياته مراهقا و عاشقا و محبا للجمال ، وفيه صور من حياته مفكرا و حالما و حكيما ، لكن " الجابري" الكاتب يرقى بهذه الصور المستمدة من حياته الفردية ، فيجعل منها صورا للإنسان في أطواره النفسية و الفكرية و الوجدانية، و في علاقته بالكون و الموت وأسرار الوجود .

---

(1) أنظر اليا الحاوي :في النقد والأدب ،ج 2 ، مقدمات جمالية عامة ، مقطوعات من العصر الاسلامي الأموي ، ط4 دار الكتاب اللبناني ،ص07

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 172

ب) ـ آلام الماضي و أحلام المستقبل :

في الواقع إذا تحدثنا عن حسن السيرة الذاتية فلابد من الحديث في بناء النص إلى الأسلوب و المنهج ، فالسيرة تؤسس كذلك عن طريق الوحدات المعنوية التي لا تقبل التجزئة و التهميش ، الدوافع و المقاصد و الأهداف ، جعل للنص وظيفة تتحدد ورؤية الكاتب التي تكون من الداخل إلى الخارج بعصا مية حادة وزاوية محايدة ، وعلى العكس من ذلك في نص الحفريات الذي يعتبر نموذجا تربويا ، لأنه لابد لكل كاتب من أن تنعكس في كتاباته جوانب حياته ، خصوصا إذا كان مسكونا بهاجس تربوي يدفعه إلى توضيح الأفكار"(1)، وهذا مايتجلى في الطريقة التي تشكل كيان النص و الوقائع التي يتبعها نوعا من التحليل النفسي الذاتي وفق منطق طرح الحدث الذي هو نتيجة يبرزها التحليل و التفسير عبر مراحل التطورية للشخصية مما

فلسفة الكاتب واضحة و الموضوعية جلية حيث المنطق ، الوقائع اجتماعية فالأثر النفسي العامل في السلوك و طبيعية ، السبب و النتيجة ، يعطي دليلا على صحة الذاكريات ومن تمديد تاريخها ، فالذخان دليل وجود النار، والذاكرة ماهي إلا ردود أفعال لما خلفته الأحداث و الطفولة ، يجعلها رابطا بين المتشابه الذي يتجلى في التكرار للأحداث وخاصة فيما لقيه من خاله يوم أمر بشراء السجائر إلا أنه تاه في براءته ، اللعب ، حتى أنه بقي مشدوما مولعا ، ينسى أنه خرج لغرض ، "فكانت الحادثة نائمة في اللاشعور وتستيقظ عند كل خرجة"(2) ،لأنه يتذكر عقوبة لأجل أنه نسي ، كأنها في موقف النهي "لا تنسى"، حتى أنه يفند رأي من يدعي النسيان . ص09 من البحث .

" وعندما يستعيد صاحبنا بعض مشاهد هذه التجربة يجدها مماثلة للأولى" (3) فأين تكمن المماثلة ، كانت فتاة دمشق تشبه بفتاة وجدة قواما ولونا تثيره وحواجب وعيون وأيضا استيحاء وقلة كلام ، فإذا تكررنفس السبب يمكن إلى حد بعيد أن يقرر نفس النتيجة ، حتى أنه سار بمخيلته بعد أن عاش بذاكرته إلى طموح لم يتحقق إلا في أحلام اليقظة ، للتعبير عن اللاوعي الباطني ، إلى جانب وفاة أبيه التي أثارت في نفسه أثار وفاة جده بعد إثنين و ثلاثين سنة " إن جده شد على يده بقوة قبل أن يغادر الحياة تماما كما فعل أبوه ساعة قبل وفاته"(4) .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 228

(2) نفس المصدر : ص 162

(3) نفس المصدر : ص 92

(4) نفس المصدر : ص 68

إن الواقعية الأدبية تعمل على محاكاة الواقع بطريقة أو بأخرى ،إنها تفصل بين الواقع من جهة وبين اللغة ، "بحيث يكون الواقع دوما في المرتبة المتقدمة و على اللغة أن تركض خلفه دوما ، من حيث أنها وسيلة لبلوغ القصد ونحو الهدف (الواقع) الذي يتنوع أمام الكاتب :النفسي ، الديني ، الاجتماعي ،الثقافي ،السياسي ،التاريخي ،وحتى الخيالي يسوي كل جانب في ذهن الكاتب لمدة زمنية معينة" (1) ، فعلينا أن نفهم من نص الجابري عن القيم الأصيلة بالطبع ،لا القيم التي يقدر أو القارئ اصالتها ، وانما تلك التي تنظم بصورة ضمنية مجموع عالم السيرة ، وإن لم يكن حضورها فيه غير .

ولا شك أن هذه القيم خاصة بكل مؤلفاته التي تؤكد توجهه ، جعل النص كبداية لطريق لمن أراد أن يصل ، وإلا فلماذا جنح المفكر إلى خوض تجربة كتابة السيرة التي اضطرته إلى تغيير استراتجية كتاباته التي نقلها من أفق الموضوع إلى مجرى الذات ،ينبغي قراءة مرحلة من حياته التي يشبهها بنقطة الماء التي ستتحول إلى نهر يشق طريقه لا يتوقف انهماره ، وهو يقولب في مقال الملحق "سأشق طريقي" لمن يقرأ سيرته أن يجعل الحواجز حوافز تساعده على السير والتقدم :

"سأشق طريقي رغم الزعازع والإعصار .
رغم القصيات الطول .
رغم وحشية الظلام "(2) .

"من قبل قلت لنفسي سأشق طريقي ضاحكا باسما ، ولكن هل تراني الآن أشق طريقي لا ،لا أنا لا أشق طريقي لأني لا أعرف هذه الطريق " (3) حيث تجد الكاتب يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج ، يبني نصه على قوة الإنفعالات واحتدام المشاعر الداخلية المتناقضة وعلاقتها بالظروف الخارجية المحيطة بها ودرجة تأثرها وتأثيرها في المجتمع .

كانت الذات في النص عبر التذكر بين الكائن و الممكن لما يتحدد فيما كانت يطمح إليه "صاحبنا" ، بحكم الصراع الداخلي المتولد عن القصاوة و الفراغ الداخلي الذي يعد من مضمرات النص لتلك المرحلة التي تؤرخ لها الأحداث في جل النصوص السيرية المعاصرة ، وإلا فكيف نفسر المنولوج الذي يعد أكثر واقعية للقلق و كانه ظل ملازم للزمان و المكان لكل حدث ، لأنه كان يجري عكس التيار فواجهته الظروف وجهته ، حتى أنه رحل ولم يقر بالرضى لنفسه على ماوصل إليه .

---

(1) د محمد ساري : الأدب والمجتمع ، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع ،200 ص 56
(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ص 180
(3) نفس المصدر : ص 194

تعمل السيرة الذاتية على أن تنقل للقراء أحداث يتم استرجاعها من خلال الذاكرة التي اختزلتها تلقائيا ، فحين استرجاعه في الحاضر يقوم بإنتقاء الذاكرة يعطي للوعي وجوده في ذلك ، فيكون ذلك حسب ميوله ومستوى وعي الطفل ، لذلك فإن السيرة الذاتية تعتمد على تصور سابق للواقع عبر زمنه ، والذاكرة ليست في الحقيقة وقائع تنتقيها حتى ما يتولد عنها من أحساسات ،" فنحن نستغل ما نشاء وحين نشاء وينشئ عن ذلك فوق أخر بين الشيء الواقعي والشيء المتخيل "(1) و خاصة أن الخيال ألاسترجاعي مشروط بوعي معين .

فإذا تأملنا نص الجابري "حفريات في الذاكرة" وجعدناه مرآة وإن كانت جزئية ،لأنها تقوم بإختيار ما يعكس وعي الذات ، بمعنى أنها لا تعكس الحقيقة الكلية الموجودة في الواقع ولكنها تعطي الحقيقة كاملة في زمن الحاضر الذي أعطى أحقية للأحداث أن تحكى " و ما يبدو للكاتب أنه يستحق ذلك "(2)، وعلى هذا الأساس فإن صورة الواقع الحقيقة كما تمثلها في النص ، "فلا ينبغي البحث عنها في الواقع بل في الشكل الذي تم رسمه داخل المرآة" (3)، مع العلم أنه لا وجود لحقيقة مطلقة في ذاتها على نحو ما تصورت الفلسفة المثالية ، و ليست نسخة مطابقة للواقع كما أدعت الواقعية لكن العلوم المعاصرة ربطت الحقيقة بالمنفعة فهي حقيقة وستظل كذلك ،لأن استحقاق الذكرفي نصه لما يخدمه في القصد لصالح العام مستقبلا ، فالأفعال بالمقاصد و الأحكام بالعلل .

وبإعتبار ماأسلفنا لا يمكن أن نجعل الحقيقة في مجالها المطلق الذي يحصره الكذب و الأوهام ، من له في أفعاله مقاصد و في أحكامه علل حتى وإن كانت من صنع الخيال المطابق و المنبثق من الواقع ، فنص "الحفريات" لا يخلو من تصورات و أحلام وأحاسيس ترمز غالبيتها إلى القلق الذي عاش في كنفه صاحبها ، فكان أحيانا يشرك القارئ فيه حتى يعطي مصداقيته جعل الحقيقة في الخيال وخاصة فيما يتعلق بأمه " أما علاقته بأمه ونوع ارتباطه بها ، فهو لا يستطيع أن يعبر عن كنهها للكلام ، ولعل القارئ يتخيل نوع هذه الرابطة إذ هوعرف أن طفلنا كان وحيدا" (4) .

إن لعبة الخيال الذي اعتمدها الجابري في نصه ماهي إلا تجاوز واستباق للزمن الذي كان يحياه بوجود دوافع التي كان يقتضيها المقال فقد سمع حديثا أنه راى النبي في منامه يدخل الجنة دون حساب ولاعقاب .حقيقة ،خيال ، وهم من يروي رؤيته في الواقع ؟

---

(1) كمال بقداش : مادة الخيال ، الموسوعة الفلسفية العربية ، الجزء الاول معهد الانماء العربي 1986 ص416

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ص 07

(3) نفس المصدر : ص 26

(4) نفس المصدر : ص 74

ويتذكر صاحبنا أنه رأى في المنام "النبي صلى الله عليه وسلم" على صورة شمس ناصعة البياض ولا أحد ينكر عليه ذلك لأنه رآه مع الشخصية التي كانت تقع عليه موقع الملاك ، بحكم أنه إذا سمع أحدهم يتحدث عن الملائكة فإنه يتخيلها كلها على صورة واحدة وهي صورة الحاج محمد و التي اثرت في شخصيته .

و الرؤية هي إشارة أو علامة بمعنى التنبؤ بما سيحدث مستقبلا ، وكل يأمل أن يكون في هذا المقام ، وعلى هذا فهل يمكن أن يكون هذا الحدث حقيقة رؤيا رآها صاحبنا أم أنه أملا كان يتوخاه طول حياته حتى خيل له أنه رآه في الجانب الآخر و بعد رؤيته اليقظة للفتاة في دمشق ، تتنقل من الرؤية إلى الأحلام يسيح فيها خياله وفق صيغة الوحدة و التركيب ليخلق عالما مثاليا خاليا من القيود و العباد لدرجة تعلقه بها " فالخيال لا يستسلم لأمر الواقع كما يستسلم الحس و العقل ، لقد بقيت حاضرة في خياله مدة يتصورها معه " هاربين " إلى مكان ما في العالم ليست فيه حواجز" (1) ويعود بعد ذلك إلى رشده واستحضار عقله بعدما غيبه ليعيش لحظات ولو في الأحلام ويقول " مافيش فايدة" .

إن الذي يثير الإنتباه أن الكتابة عن الذات قد تتحول إلى كتابة للذات، و المبدع منحاز أصلا إلى فنه وعلى ، هذا فإن مقاربتين له أن تكون محاولات اكتشاف ، وهو بذكائه حاول أن يوجه القارئ نحو هدفه الذي يقصده وهذا ، يعتمد فيه الكاتب على نمط استعادي فيه تدخلا مع ملحق تفسيري تحليلي للأحداث حسب سردها في ترتيب الوقائع و هي قوالب تكاد تكون رئيسية ،" كأنها إستطرادات كانت تفرض نفسها على سياق العرض"(2) .

والواقع أن البحث عن معنى الحياة " الهوية في السيرة الذاتية غالبا مايتم تحت تأثير الحياة الخاصة لا العامة ، أي من خلال مرحل قوتها وضعفها صعودها وانحدارها ، فلا يسعى المؤلف إلى استيراد ماضيه ، بل إلى تملك المعرفة حسب رؤيته له يجعل الأمر ليس مجرد استبطان ولاتذكر بل الأمر يتعلق بالحفر في الذاكرة بطريقة خاصة "(3) فالوسيلة تطابق طبيعة العمل و الهدف منه ، و السيرة في ذلك وسيلة و ليست غاية في حد ذاتها ، لأن "الحفريات" لم تكن لأجل ذلك و إنما قصد تشريحها وتشخيص العلل لاعطاء البديل وفق رؤية ذهنية تجربية .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ص 164

(2) نفس المصدر ،ص135

(3) نفس المصدر : ص 227

ج) - **الفكر المبدع :**

فإن الذات تحتكم إلى تراتبية زمنية يمزج فيها الحاضر بالماضي وينتقل منها الحاضر إلى المستقبل ، يعمق " البحث عن العلاقات في الاحداث في الحياة الواقعية التي تعكس كحياة حقيقية في النص السيري الذاتي في خبرات الذات ، مهمة الإنسان في الكون تنحصر في البحث عن العلائق بين أجزاء الكون بأنواعه المختلفة الطبيعي منها والأخلاقي ، "في محاولته الحادة لربطها بذاته التي يستحيل عليها التزود بالمعارف والخبرات إلا ضمن تلك العلائق و التغيرات الناتجة عن مكنزمات الزمن" (1) الذي ينحصر في شموليته بمراحل متتابعة متباينة .

"إن لحظة الكتابة هي مجرد "نتيجة زمنية" لمقدمة زمنية أخرى هي الفاعلة بحق"(2) ،إنها لا تمطر حتى تبلغ السحب مستوى معين ، يفسر تطور الشخصية ووعي الذات عبر مستويات متزامنة بداية من تشسكل الوعي بالأنا و العالم المحيط ثم مستوى الفترة الحياتية تشمل مرحلة العمر الفعلي ضمن حلقات الوجود (الطفولة الشباب ، الكهولة ، الشيخوخة) الى جانب مستوى الفترة الذهنية التي يمكن ان نشخصها في كل ما يتصل بالتكوين و الاكتشاف و التربية و الذاكريات وهذا مايمثل المرجعية ويبعث على الهوية .

فعلى مستوى "الحفريات" و بين الطفولة و الرشد فقد تحدث الأزمة الذاتية النفسية فيتجلى عنصر التغيير و الطفل في بحث مستمر عن قناعة يؤسس بها وجوده و هو الناشئ الصغير، فالسيرة الذاتية هنا تقطع مع الطفولة وتشرع في مرحلة ثانية (الكهولة) وينتقل الطفل من الأسرة إلى ذاته فيتحول فيها الوعي الشخصي من الوعي المحيط الأسري إلى وعي التناقضات الذاتية ، وما يعكس وعي الكتاب المعاصرين في طرح القضايا المستقبلية فيما يمثله الماضي الخاص بما يوحي بالدقة في التفرد و التأكيد في التعدد (النصوص)، أن يبني سيرته وفق وجوده المتنامي من خلال تركيزه على مرحلة الطفولة ، حين يعطي للأحداث سمة تطورية عبر مراحل تتوافق فيها الأحداث على اختلاف القراءات مرده إلى الدوافع التي تتحكم في كل أثر وهي وراء كل فكر ومنطلق .

---

(1) البشير بويجرة محمد : بنية الزمان في الخطاب الروائي الجزائريـجماليات و اشكالات الإبداعـج 2، دار الغرب للنشر و التوزيع ،ص20

(2) عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، ص 275 .

" إن كل ابداع ثقافي لايمكنه أن يظهر إلا بإتفاق أساسي بين البنية الذهنية للمبدع وبين البنية الذهنية لمجموعة اجتماعية ذات طموح عالمي" (1) ، لذا استطاع الفكر والأدب خاصة أن يمارس دورهما في التعبير و التأثير و التحول من مجرد الإنعكاس الميكانيكي لواقع مختلف ومجرا إلى التمثيل الواعي و التأثير و المساهمة في بناء مجتمع متقدم وموحد ،" فالفكر و الثقافة العامة لا يمكن أن يمارس دورهما التقدمي على النحو الصحيح إلا في مجتمع متحضر أو على الأقل نظيف من الأمية" (2) التي كانت عائقا في القضاء على العادات الجامدة و الأفكار البالدة التي زكتها الظروف الاجتماعية

استهدفت السيرة الواقع المعيشي و الواقع الذي يجب أن يعاش واستفهام الوجود ولم تكن فيها الأحداث تعكس الواقع العشوائي و الخام قصد تجسيد وعي الذات التي تملك قدرة واقعية، ثقافية واجتماعية تجتاز بها عقبة الزمن تبني به صرحا مستقبليا لمجتمعها حتى وإن لم يجسده خيال الكاتب ، إنه استثمر ثقافة القارئ كقانون استكشاف عبر مجموعة من الإحالات التاريخية و الاجتماعية لتوطيد العلائق بين الماضي و الحاضر لأن السيرة الذاتية لا تعيش في عالم مطلق بعيدة عن العالم المغربي، الذي يكون بمثابة ميثاق واقعي،و الذي لم يتغير إلا في الأسماء و توالي الأزمان .

فعوامل التغير هي عوامل فكرية ، "إن الناس يتغيرون لأنهم يفكرون ويرونا من بعيد و يتطلعون إلى الغائب غير المفقود أكثر مما يرون الحاضر الموجود ، ليس يتغيرون لأنهم يتحركون ويفعلون مالا يعلمون ويسعون إلى مايريدون ويأملون مالا يبصرون ، بل قد يرفضون ويحتجون بالتفكير على رفض التغيير أكثر مما يحتجون به على قبول هذا التغيير "(3) ،لأن في التفكير يظهر الصراع ، فلا وجود بدون صراع الذي يفسر حالة القلق الذي يبقى القاسم المشترك الذي يشكل الواجهة في جل الكتابات .

"يبدو أن السيرة الذاتية عندما تشرع في كتابة ماضيها تستدعي ذاكرتها بواسطة التفكير لا لتنظيم الوقائع التي تكون قد اختارتها في مرحلة معينة من مراحل الوجود أو فيها جميعا ، ولكن من أجل إعادة تكوينها وتنظيم محمولها حسب مايمليه مقام الاستدعاء في الزمان و المكان أو لمؤثرات ظرفية" (4) .

---

(1) محمد ساري : الأدب و المجتمع ،دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع ،ص 45

(2) حميد لحميداني : النقد الروائي والايديولوجيا ، من سوسيولوجيا الرواية الى سوسيولوجيا النص الروائي، ص 98

(3) عبد الله القصيمي : هكذا الكون ما ضميره،مؤسسة الانتشار العربي،بيروت لبنانط22001 ص 13

(4) عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ،ص 91

لنص حفريات في الذاكرة خصوصية ، أبدعت في بعث التجربة في هذا العصر، فأنتجت نصوصا على أقليتها ، في حين أنها كشفت هويتها في سياق مختلف ، تعنى بخدمة المجتمع من حيث رؤية خاصة التي لم تكتفي بالطابع التسحيلي ، لأن الغرض من هذا هوالوصف الظاهر و كشف المستور" بالعرض و التحليل مع نوع من التأويل" (1).

والوقائع مرتبطة بالأحداث السياسية و الاجتماعية ، محسورة في المدلول التاريخي العام انطلاقا من الذات وعلاقتها بأهل زمانها ، أي من المغرب جميع كل ما يجمعهما التاريخ و المصير ، فأوجدت لها قراءة كاشفة عن أغوار هذه التجربة التي اهتمت بإجاد الحلول لمشكلات منظور (الفرد ، الجماعة و المجتمع) بنظرة انسانية قوية واسعة مرتبطة بالوحدة في الدين و اللغة و التاريخ و علاقتها بالآخر المشترك في أجزاء الأمة.

كانت أزمة 1955/1953 منعطفا تاريخيا ومرحلة انتقالية من عهد الحماية إلى عهد الحرية وانتمائها إلى الذاكرة الانسانية التي ترتبط مباشرة بالمسار الشخصي في هذه الأحداث التي تركت بصماتها في مسار الشخصية و للكثير من الناس في المغرب ، جعلها فكرا اصلاحيا إن توفرت لها القواعد السياسية و الاجتماعية تمكنه من استغلالها في الإصلاح وحل المشكلات في سياق يطرح الوقائع بعد تشخيصها التي أخضها الى التحليل حسب طبيعتها في علاقات مختلفة بغض النظر عن الأغراض التي حدث من أجلها من حيث كونها سياسية ، أخلاقية و اقتصادية .

لقد كانت الذات واعية مدركة لأبعد حد ومبصرة لأهمية الاستعادة ، وكان الوعي التاريخي جزءا من تكوين الذات المغربية ، الذي يعد من الموضوعات المشتركة بين النصوص المعاصرة ، فكان الاشتراك في الموضوع و الاختلاف في الأشكال و القوالب و المقاصد التي يحتكم إليها المضمون .

و الوقائع على أنه ظواهر متعددة العوامل (التهريب ، الاحتطاب ، الطلاق ، الرشوة ، التخلف) ، أي تفسرها ظواهر اجتماعية ، فظاهرة الطلاق مثلا تفسرها وما ظواهر القهر و الحرمان و التهميش للمراة على مستوى الديان و الثقافة ، و قد ترتبط بالظروف السياسية ، فسيرة "حفريات في الذاكرة" كنطاق عملي (التجربة) بنظرة واعية بمواقف التحليل ، يجعل النص نتيجة للذاكرة و الفكر ، فهل يمكن أن تكون سببا في بناء المستقبل ؟

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ص07

د) ـ ذات الفكر الإصلاحي :

إن الحديث عن التغير الاجتماعي يعني الانطلاق منه ، كمعطى بالنسبة لكل حالة اجتماعية سابقة على الذات ، قصد تحديد سياقات هذا التغير و مجالاته ، "قد لا يعدو أن يكون هذا المعطى هو المجتمع التقليدي ، عندما يكون مرتبطا بمعالجة ما هو تنموي ، يصبح هذا المجتمع مرجعية لقياس درجة و مستوى التغيير الاجتماعي" (1) ،و الجابري بمنطقه الفلسفي يؤكد على أن الغاية تبرر الوسيلة ، و الغاية لا يمكن أن ينكر نورها إلا أحول ذلك حسب مقارباته البسيكولوجية المتولدة من القضايا السوسيولوجية .

إن الذاكرة في تاريخ لأهل زمانها ، ولكل زمان رجال ، فإن استنطاق الذاكرة نوع من الذكاء ، في حين أنه لا يقف العامل الثقافي بعيدا و منعزلا عن مسرح التغيير ، من حيث أنه عبارة عن أفكار و قيم و معتقدات و سلوكات، فالجابري قد أخذ ذلك على أساس قضية فكرية اجتماعية ثقافية من منبر نصه "حفريات في الذاكرة من بعيد" ، فتلك هي الحقيقة الانسانية و النزعة الانتمائية التى دفعته إلى اصلاح ما بقي و بعثه إلى الوجود من جديد و من جدوده (جذوره) .

إن التحام الفكر بالحياة المعاشة ، هو ما يعطي الكتابة نكهتها الفريدة المفعمة بحرارة القلب و العقل و الجسد دونما انفصال ، أليس من العجز أن نقول و باعتقاد ،أنه "لا يصلح العطار ما أفسد الدهر؟" ، إن الانهزام النفسي وهم و إذا مس العام فهو على الأمة هم ، و الشخصية تتكون علاقة ائتلاف أو علاقة اختلاف ، تعايش أو صراع ، حسب طبيعة الموقف،" و العالم الاجتماعي الذي يعكس حقيقة الذات و أن أي تطور و في حركة السرد يتبعه تطور و نمو في الذات"(2) .

على حد قول "قريماس " :" أن الشخصية لا يمكن دراستها بعيدا عن مسألة الدلالة لأن التفكير فيها هو تفكير في انتاج الدلالة داخل النص" (3) ،في حين أنها تعكس من خلالها وعيا ثقافيا واجتماعيا سائدا ،ومن أهم مميزات الكاتب احتفاؤه المتزايد بالنفس المغربي و الحياة الذهنية المحلية المغربية في أبعادها التخييلية الواقعية التارخية والجغرافية و الاجتماعية و الثقافية . ما يمكن اعتباره وفاء لمرحلة الطفولة و لأبناء بلده و رجاله و نسائه و أسواقه في التقاط تفاصيل اليومي و كل ما هو جدي مهم له قيمة الاصلاح سواء بتزكيته أو بتفاديه .

---

(1) ادريس مقبوب : التغييرالاجتماعي بين النظريات (الكليانية و المنهج الفرداني ، نزوى 67 /10/ 2011 ص104

(2) مفيد نجم : كائنات من ورق ، الشخصية الروائية في روايات إمراتية ، مجلة نزوى العدد67 ، ص16 .

(3) أنظر نفس المرجع ،ص23

إن ذات "صاحبنا" شاهدة على عصرها ، بل على عصور بأكملها ، كأنه عاش الأحداث منذ عهدها الأول ، فهو بالإضافة علميته و تارخيته يأتي بالحدث و النعلومة ، حيث أثبت قدرته على الجمع بين التاريخ العام من مرآة الفردية الخاصة ، سئل أحد الكتاب على ما هو أقوى حضورا في الكتابته، الحضور الذاتي و المعيش الشخصي أم الحياة الثقافية الأدبية ، فقال : "أعتقد أن الكتابة تفصلنا بعض الشيئ عن ذاوتنا بتحريرها لاحتمالات و ممكنات الوجود ، أما المعاش الشخصي فيتمتع بفقر يرثى له (الأمر شبيه بأحلا حينما نتجرأ على سردها" (1) .

"إن الذات من خلال تجربتها كأنها تدعونا إلى هجر موقف الحياد و اللامبالاة و النزول إلى ساحة التفاعل الفكري"(2)، وما هو في صلح العام لا يعدو أن يكون لك منه العكس(الحق و الواجب)، فالمعرفة سلوك و الفكر تطور و العلم عمل ، "تلك مفاهيم أثمرتها "الحفريات" في نسيجها المتداخل من حيث الحديث عن الذات أم أنها نائبة عن الغائب ، محددا في ذلك البعد الذي يتخذه المؤلف بالقياس إلى موضوعه ، و بالقياس إلى العام ، وخصوصا بالقياس إلى القارئ"(3) .

لا تلعب الأصول الاجتماعية للكاتب إلا دورا ثانويا في المسائل التي يثيرها مركزه الاجتماعي وولاؤه وايديولوجيته ،و لا يمكب أن تدرس فقط من كتاباته المنظر لها كونها سيرة ذاتية ، بل في غالب الأحيان من الوثائق غير الأدبية ، فالكاتب مواطن وله رأي في المسائلذات أهمية الاجتماعية و السياسية ،مفكر و يطرح الحلول كما أن له دورا في قضايا عصره(4) .

لا يغيب عن بالنا، أن الأمة مهددة بالزوال ، بحكم وجود الآخر ، وتواجده كل يوم وفي أماكننا وفي وعينا عار جديدا في معركتنا معه ، ومن ورائه ، مدعوة إلى النضال اليومي من أجل حماية وجودها، "إن ماضينا يرمقنا شزراً، ولا نستطيع أن نخلص لروحه الأصيلة وأن نتصل به لنستمد منه العزيمة والكبرياء إلا إذا صعدنا إليه صعوداً شاقاً دامياً وإلا إذا استطعنا أن نستحقه بفضل النضال "استحقاقاً كريماً لائقاً". وإن المستقبل ينتصرخنا، وعلينا أن نخطّ تاريخه المشرق منذ اليوم"(5).

---

(1) عبد الفتاح كيليطو : الأدب يحررنا من أفكارنا السيئة ، ترجمة محمد أيت لعميم ، مجلة نزوى العدد 69.

(2) نوال السعداوي : المرأة و الغربة ، دار المعارف ، سلسلة اقرأ ،ص10

(3) أنظرعبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، دار الغرب للنشر و التوزيع ،ص 318

(4) رينيك ويليك ـ أوستن وارين : نظرية الأدب ،ترجمة : محي الدين صبحي ، ص 100 .

(5) عبد الله عبد الدايم :مفكرون مكرمون ، دراسات ـ شهادات مجموعة باحثين ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ، 2004 ،ص84

ه) ـ هوية الذات و البحث عنها :

لاحظنا في بعض السير أن المؤلفين يلجئون إلى التسريع في السرد ، لأنهم حين ينظرون إلى الوراء ، لاتجد الذاكرة كثيرة مما يشغلها أو تتفداه الذات حسبما يحدد قصدها، فتنزلق فوق الفراغات وتدمجها بين فترات العيش الأكثر امتلاءا " الجابري" كان يعتمد على السرد المشهدي أو الوقفة الوصفية التي تعطل السرد ، وهذه المشاهد هي مشاهد درامية التي تقوم على المدار الذي يجسد الصراع .

ولكن الذات لا تستطيع الاستقلال بنفسها ، تلجأ إلى تعويض هذا النقص ، ويجعل المساحات تنوب عنها و"هنا تذوب الذات في الوضوع ويذوب الموضوع في الذات التي يتوارى ما تبقى منها بعيدا إلى الوراء بحثا عن ما يلف يتكئء عليه لترد الإعتبار إلى نفسها من خلاله وبواسطته" (1) .

يكشف " حفريات في الذاكرة " عن وعي عال بالأشياء و المعالم ، ولعل من أهم صور هذا الوعي هو قراءة الذات بدلالة الآخر غير المحايد ، إذ يتدخل هذا الآخر بأشكال مختلفة في الضغط على جزء من الذات المتداخلة وتوحيد وعيها ،"لأن الأديب وإن كان فردا لكنه يختزل فيه ضمير الجماعة و رؤية الجماعة التي ينتمي إليها"(2) .

كأني أرى في أسلوب الكاتب قد ناءت به الحقائق إلى مستوى يقبل النجوم في أثارها وخاصة في بعده الفكري الذي ارتقى به الوعي و الأحساس بالغربة والضياع، يعطي معنى "الأم" التي جفت ابنها (ابن مغربي) حتى أوشكت أن تتبنى غيره من خلال تداول الأزواج قصد استئصال الأصل الممتد ، وما "الحماة"إلا عميل مساند للدخيل في تمزيق الوحد العربية ، وكأن الأمة بهذا قد أصيبت بمرض أودى بحياة "الأم" بحكم السلطة في لم الشمل و الإلتحام ، وكان في غفلة منه في مرحلة لم يكن له بد من ذلك ، ولم يصل به التشاؤم و اليأس رغم موتها و انقطاعها عن الوجود القومي ، لأنه يراها في أحلامه أنه يلتقي بها يوم المحشر ، يوم يعود إلى من هم بعده فتية يمكن لها أن تعوض ما أفقدته .

---

(1) محمد عابد الجابري : نحن و اتراث ، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ط 6 ، 1993 بيروت 16

(2) صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، ميرت النشر و المعلومات ، القاهرة2002 ، ص07

من تلك السيدة التي كانت قريبة إلى أمه "بل كانت من أقرب الناس إليها ، و لعلها كانت أختها من الرضاعة...كان يتخض منزلها ممرا إلى أمه"(1) ، "حتى أنها كانت له عونا في العودة إلى حنين فيما تركته أمه من لوازم ،لا ينبغي لغيرها أن يمتلكه يحدد خصوصيات تقلدية، "ما حقيقة تلك الأغراض؟ من أين جاءت لأمه ؟"(2) ، كأن الجابري يوجهنا إلى بعث الهوية و الحقائق التي جعلت منه الجابري ، إن كان السؤال قد فرض نفسه في السياق، فإن الجابري يقترح جوابا في مؤلفاته ، التي تتوحد في الرد والبحث حول محور واحد ، منها كتابه " نحن و التراث" ، مركزا على اجلاء الذات بدلالات كثيرة في العدد لكنها واحدة من حيث البعد (الهوية) .

يتحدث عن الأمازيغية التي تعتبر لغة الأم والتي ينحدر منها ،وخاصة المناطق المهمشة في الجيال و القرى و الأرياف، " فلم تكن أمي تعرف كلمة بالعربية الفصحى وكذلك جدتي لأمي ... وهذا من الناحية اللغوية و الحضارية ، أما من الناحية السياسية أن كل من يتقن " الأمازيغية" في الصراع السياسي بالمغرب العربي ، فهو يضع نفسه موضع الأقلية ، و الحق أن اللغات الثلاث الأمازيغية و الدارجة العربية و العربية الفصحى كانت ضرورية كلها مقدرة على التواصل و الكلام في مجال مدرسي يقع في منطقة يتكلم أهلها الأمازيغية " (3) .

فاللغة الأمازيغية الأصل وظيفة التشابه و التطابق بين كثير من العبارات و الكلمات في اللغة الحميرية القديمة ، فيما يتحدث به بعض اليمنيين ، أما اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن و العلم و التدبر التي انحدرت منها الدارجة العربية ، وعليه فالجابري في توظيف و استعمال بعض الكلمات الأمازيغية، أراد من ذلك أن يشكل معجما يظهر فيه علاقة العرب ذات الأصل الوحيد من حيث الأمازيغية ، ثم يعيد شرحها بالمقابل بالعربية حتى يكون قريبا من الحقائق الواقعية، التي تتمثل في المشترك المضمر حتى وإن اختلف الشكل الظاهر، وفي ذلك دعوة إلى إعادة ما ضاع و تلاشى في غبار الحضارة .

ومن جانب آخر يعكس الصراع حول حقيقة شاملة " فإذا سئل العامل المغربي في فرنسا " من أنت " كان يجيب أنا " عربي" دون أن يكون عربيا لا باللسان، فالعروبة والإسلام عند سكان المغرب العربي كان ومازالا علامة على الهوية الوطنية و الإنتماء الحضاري "(4) ،فقد غلب على كل أهل طبعه .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ، ص 183
(2) نفس المصدر : ص 183
(3) نفس المصدر : ص 119
(4) نفس المصدر : ص 161

في حواره الذي ذيل به نصه يصرح على أنه لم يكتب عن حياته الثقافية حتى خصص له جزء ، ولا يكون هذا بمنأى عن حياته العملية ، تبقى طيفا من أطياف طفولته التي كان لها دور كبير في توحيد مستقبله وتزكية النافع ودرء الضار في معالجته للواقع وهو بذلك شخصية متفحصة على تراث و مقومات الأمة ،ونابغة في أغوار الحاضر الممتد عبر معارج التيارات ، تتأمل الأصالة وتلبس الذاتية الموضعية يحكمون بالمظاهر ويتجاهلون الجوهر، حتى أصبح العالم يقبص بموت العلماء ، لعل المستقبل كما يأمله الجابري لا لذاته ، وإنما بنزعة انسانية .

فلا نكاد نخرج من نص " الحفريا" إذا أردنا أن نقبض على حقيقة الذات ، فلا نراه يؤمن بالمسكوت عنه في كل ما يمس الفكر العربي ، انطلاقا من التراث و محاولة تأصيل الثقافة المعاصرة الزائفة ، بمرجعية تاريخ العلماء ، في الفكر و العقل ، إلى جانب الاتجاه النقدي الذي لم يرفض فيه الآخر ، ولم يفرض على العقل العربي مبدأ و لا حكما ، وغنما كان له من ذلك نمط الحوار و مساءلة التراث ، لأنه يدرك أن شعب بلا ذاكرة أمة بلا تاريخ ، وأن أمة بلا تاريخ أمة بلا مستقبل ، فقد كان موقفه من ذلك في هذا العصر موقف (الغزالي) في العصر العباسي في معنى(التهافت)، وكأن التاريخ يعيد نفسه ، وهذا ما يؤكد على أننا لم ندرس أو نفهم التاريخ .

ومن هذا لم يبقى الذات محصورا في معنى الذاتية المطلقة ، وإن كانت معطيات النص من منطلق الذات ،إلا أنها ظهرت بمستويات أخرى باعتبار ما انساقت وراءه من أفكار ايديولوجية تكاد تخفيها ، فإذا بحثنا عن مواطن ذات في النص ،فقد نجد أنفسنا أمام الآخر، فالسيرة الذاتية محكوم عليها أن تتجه بتوجه الذات ، توجه فكري ، سياسي اجتماعي أو نقدي .

الآخرالظاهر :

على هذا الأساس يعالج الجابري بروحية نقدية الواقع الملموس للأمة العربية من خلال العلم والتعليم والعلماء ، إذ يحدد في مساره المعاناة التي يعانيها المتعلم الذي يقف الحجر في طريقه نحو الستقبل والتحصيل من خلال الظروف التي عاشها بعد دخوله المسيد و قراءة القرآن ،وكذا طبيعة المعلم و مستواه الذي خلق مشكلة الإتصال .

"كان المعلم لا يعرف الأمازيغية والأطفال لا يعرفون العربية ، كان يتحدث إليهم بالفرنسية "(1) ، إلى جانب المسؤولية التي ألقيت عليهم جهلا ،" فقد كان الواحد منهم بمقدار ما يكبر في جسمه وسنه تكبر الأعمال التي كانت عليه أن يقوم بها مساهمة في تحقيق الإكتفاء الذاتي للعائلة ...في سن السابعة " (2)، لأن الأشغال واجبة على كل فرد صغيرا كان أو كبيرا وخاصة في بنية ريفية (الصحراء) التي تجسد الفقر ، في قلة البشر وغياب الشجر وكثرة الأحجار التي في بناءها ترى دمارا ، إلا البساتين التي كانت اقتصاد المنطقة التي توفر الإكتفاء الذاتي في المواد الأساسية ، الإحتطاب كوقود مستعمل ، راكبين دوابهم (البغال والحمير أساسا)"(3) .

في الماضي كانت معرفة الذات ضرورة تملكها الفردية ، أما الأن فهي ضرورة تمليها الحكمة الجماعية (4)، إذا كانت الشخصية تحتج بقساوة الظروف في اهمال التعليم فالضعيف حجته ضعيفة ، فما أكثر الجهلة الذين في الشقاوة ينعمون ، فأين نحن من قوله تعالى "يا يحي خذ الكتاب بقوة "(5) ، إذ قال له المعلم :"وأنت ألا تشتري كتابا ،أبوك يبذر الأموال في وجدة "(6) ، جعل "صاحبنا" يعيش في قلق واضطراب كضمآن في وجود الخمر ، "اضطر" صاحبنا إلى أن يأخذ ورقة من فئة ألف فرنك "اقتناء الكتب ، متحديا الظروف مكتفيا بغذاء عقله على سبيل إراحة جسده وفراغ الوجدان .

إن دعوى التعلم كانت من معلم لا من طفل دون وعي ، لأنه ألقى المؤنة في ذلك على شخصية هادفة ، و "يعني هذا أنه يسلك هذا السلوك عن وعي لقيمة الشيئ ، إذا راعينا النزعة النقدية العربية التي تدعي الواقعية فالحديث كان على مقدار مستوى الشخصية المثقفة الواعية "(7) تعكس حلة الركود العلمي الاجتماعي و تهميش الفردي

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 51

(2) نفس المصدر : ص 85

(3) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 84

(4) روبير اسكاريت : سوسيولوجيا الأدب ،عويدات للنشر والطباعة ،بيروت لبنانص 28

(5) القران الكريم : سورة

(6) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 87

(7) عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ،دار الغرب للنشر و التوزيع ،ص 177

"من هنا بدأ يتفاعل كل من مركز التحكم والشعور بالذات ، مع الادراك الجماعي الذي يدرك فيه الفرد ذاته (محظوظ ، سيء الحظ أو غيرها) ، أما الشعور بالذات فهو صورة من الوعي بالذات يتضمن الشعور غير المريح عندما يواجه الآخرين ، و هذا ما يقترن بدرجة مرتفعة من الشعور بتوحيد الذات" (1)، و إن كان "صاحبنا" لا يستطيع أن يتذكر الآن الدوافع التي كانت تدفعه إلى الكتابة ولا حتى ميوله إلى كتابة" المذكرات" و"المقالات" ، حتى معلم العلم لم يكن يتطلع لأن يصبح كذلك، إلا أن هذه التطلعات لا يمكن أن يعيها طفل في سنه "حتى عندما كان في مرحلة الثانوية تمنى أن يصبح في المستقبل مختصا في التحليل النفسي ،على رغم من أنه لم تكن لديه أنذاك فكرة واضحة عن هذا العلم "(2) ، فالضروف لها السلطة الكاملة على الوعي ، فيكون لها ما تريد .

كما تؤكد العلوم التي تدرس الانسان في علاقته بالمعرفة والمحيط والبيئة ، اعتماداعلى الأثار المحمولة في خبراته التراكمية عبر الزمن ،"لا تنكر هذه العلوم ما للبيئة والمحيط من تأثير يخلد ،وخاصة ما يتعلق بأفكاره وعقائد ، هوادراكه العام وتحليله إياه ، تبعا لعوامل كثيرة منها العامل الجغرافي ،الاجتماعي إلى جانب العامل الحضاري المكون للنفس الحضارية في المجتمع "(3) .

و الجابري كان يعيش حالة التصالح مع البيئة الصحراوية المحيطة به ،"كما كان يعتقد أن فقره هو سبيله إلى الجنة من كثرة الأمراض "فالناس كانوا يعيشون الموت في كل لحظة ، ولم تكن هناك حاجة إلى المأتم لأن الحي كله ماتم "(4) ، يعكس ميزات وخصائص الطبيعة الصحراوية و ما تفرزه ، ومن جانب آخر تظهر في مقارنته بين المدينة والريف ، من حيث العادات والثقافة التي توحي بالتطور والعيش الكريم ، ذلك على على مستوى البنية الاجتماعية (النظام الاسري القبلي) في الربط بين التخلف (الفقر، الأمراض ، الجهل ، الغلظة الخ..)

" المجتمع التقليدي لا يكرس الجديد ، يجعل العلوم تنتقل من جيل إلى آخر بشكل جامد إجمالا ، تحكم العادات والتقاليد بالسلوك لا القانون "(5) ، فما جاء به المعلم "حاج محمد" أصبح حتى اليوم مردود عليه من زيارة الأضرحة .

---

(1) محمد السيد عبد الرحمان : مقياس موضوعي لركب الهوية و الاديولوجية الاجتماعية في مرحلة المراهقة والرشد المبكر ،كلية التربية ،دار الطباعة والنشر و التوزيع (القاهرة) ص 62

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 89

(3) سليمان حسين : مُضمرات النصِّ والخطاب ، دراسة ، في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي

(4) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 20

(5) أ د مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ،مدخل الى سيكولوجيا الانسان المقهور،المركز الثقافي 2005 ص30

فإذا كان النظام الاجتماعي جامد(الطبقي) ، تخضع مرتبة الفرد فيه إلى الحسب والنسب أكثر مما تتحدد من خلال الكفاءة الإنتاجية ، إلا أن هذه الميزة لم تبدو واضحة فقط في حديثه المطول على أهل الفجيع"وقصر زناكة " كنماذج تجسد أهل العلم (أسرة أخواله)،وإنما كذلك في"أهله من أبيه" (اصحاب السيف) كما سماهم(1) .

يشعر "صاحبنا" وهو يتهيأ لمواصلة تتبع مساره الشخصي أيام طفولته من خلال البيئة التي نشأ فيها ، يشعر بالحاجة إلى القول "أن من هذه الذكريات ما تنتمي إلى الماضي ومنها ما ينتمي إلى المستقبل لا بحدوثها الزمني بل بأثارها ونتائجها "(1)،لأن" السيرة في علائقها الجدلية مع الماضي بنقائصه و الحاضربنقائضه ، فكانت الرؤية متكاملة و منسجمة عن العالم انطلاقا من البعد الأخلاقي"(2) ، لأنه كثيرا ما كان يعمد في طرح الأحداث ، إما في سياق تربوي أو تعليمي و فكري ، و ذلك في قالب فني يطبعه الانفعال بنزعة نقدية .

فقد أخذ يرجع بحياته الفكرية حتى إذا وصل إلى مرحلة الطفولة" انتصبت أمام بصره صورة ذلك الرجل الذي يرجع إليه بالفعل فضل غرس شجرة العلم "(3) ،إنه الحاج محمد فرج ، يستعرض وقائع حياته بحثا عن المنبع الذي يعود إليه الفضل فيما صار فيه صاحبنا نهرا يدر على الساحة الثقافية المغربية والعربية حتى يربط ذلك بين التعليم وطرقه التي كانت سائدة في الزوايا و الكتاتيب، (المسيد) مرورا بالمدرسة الفرنسية الخاضعة للنظام والمناهج المستهجنة ،كوسيلة لا غاية ، تقاوم الذاتية الثقافية والتربوية ، ولم يكن هذا بمعزل عن المدرسة العربية التي تأثرت بالمدارس الفرنسية.

ومن جهة أخرى ، يشيد بشخصية "الحاج محمد فرج" الذي كان شاذا في أقرانه وفقا لما وصف به لشدة تعلقه بالمساجد وسعة إطلاعه مفسرا أحداث التي كانت تدور حوله وخاصة بفكره النهضوي الإصلاحي ، وهذا هو بيت القصيد في الشخصية حتى جعل منه نسخة طبق الأصل ، فكانت ثمرة من ثمارها ، وكأنه يقول أن التاريخ يعيد نفسه فيه، بما أن "الحاج محمد" قد عان الانتقادت من خلال المساس ببعض العادات (زيارة الأضرحة) ، فأمر بهدمها إلى جانب السلطة الفرنسية التي أمرته بكتابة خطبة الجمعة حتى تتمكن من فرض رقابتها (4) ، فماذا أراد بهذا مثلا .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 71

(2) محمد ساري : الأدب و المجتمع ، ص12 .

(3) نفس المصدر : ص71

(4) نفس المصدر : ص75

إن الكاتب يخلق في نصه صورة عن نفسه وصورة أخرى عن الآخر ، فهو يضعه كما يضع نفسه، وبهذا يمكن اكتشاف بعدين متفاعلين يعانق أحدهما الآخر ، بعد ذاتي يتعلق بالمبدع نفسه (الذات)، وبعد خارجي يتعلق بالآخر ،الذي لولاه ما أخذت الذات البعد القومي العام و الثقافي ، لان نص الحفريات كان كتابة عن الذات لا للذات .

إن الشكل يخدم لونا من الحقائق ، ويعمل على تقطيعها وانتقائها وتشخيصها قصد تكييفها حسب طبيعتها ووظيفتها التي تخدم القصد ، و اختلاف في معالجة الحقيقة من زوايا ومستويات متعددة ، حتى إنها تبقى عصية على تشخيصها في الواقع ، ويتعلق الأمر بأهمية الإتصال في حياة الجماعة و قدرة الوعي على ذلك ، في ظل القيم السائدة ، حتى أنه جعل (صاحبنا) ذاته تخرج من ذاتيتها في النص وبه إلى وعي جماعي ، حيث المشترك الموضوعي القائم على تمكين الفعال للفرد من نفسه ومن تفاعله مع الآخرين بحكم أن الذات واحدة ولكنها تعددت بتعدد الآخر، الذي يعد مسقط الظل لكل عضو يكمل أجزاء الأمة بمفاصل المبادئ و القيم .

سلطة الآخر المضمر :

يؤلف الآخر (السلطة) القطب الانساني الضاغط على حرية الكاتب ، تنتج العلاقة بينهما على الدوام ما يعرف بالموروث السوسيو ثقافي " أزمة الكاتب " ، إذ ينظر إليها الجابري نظرة مثقف متحضر ، وهو يفسر تراجع قيمة الكاتب في مجتمعنا العربي، بسبب أن واقعنا العربي نظرا لعوالم كثيرة لا يحترم الكلمة التي وحدت القبائل و أوجدت الأمة ، بل إن هذا الواقع يحارب الكاتب ويحاصره في حقه الطبيعي في الحياة و الحرية " إذ من الطبيعي في مجتمع صحي وعادل أن يتمتع الكاتب كونه كاتبا" (1) ، وبذلك يقدم الجابري مقاربة في توجيه سيرة الكاتب العربي عموما وسيرته الذاتية خصوصا ،ليؤكد على غربته في الواقع في غرابته بتوظيف الصورة و الإشارة و التلميح و الرمز في في نصه وعنوانه .

كانت الشعارات و الأفكار التي زرعت وسط مختلف فئات الشعب قد لقت صداها و لكن دعوى الإصلاح في "الحفريات"تعكس أمل الجابري في أن أرضية المجتمع مهيئة لبروز أفكار تحررية ،عقائدية ،مستقبلية ،وتغيير جذري في طبيعة الحكم والمجتمع ككل .

فقد قال على حد قول محمد القيسي " لايهمني ما يقول الناقد أو تجيء به تنظيراتهم الآتية من خارج الجسد الذي يحترق ، الجسد الذي يطمح أن يأخذ حصته من الهواء والحياة و العدالة ،"إني أقدر النقاد ودورهم وضرورة النقد وأهميته في أي فن من أجناس الكتابة ، فليس من مهمتي عندما أكتب أن أفكر في الناقد" (2)،

تعد النظرة الواعية من أبرز الخطوط التي يستخدمها الكاتب " الجابري" لرسم مسار تجربته الثقافية ، لأنها تعبر عن شخصيته تكشف عن روافدها وفعالياتها وأحلامها ، إذ يتمثل في السيرة الذاتية عادة الاحساس المتزايد بالوعي الذاتي انطلاقا من الجدل الحاصل بين الذات بفضاءاتها الخفية الغامضة و العالم في مشكلاته التقليدية ، وفي ذلك ما يعطي للذات معناها التفردي ، و خاصة نظرته الواعية إلى الأشياء و القراءة الصحيحة للواقع وتوقعه لما سيقع ، فنظرته البعيدة إلى المستقبل كانت من نظرته العميقة في التاريخ ،و كان ذلك بمثابة استعداد فكري أكسبه القدرة الكافية من الحدس .

---

(1) أنظر محمد صابر عبد : تمظهرات التشكل السير الذاتي ، قراءة في تجربة محمد القيسي ، السيرة الذاتية منشورات اتحاد الكتاب العرب ص15

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 231

"وجود الآخر متلقي ليتصدى للنشاط الكتابي الإبداعي ويتفاعل معه ، يقدم استراتيجية رؤية خاصة للكاتب ، بحيث لا تغدو السيرة " سؤالا " خاصا بالتكوين أو بوصف عمل ، ولكن سؤالا خاصا باستقبال ذلك العمل "(1) ، يجعل دلالة الآخر ذات تأثير اديولوجي بنسبة معينة في الضغط على فضاء الكتابة ، فالأعمال الأدبية تؤخذ من شكلها و يمنع السؤال ، أما السيرة الذاتية قلبا و قالبا ، هل هذا لأهميتها و الوعي بقيمة الذات فيها التي تتركب بين المعنى و المبنى؟ .

التلقي و التواصل ، قام فيه الجابري بعرض الأحداث ككل حدث ، إلى جانب صياغتها وفق تحليل الذي يقودنا إلى الربط المنطقي بينها ، "على وجه غير مباشر مع نوع من التأويل الذي يجعل النص يقرأ بناءا على الواقع الداخلي لا مقارنته مع الواقع المعاش "(2) ، و الداخلي نراه مضمرا في الخارجي ، كأنه لا يخبرنا بسرد الأحداث لغايتها ، وإنما الأصل ما تحمله تلك الأحداث ، فليس الجابري من عاش تلك الحياة "صاحبنا " من تعني له الوجود الثبات على الأصل دون تزييف رغم العواصف ، والعربية والدين وثقافة العرف .

وإن ادراك الذات يعني ادراك الآخر كيفما كان ، فإذا كان له في الوعي مجال ، فلا تتيح له في النص فاعلية الاستدلال ، من حيث أنها لا تظهر نفسها و لا تنادي باسمه ، تساهم في صناعة هذه المعرفة لتفرض ألوانها وتقاليدها ، ما يجعل الآخر مرآة مستلبة ، بمعنى أن الكتابة هنا لم تكن سوى رثاء الذات ، فيجعل مساحة يتحدث فيها الكاتب يتجاوز بها الواقع وتجارب حياته ، ويتجلى ذلك في تلك الوقفات التي يتحدث فيهاعن الذات ، ولكن كل حدث يحتمل سؤال (كيف ، لماذا ، متى و أين)، فبذلك نعطي صورة للآخرحسب موقف الذات ، التي تبدو في صورة تتجاوز القناع أحيانا إلى نوع من التماثل والتماهي و الإتحاد بالآخر .

---

(1) أنظرمحمد صابر عبيد : تمظهرات الشكل السير ذاتي ، قراءة في تجربة محمد السبتي ، السيرة الذاتية ، منشورات اتحاد كتاب العرب ص12

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 88

الآخر الدخيل (الاستعمار):

إن دراسة المجتمع البدائي البسيط في حضاراته و تنظيمه الاجتماعي تساعد أساسا على فهم المجتمعات الحديثة المعقدة ، لأن المجتمعات البدائية تتمثل طفولة البشرية ومرجعيتها ، بينما المجتمعات المتحضرة تتمثل في تناجها ، "وليس من الشك في أن فهم الطفولة كمرحلة تعين على فهم مرحلة النضج" (1) ، وأن الأحكام العامة المستمدة من الخبرات الشخصية و الذاتية كافية لفهم مجريات الحياة الاجتماعية على كل المستويات، والجابري مثالا على ذلك ، وخاصة بما يتعلق بالذات في ظل تواجد الآخر في الزمن السائر و في المكان المتغير (الأسرة ، الشارع ، المدرسة ، المدن ، القانون الاستعمار.

فلم يتعرض الكاتب للواقع المعاش إلا بما يخدم القصد ويجسد النزعة القومية ، فقد أشارت السيرة إلى أحداث المغرب التاريخية ، التي لم تطعمهم من جوع و لم تأمنهم من خوف ، من مجاعات في الخريف مطلع الأربعينات، تلف ، تزيف ، تخلف ، ومن ذلك الخوف، إلى جانب الواقع التعليمي ، و حتى التربوي الثقافي، باتباع سياسة التطهير و خلق الفراغ ، فقد أغلقوا الكتاتيب و هجروا أهل الزوايا، حتى الفقرعاد شبحا يعيدك إلى من كنت منه فارا(الجهل) .

أنشئت المدرسة الفرنسية بالبلد التي فرضت سلطتها بداعي النظام الذي طرحه الكاتب في صورة أسمع و لا تتكلم ، مجسدا السلطة الفرنسية في نموذج المعلم ، إنه النظام الذي تفرضه سلطة الاستعمار التي تؤكد فكرة التبعية ، ليست أفكارنا من عقولنا ما دمنا لا نأكل من فؤوسنا .

الحاكم الفرنسي هوالنظام الذي ينقل معه " النزعة الفردية ، التي تعكس الوجود (السرتري) وهو يسرد بوعي وفهم وتمحيص في بعث القومية و البحث عن الهوية ، ليحل محل " الحضور الجمعي في دلالة المكان "المسيد" ووارساء قواعد لمن جرفهم السيل الفرنسي وبين من يرى في المدرسة " خروج عن الطريق، هذا الأمر يفسره في طبيعة الهيمنة الفكرية و الثقافية للمدمر، كما يذكر صاحبنا كيف أنه كان يجيد القراءة في كتاب التلاوة الفرنسية " وماذا بعد كتاب معروف باسم مؤلفه " ليوني" يتذكر من نصوصه " بلادنا فرنسا "(2) .

---

(1) محمود عودة : اسس علم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة عين الشمس ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت ص44

(2) أنظر محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 52

ولكن أين نحن من ذاتياتنا الثقافية اليوم ؟ فإذا كنا ندعي الانفتاح " ، فقد انفتحوا على الحياة العصرية التي كانت الحماية الفرنسية تغرس بعض مظاهرها في البلد، لعل في ذلك أن يصبح أبناؤهم في الإدارة أو سعاة بريد ، فكان ذلك كمنتهى طموحهم في ذلك الوقت " (1) .

ليس النظام هو عدم التكلم ، فهو منهج البحث عن الهوية وفيها ، رؤية الجابري في حضور النظرة التاريخية ، ليس تاريخ الأحداث وإنما التاريخ بالتحليل والتفسيرلا بحكم العادة المطلقة ، لأن الذات تمثل وعي الحاضر الذي يمتد إلى الماضي، و النص هو محاولة خلق نوعا من التوازن بين السائد و المستجد ، فقد ورثت عن أجدادها ، لأنهم ورثوا وورثوا .

إن "الحفريات في الذاكرة" من الكتابات التي أتبعها مفكرون وعلماء اجتماعيين بالمعنى الواسع ،الذي يمكن أن يكون فيه تجاوز التخصص ، وخاصة في استناده على المادة التاريخية ، كأنه يدرس حاضره من زاوية تغيير النظم الاجتماعية بالعودة إلى أصولها ، ومؤلفاته التي تجسد حياته الثقافية للإجابة عما طرحه العصر من اشكالات التي هزت كيان الأمة، وفق منهج العودة إلى التراث التي برزت في "نقد العقل العربي" "نحن و التراث " ، وفي سياقه الفلسفي الذي يرى نسج به خيوط الذات بكل أبعادها قصد بعث الأمة في مواجهة العولمة .

لقد تميزت طفولة "صاحبنا" بمرحلة تقاس بالتواجد الفرنسي، باتجاه الظروف نحو السيطرة العسكرية و الإقتصادية المباشرة المكشوفة على مساحات شاسعة من العالم العربي ، و"استقرار النظام الراسمالي الذي بلوره ، ومن ثم اشاعة مبدأ الثبات و الاستقرار و البناء بدلا من مبدا التغير و التقدم و التطور" (2)، وكان هذا في فرض سياسة التهميش واصدار الأراضي الزراعية قطاع تشغله نسبة كبيرة من المواطنين (البساتين) لكنه ذو انتاج هزيل يذهب إلى الخارج ، "لأن العلاقات الانتاجية الإقطاعية لا تسمح بالتطور الإجتماعي وهي تعتبر في رأي معظم الباحثيــن المحدثيــن المعرقل الأساسي لعملية النمو " (3)، وهذه الظروف تضرب بجذورها في نسبة المجتمع المتخلف الذي من ميزاته الفقر، حالة التغذية ، الحالة الصحية ، التعليم ، وهذا ما تعكسه حياة "صاحبنا " في طفولته ، فقد كان يستهجن بفطرته فيها ، ذلك ما يحذر منه و ينكره.

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 53

(2) محمود عودة : أسس علم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة عين الشمس ، دار النهضة العربية ، بيروت ص44

(3) د،مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ،مدخل الى سيكولوجيا الانسان المقهور،المركز الثقافي العربي،ط9،2005 ص24

" يبدوا أن قيادة الحركة الوطنية لم تكن في تلك الفترة وهي التي كانت تعيش تحت الضغط و القمع مابين السجون وأشكال أخرى من التعسف وخنق الأنفاس " (1)، " خصوصا و أن السلطات الفرنسية كانت قد دشنت سياسة قمعية جديدة ، فاعتقلت القادة الوطنيين وجميع العناصر النشطة وضيقت الخناق على المشاريع الوطنية في مقدمتها التعليم الوطني الحر " (2) .

إن سياسة المستعمر تعكس مقولة الجنرال (دوغول) في الجزائر حين قال ، أقتلوا هؤلاء الأطفال ، إنهم المستقبل إن يكبروا سيقتلونكم بالرصاص ، قتلوا الهوية في الأطفال وأرادوا استئصالها من الكبار أمثال " الحاج محمد " في فرض كتابة خطبة الجمعة التي تصب في شؤون الاصلاح و النهضة المبنية على الزوايا و الكتاتيب " سبحان الله ،لقد اعتدنا أن يقرأ الناس العلم ، وأنتم تقرأون حكايات القطة و الفأر و الذئب و الثعلب ، إنها من علامات قيام الساعة " "لقد رفع القرآن يوم فتحت هذه المدرسة "(3)، هل تحقق حدث رفع القرآن أم أن الهناك مبالغة توحي بعلامة صغرى لقيام ساعة الوجود بما يوافق الهوية و المعتقد .

ولا يكاد ذلك أن ينفصل عن الحياة الاجتماعية التي تساعد على تنفيذ برنامج يخدم السياسة و القمع و الفكر الاقطاعي ، فهذا من ذاك ، إنه زمن سادت فيه السلطة السياسية و العسكرية كفاعل حقيقي في تاريخ الطفولة ، فالمشكلة التي يطرحها وليست مشكلة تطور الذات أو الشخصية ، بقدر ماهي مشكلة معرفية ، لأن الكاتب أمكنه أن يطور أفكارا حسبما يقتضيه الواقع ، ليس بهذا أنه يبدع واقعا خياليا ولا يتوقف ذلك على مقاصده ، وإنما على معطيات الواقع الاجتماعي الذي يعيش في قلبه ، والنزعة العقلية التي أسهمت الطفولة في اعدادها من خلال توكله مهام و تحمله المسؤولية مبكرا ،فهذا مورد الذكاء .

ونكاد في كل النصوص المغربية المعاصرة أن نعثر على نقاط سوداء تعكس المعاناة و الحرمان من خلال سياسة التجهيل ، من سجن ونفي قصد تغييب مقومات الهوية ، ولايكون ذلك إلا بالتنفيذ في علاقات تشيد بالعبودية ، تفرض عليه الرضوخ ،فمصير الذات مرهونة عند من تجد عنده الحماية ، فلا مجال للحرية إلا في إقامة إتفاقيات ، إنه رهن اعتباط قانون السيد ، فلا يدله إن أراد به شر، و البقاء في حالة التبعية توحي بتمرد الذي غيبته سياسية الآخر بقوتها.

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 140

(2) نفس المصدر : ص141

(3) نفس المصدر : ص78

" قصد مجابهة لغز المتسلط الخارجي ، إنه يشكل تهديدا كيانيا لمن يغزوهم في هويتهم القومية وتراثهم وانتمائهم ونظراتهم إلى الوجود ، وخاصة إذا التفت الامكانية المباشرة فلا يظل أمام الشعب المقهور سوى الاحتماء بالتراث و التمسك بالعادات ضد الغزو الفكري و النفسي ، ضد الغزو الحضاري و ليشتد التمسك الذي كان بمقدار وطاة الاستعمار الحضاري في وهم الانتماء و الاستقرار "(1) .

لقد طال أمد الفساد و إمتدى سرمدا ، ولم يتغير في الوجود شيىء، ولكن الأساليب تطورت و الأسماء تغيرت ، فلم يبقى الاستعمار في المكان كما كان ، فقد كانت له نهاية، و لكنها بداية للاستعمار الفكري بقنابل موقوتة في شتى مجالات الحياة ، وبكل الوسائل التي يزكيها المجتمع ، حتى أنهم كانوا يتقاسمون الممتلكات بين قوى غير مرئية سلطة (الجن و الملائكة)،" كالتي تفرضها الدولة، أو تمثلها في نفوس الناس عندما يكون هناك ما يجسدها " (2) .

(1) مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ، مدخل سيكولوجية الانسان ، المفهور المركز الثقافي العربي ط 9 2005 ص 105

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 19

الآخر الظاهر:

أ) ـ المجتمع :

يعيش الإنسان المقهور في العنف المفروض عنف يأتي من الطبيعة التي لا يستطيع لها ردعا ، و التي تشكل تهديدا فعليا لقوته وأمنه وصحته (الجفاف والفياضانات ، الحرائق ، الأمراض و الأوبئة ، الآفات الزراعية إلخ) ، صنع عالم العالم (طه حسين)"المعذبون في الأرض" ، في فقدان متفاوت في قدرة السيطرة على مصيره ، إنه حتمية الطبيعة عندما تقسو، مما انتج ثقافة تعمل على توفير سبل الحياة بشكل يوفر لأفراد المجتمع ما أمكن من حاجاتهم المعيشية ، وكذا طرق الحصول عليها فكانت ثقافة أهل الصحراء تعتمد على الزراعة بطرق بدائية ووسائل تقليدية تنعكس عليها كل المستويات " لأن ثقافة كل مجتمع تتأثر بالخبرات و الظروف البيئية (الجغرافية و الطبيعية) ، وكذلك بالأوضاع الاجتماعية المحيطة بالمجتمع ، لذا فثقافة البدو مخالفة لثقافة الحضري " (1) .

لقد تميزت سيرة "صاحبنا" بالطابع الجماعي للحياة في هذه المدن الصغيرة المعزولة ، فلم تكن هناك حياة فردية خاصة ... وكل شيء في أفراد كان معروفا " فلم يكن هناك مايتميز به شخص معين ، الكل يسير في مسار مرجعي ، وما تمليه العادات التي تكررت ونمت وثوارتها الأجيال،في ظل الأشغال المعروفة (الاحتطاب).

" فالناس فيها مذاهب " ولكن مذاهب الناس في هذه الأمور كما في غيرها ليست مجرد رغبات ذاتية أو ميزاجية ، بل هي أساسا ثقافات ، ويظهر أن البيئة وخصوصياتها الطبيعية و الأقتصادية هي التي تقرر في المنطقة "(2)،مما ينعكس على خصوصيات أهل الصحراء ، سواء في طبيعة الغذاء ومستوى الحياة ، العادات والتقاليد التي تجسد في مجموعها مرجعية أهل " فجيع" .

وتعتبر الأسرة الوسيط الأول بين الفرد و المجتمع الذي يعيش فيه ، فهي التي تكسبه اجتماعيته ، فتخلصه من ميول العزلة و أحادية المكان ، كما تشرف على سلوكه وتوجيهه وتلقن لغتها ودينها ، وتقوده على الأخذ بما تقضي به عاداتها وتقاليدها ،تلك النشأة الاجتماعية التي تفرض على الفرد معايير وقيم وثقافة .

---

(1) أحمد آفت عبد الجواد : مبادئ علم الاجتماع ،مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة، ص 85

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 113

إذا كان المجتمع الذي عاش فيه " صاحبنا" تميز التعاون قصد الوصول إلى هدف مشترك " فالطالب الذي يجد في دراسته يحقق تفوقا شخصيا ،إن هذا التفوق يشبه زملائه الآخرين للتنافس معه فيتقدمون علميا أيضا ، وبالتالي يحين المجتمع كله من تفوقهم علميا لأنهم سيشغلون مناصب مختلفة في الدولة " (1) ، فحال الفرد في هذا المجتمع الذي ينادي بوصل طريق يوصل إلى بيته مثلا ، "إنما يحقق مصلحة الآخرين الذين يستخدمون هذا الطريق إلى سبيل المثــال (التوفيرة) العمل الجماعي التطوعي "(2) .

و في ظل السائد ، لم تظهر الذات في " الحفريات" على السطح ، لكنها أخذت من كل بستان شوكة ، ولم تكن في كل الأحداث كذات فاعلة ، إلا أنها تحملت بموضوعيتها الفكرية كل ما يتعلق بالعام ، حتى أنها انطلقت من الظاهرفي المجتمع ، من سلوكات أفراده ،ومستواهم المعيشي وما يطبع المكان ، معتبرا ذلك كنتيجة لما هو مضمر في الفكر و النفس ، ومن هنا تظهر علاقة الوعي بما هو ظاهر مع المضمر الذي يمثل اللاوعي ، و اللاوعي هو الجذر الأصلي و القاعدة التي تتحكم في طبيعة جوهر السلوك.

---

(1) أحمد آفت عبد الجواد : مبادئ علم الإجتماع ،ص 92

(2) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 38

فلا يمكن أن نفصل بين الذات في طفولتها و الحقول الثقافية ، إن تغير هذه الحقول الثقافية في الوعي كائنة في الإبداع ذاته وملتحمة في المظهر اللساني و الدلالي ، لذلك فلاحاجة إلى إقامة مقارنة أو مناظرة بين ماضي الشخصية و حاضرها ،الذي يعتبر كماضي للمستقبل ، يمكن أن تكون وضعية "الجابري" حاضرة بفكره النقدي للعقل العربي و الاجتماعي وميله إلى الأصالة خوفا أن يكون العصر بدونها ، كحالة الحاج محمد فرج في زمنه ، وخاصة عندما نتحدث عن علاقة الدليل اللغوي بالمدلول الاجتماعي ، فالمدلول لايحمل الواقع، ولكنه يجسد الظواهر، التي نستنتجها بقراءة كاملة لأن الحكم على الذات أو الواقع لا يكون من سلوك أو حدث، "فكل ماهو حاضر يملك مرجعا يحيلنا إلى شيء ما في الماضي ، وهو في نفس الوقت بمثابة دليل ، فعندما نتعامل مع النص كمجموعة من الدلالات في نفس الوقت نتعامل مباشرة مع الواقع الاجتماعي والثقافي و الايديولوجي ، لأن السيرة الذاتية هي واقع أيضا" (1) .

ولعل أهم ميزة للجابري ميله إلى المرح و اللعب،لأن الظروف تشجع الأطفال على ممارسة ألعاب تعكس طبيعة ومستوى البيئة ، مقدر كان ميالا إلى القراءة التي تولدت له من القصص و الحكايات التي كان يسمعها ، فتركت له آثارا استحالت إلى معرفة تولد منها الخيال الذي جعله يعيش مغامرات من أجل هوايته ، حتى أدى به المسار إلى خارج المغرب (مصر ودمشق)، "أين انفتح على العالم الخارجي الذي اكتشف فيه شخصيته بإحداث التوازن وتعويض النقص في تكوينه الفكري وقراءته لكتاب (ضع القلق وإبدأ الحياة)، وأخذ يقرأه حتى تشبع بالطريقة التي يقترحها المؤلف لحل المشاكل "(2).

إن صاحب "الحفريات" قد سرد بطريقته الخاصة لما يمكن التعبير عنه بالسيرة الذاتية مركزا على تطور وعيه كفرد في ظل ظروف محدودة ، تكونت فيها آناه من لحظة الولادة ،كما حافظ على فطرته رغم انفصاله عن الأم، وسع نطاق البنية الاجتماعية ، إلى لحظة الاندماج مع الأقران إلى لحظة الإتصال مع العالم الخارجي ، الذي كان في البداية على مستوى الوهم الذي تمثل في (الدبيش) ، ثم على مستوى الواقعي بالسفر إلى مدينة بوعرفة ثم وجدة ثم الدار البيضاء ومصر، "فكأن حياته بحث عن قيم أصيلة داخل مجتمع مستلب ، ولا يعي بوجود هذه القيم إلا ح ينما يكتسب "صاحبنا" وعيا بإنهزامه الخاص الذي يقره"(3) .

---

(1) الدكتور حميد لحميداني : النقد الروائي و الايديولوجي ،من سوسيولوجية الرواية إلى سوسيولوجية النص الروائي، المركز الثقافي العربي بيروت ط1 ص 49

(2) أنظر محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 145

(3) أنظر د محمد ساري : الأدب والمجتمع ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ،200 ص 41

"فإن الأفراد في التصور الوظيفي يستجبون لمتطلبات مجتمعاتهم ويجدون مكانهم في إطار النظام الاجتماعي العام ، وهم يتجهون إلى الإرتباط بذلك الوضع الذي يحدده المجتمع لهم "(1) ، يجعل العلاقة بين اللفرد و المجتمع علاقة يمكن أن تكون اعتباطية متبادلة ، وهذا مايتجلى في تطور الذات بعد علاقة التأثر تقوم الذات بدورها ولكن دون تحرر وفق مبدأ المماثلة العضوية ، و التي تطبع المجتمع بطبعها .

ما دام أن المجتمع يماثل الكائن العضوي ، فهو مكون من أعضاء أو عناصر أو أنساق فرعية متقاطعة و متداخلة معتمدة بعضها على بعض في التوازن و التناغم ، إلا أن هذا يعني ما يبقي المجتمعات تدور في حلقة مفرغة بوجود مايسمى السلطة التي تملك الأشياء وتكبح الإرادة وتقتل الإبداع الذي يخصع له التغيير و التجديد، قد صار الذي أدرك بالبصر مستغنى عن الخبر، ومن أدرك الجوهر بالبصيرة استغنى عن النظر "(2)

فالجابري تراه يفصل الحقيقة على هذا النحو ، بحكم أنه شاهد على زمان طفولته ، فالذات كشاهد بوعيه عن الجماعة في حديثها عن نفسها بفيض فكري و نسيج نفسي وفراغ عاطفي ، الذي يعد الدافع الأساسي وراء عمله ، مركزا في ذلك على مظاهر الآخر في كل المستويات و في كل مرحلة ، بمبدأ الخصوصية الاجتماعية و التاريخية ، ومن ضمنها الخصائص القومية العربية الاسلامية ، معتمدا في ذلك على استغلال الشخصيات التي تجاوزت أطر المكان أحيانا وخاصة في حديثه عن جده الذي سافر إلى الجزائر في سياق ثقافي بشعار ـ جمعية العلماء المسلمين ـ الذي يوحي بالكثير كبعد التاريخي و الوحدة و المنهج و المصير و الإتحاد في ظل تواجد الإستعمار ، إلا قليلا ما كان يربط ذلك بالشخصية ، إلا بعد سفره التكويني الذي تحد به خناق المستعمر، سواء كان ذلك من بعيد أو من قريب ، فهذه اللحظة الرمزية تعكس وعيا يوحي بحقائق التطابق الفكري و الثقافي و التكامل الجغرافي في ظل تواجد الآخر .

إن الكاتب يخلق في نصه صورة عن نفسه وصورة أخرى عن الآخر ، فهو يضعه كما يضع نفسه ،وبهذا يمكن اكتشاف بعدين متفاعلين يعانق أحدهما الآخر ، بعد ذاتي يتعلق بالمبدع نفسه (الذات) الذي ركز فيه عن الآخر بعناصره في حياة الفرد والجماعة، وعناصر البيئة المتنوعة ، التي كان لها الاثر العميق في تعميق الهوة بين الأمكنة و المناطق ، من حيث الطبقية و الثقافة ، فما بالك فيما بين الأقطار العربية ، التي لا يوحدها إلا كلمة " العربية" .

---

(1) محمود عودة : اسس علم الاجتماع كلية الادب ، جامعة الشمس ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ص 92

(2) شوقي ضيف : الترجمة الشخصية لفنون الادب العربي ، الفن الشخصي ، دار المعارف ط4 ص 65

ب) ـ الضبط الأجتماعى :

المجتمع التقليدي متواجد نحو الماضي ، يضع العرف كقاعدة للسلوك ، و الفرد كائن تتحكم به التقاليد وتقيد كل حركة تنبذ الجديد نحو التطلع، فعنصر القهر واضح تماما في المجتمع التقليدي الذي يمتلك أبناءه و يلغي مبادراتهم ، ولذلك فإن حالة التوتر الداخلي شائعة في البنية الاجتماعية التي تتحكم فيها التقاليد ، رغم ما يتحمل في ذاتيتها من صراخ ورغبة في التمرد وكسر القيود، لدرجة أن الحياة الزوجية التي كانت مكمن الأسرار ، كان كل من الزوجين يتجنب إظهار الإهتمام بالآخر، ولم يكن أحدهما يسأل الآخر أو يناديه باسمه ، "فإذا سأل الرجل زوجته أمام أهله ، ذكر اسمها كاملا ، فلانة الفلانية أوبنت فلان كان يقيم دليلا على أنه مازال ابن أمه وأبيه ، وأن زوجته مازالت تتحدد هويتها عنده بأبيها ونسبه "(1) .

" فكلما ازداد الشعور بالقوة عند الكائن الحي تراه يميل إلى الفردية و الاستقلال وعلى عكس نجد الكائنات المهددة بيولوجيا تميل إلى التجمع بمقدار التهديد الذي تتعرض له من آفات طبيعية أو من الكائنات العدوة "(2) ، أشهرها الجماعات المغلقة و الأسر الكبيرة التملكية ، تميز بها المجتمع المغربي، حيث هناك أفراد في اعطاء القمية للجماعة داخل الأسرة على حساب الأفراد في الجماعات الخارجية ، كما كانت جدته لأبيه تتحكم في مسيرة الأسرة بقدر حاجتها لتجنب قلق الانفصال ، أدى بجدته إلى رفض الدخيل حد الذوبان الكلي في الجماعة ، لدرجة أنها افتقدت الاستقلالية و الهوية الذاتية من شدة حرصها كل الحرص على إبنها من خلال العناية المفرطة منذ ولادته واشرافها على تسميته " لقد كانت من تلك النساء اللائي يفهمن الدليل ... على انهن صاحبات الامر و النهي يزوجن ابناءهن من يرتضين من النساء ويطلقن متى شئن وبدون اعتبار راى ازواجهن ... فكانت هذه وجنينها هما الضحية "(3) .

ومن أجل ترسيخ العرف الشائع الذي يخدم مصالحهم(الأباء) ، "يعززون سطوة التقاليد من خلال آيات و أحاديث لا مجال للشك فيها ، وإلا تعرض إيمان الانسان المغبون للخطر"(4) .

---

(1) انظر محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 68

(2) مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ، مدخل سيكولوجية الانسان ، المفهور المركز الثقافي العربي ط 9 2005 ص 112

(3) محمد عابد الجابري : ص

(4) مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ، مدخل سيكولوجية الانسان، المركز الثقافي العربي ط9 ص 105

فلم يكن من الممكن الاعتـراض علـى قرار الأمهات في هذا الشأن ... فلقد كـــان أقصـــى عقـاب ينـــال الشخـــص" سخط الوالدين " (1)، ما تفسره بالحب التملكي فلام تحب أبناءها وترعاهم بشكل تملكي ، شريطة أن تفرض سيطرة خفية عليهم ، "ومن خصائص الحب التملكي الشامل في كل شيء ماعدا الرغبة في الاستقلال و التوجه نحو التفرد ... إنها العقوق و الخيانة "(2) ،وهذا ما جعل وجود الأفراد اشكالين، بمقدار ما يبقى فكرهم سلوكهم تحت هيمنة قيم كيفية كحكم بدون حكمة ، وخاصة إذا أصبح الدين موروثا غير مكتسب بوعي و قناعة و فهم .

استعان الجابري في نصه بالمخزون الثقافي كوسيلة للحكم على طبيعة الأحداث بعودته التاريخية بحكم الظروف ، فقد وجد فيض في الغيض الذي جعل منه نواة تشكلت، كأنه يعيد قراءة المجتمع سلوكيا وفكريا قصد تأسيس فكرة يؤمن بكيان المرأة عبر كل مراحل حياتها، و الذي يجعل منها امرأة لا أنثى ، الذي لا يحاصر الفتاة و حرمانها من التعليم تحت سلطة ذكورية متسلطة بحكم العادات و التقاليد البالية التي تحكم المجتمع (التقليد الأعمى) الذي يبتعد عن الهوية التي لا وجود لها إلا بالدين .

هذا ما يمثل حالة الأم التي جعلت منها قطعة لحم في أيدي المجانين ، "لأن القانون يمجد رضوخ المرأة واستعبادها ليس استغلالا ككائن مقهور، بل هما طبيعة المرأة ذاتها و بالتالي هو أمر طبيعي عليها أن تقبله كخاصة أساسية من خصائصها كيانها البيولوجي" (3) .

إن نظرة الجابري لـ "الصاحب "الذات الطفولية مشيرا بذكرياتها إشارة على الزمان و المكان ، هناك بالأمس في ذاك الوصل تثاقلت الأرجل ، في أسفل الجبل كنا وليس على قمته قد أقمنا ، بالأرجل تسير لا بالأجنحة تطير ، فقد غيبت العصبية نصف المجتمع (المرأة) ، فإلى متى الوصول ، فحالة المرأة من واقع " أمه " التي لم تفهم معنى الحرية ولم تعشقها ، بل كانت وسيلة لا غاية ، لم نجد من يبرر وجودها إلى مولودها "صاحبنا " ولم يكن لها شعور ولا دليل على ذلك ...الذي يفترض أن يكون مرتبط بالفعل حتى يكسبها فعل حر " فهي أصلا لا تشكو حتى ولو بلغ المصاب ما بلغ ...حتى أنها توفيت بسبب مرض يسكن الأجسام بسبب معاناة النفوس "(4) .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 68

(2) مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ، مدخل سيكولوجية الانسان ، المفهور المركز الثقافي العربي ط 9 2005 ص 115

(3) نفس المرجع : ص105

(4) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 135

نظرا لما كانت تعيشه في حياتها الزوجية ومحطات الطلاق و الأمراض الناتجة عن المخزون النفسي ، الذي بلغ منها مبلغ السم في السويداء ، فكل الشخصيات حاضرة بلسانها وأفعالها إلا " أمه " التي ناب عنها فيما يثير الانفعال و الحسرة ، سواء فيما مضى أو في الانفعال البعدي ، فالذات المتمفصلة بين الماضي و الحاضر جعلها تنظر إلى أمه كونها امرأة بائسة في زوجته ليعوض ما فات أمه في زوجته ، كما نظرا إلى نفسه في أبنائه " فقد كان مدفوع برغبة لا شعورية ليحقق لأولاده وأمهم ما فقدته أمه وكان يفتقده معها في أن يكون معا بحضور والديه " (1) .

فقد كان الشعور بالقلق ميزة حكم عليها بالدوام عبر السنين و الأعوام في إحساسه و برغبته في أن تكون أمه معه ليقوم إزاءها ما يجب ، بل يريد أن يعوض لها تلك السنوات " ولكن لا يشيء يضمن أن الرياح كانت ستجري بما تشتهيه ذكرياته في وضعها الحاضر" (2) .

فهذه الفترة التي تعمد كتابتها الجابري وهو يتحدث عن ذاته لا من أجلها هي النظرة الخاطئة التي كانت تعم المجتمع ، وخاصة في تعامله مع المرأة كوسيلة لا كزوجة أو بصفة حرمانها من حقها في التعليم ، فهي جاهلة لاشيء إلا أن فاقد الشيء لايعطيه ، لعل ذلك خروج عن المألوف وابتعاد عن العرف ويجلب العار، فمجرد الكلام في المرأة اعتداء على الشرف ، فبئس العادة عادة الجاهلية " فقد كانت أمه تتحدث إلى السماء أن يكون ما في بطنها ذكر ، ليس فقط لكونها ترغب كما يرغب الناس عادة المولود الذكر، بل لكونها تعرف أن حظوظها من الطلاق " (4) ، عسى أن يشفع لها من البيئة التي نشأت فيها ، فماذا لوكان المولود بنتا ، وإن يكن فما ذنبها ؟ ، لأن مصيرها معلوم .

فلم يبقى الأمر لغزا، حتما سيكون حالها الحرمان من أدنى أن تدنو إلى أبواب المدرسة أو تحمل قلم وتكتب ما كتبه ، وإن كتبت ، فالكتابة لا يمكن أن تتخذ مسارا آخر في مضمونها وجوهر موضوعها ، إلا إذا امتدت آثار التحديث إلى المراة التي كان محكوما عليها بالأمية المطلقة .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 138,137

(2) نفس المصدر : ص 170

(3) القرآن الكريم : سورة البقرة الآية

(4) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 138

إذ لم يكن هناك من قبل أي مجال لتعليمها ، فالكتاتيب القرآنية كانت مسدودة في وجهها حتى نظمت دروس " محاربة الأمية "(1) ، وكان ذلك بعد التخلي عن المعتقدات المرتبطة بالطرقية وسلوكياتها ، و في الإعتقاد في الخرفات و الجن ، وتحرر الدين والشريعة من البدع و الطقوس التي ليست من جوهره ولا من سنته"(2)

إن الإنسان كائن ذو أبعاد هو يخضع إلى أمور ونواهي ، تختلف من مجتمع إلى آخر ويتطابق مع كل عصر حسب الزمان و المكان ، فلكل مجتمع أخلاقه الخاصة به ، ولا وجود لأخلاق مطلقة لا تتغير و لا تختلف بإختلاف الزمان و المكان ، فإذا حاولنا دراسة السلوك الفردية ، حسبك هذا النص " حفريات " ، وخاصة من منظور واقع المرأة ، فإن الواقع يكشف عن وضع مزري لا انساني تتخبط فيه المرأة، وكلها نابعة من ظروف اجتماعية قاهرة " فهناك احصائيات تدل عن حالات الضياع و التشرد و الفساد الأخلاقي ، إذا ما أرجعنا إلى المرأة ، وهي السبب و النتيجة في تدمير المجتمع ، قد يكون انتقاما أو يكون هروبا من واقعها المر"(3)، وهذا يلخص حياة جدته في الحاضر منتقمة من أمه التى ترى فيها الدخيل .

" فالفكر البعيد الأشواط و الرؤى ، وهو الذي يجعل الانسان يتمرد على غيره ويكشف عيوبه ، وترى من بعيد مزايا نقيضه الذي لم يوجد، أو نقيضه الموجود عند الآخرين ، لأن مثل هذا الفكر القوي النظرات هو الذي يقدر على معرفة الفرق بين الشيء الموجود و الشيء المنتظر"(4)، و عليه فلا يمكن أن يكون الأدب مجرد من الفكرة ، لأنه لم يكتفي بطرح المظاهر و السكوت عن الحضور ، و إنما الحقيقة من التشخيص معالجتها في سياق الطرح أو التنبيه إليها، لأن الأدب لا يخدم نفسه لكونه فن ، بل يفتح المجال لسائر العلوم الأخرى التي طالما استفادت منه .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص 86

(2) نفس المرجع ص 79

(3) انظر بنور عائشة بنت المعمورة : قراءات سيكولوجية في روايات وقصص عربية (رؤية وانطباعات) منشورات الخير ص 107

(4) عبد الله القصيمي : هكذا الكون ما ضميره،مؤسسة الإنتشار العربي، لبنان ـبيروت ،ط2 ،2001،ص 11

فالجابري في هذا السياق ، يثير نقطة العدائية عند من يصل أولا إلى القمة ، بحكم أنه مر بمرحلة يريد فرضها على من يريد الوصول من بعده ، فهذه السلوكات هي التي تورث و تظهر كردود أفعال متبادلة بين الافراد ، فتكون الاستمرارية نحو مجتمع أسوأ من سابقه ، ومن يدري لو طال عمر أمه بتلك الصفة الجافة ، تحنو على غبنها و تشق على غيرها ، لذا قد عمل على بتر تلك الردود بتفادي الأسباب ، وذلك فيما كان يقوم به مع زوجته و أبنائه .

فالكاتب في الحفريات " قد صادق المستقبل الأفضل ، ويريده ويفصله على الماضي الذي ظهر على حقيقته في الحاضر الذي يثير دوافع التحرر ، فالمرأة واجهت معضلة ايجاد نفسها ، و ليس في الوجود من ينوب عنها في ذلك ، فالكتابة عن ذاتها في السياق الاجتماعي شيىء محرم ، و في السياق العلمي شيىء مبتور، لأن ذلك يعتبر خروج عن المألوف وشغلا لمجال لم يكن مسموحا للمرأة أن تشغله ، كي تعلن حالتها عبر التاريخ ، لأنها في موقف يعكس وعيا ما ، مثيرة قضاياها الخاصة مثلما وجدنا عليه الكتابة النسوية ،" ليلى أبو زيد " في " رجوع إلى الطفولة " ، فماذا لو كتبت "أمه" سيرتها الذاتية بمشاعرها التي عاشتها ، و ما طبيعة انتاجها ، حتما ستكون نموذجا يصمعنا صوت القوارير على الصخور.

الصراع:

"أقدم أنواع الفكر الاجتماعي هو الفكر الصراعي وأكثرهم حيوية وتأثيرا بالمحيط الاجتماعي ، لذلك نجد تطورات فكرية طرات عليه بين فترة و أخرى، قد انطوى على أن كل نظام اجتماعي يكون متوازيا في لحظة معينة ومختلا في لحظة أخرى ، بسبب تأثره بعوامل التغيير المرهون بالبيئة الاجتماعية التي نشأ فيها ، وكذا النظام السياسي الذي يسود المجتمع و الفكر الايديولوجي الذي يظهر بين الثابت و المتغير ، إلى جانب المرحلة التاريخية التي يعيشها المجتمع" (1) ، مما يثير صورا عديدة للصراعات الاجتماعية ، تبدا من الصراعات الجزئية ، بين الافراد و تنتهي بالصراعات الكونية العالمية .

فإن رأينا الذات تتفحص حاضرها ، فذلك لأنه حصيلة ماضيها ، فالحاضر واقع لابد منه ليظفر بحس مستقبلي ، فالحوار في هذا المحور هو نظام العلاقات فيه بين " الماضي" و المستقبل ، أما الحاضر فغير حاضر، ليس لأنه مرفوض " بل أيضا حضور الماضي في الذات قوي إلى درجة التي جعلته يمتد إلى المستقبل ويحتويه تعويضا عن الحاضر وتأكيدا للذات وردا للاعتبارها ، وفق ماهو ومعترف به من طرف الجميع "(2) لأن حقيقة الحاضرهي لحظة زمنية تظهر لتأخذ من المستقبل و تنقضي لتقدم للماضي بحكم السيرورة الزمنية التي تجعل الحياة في الماضي لا في غيره

"فعلماء على إختلاف مشاربهم ومناهجهم ، كثيرا ما يتفقون حول أهمية الماضي ودوره في بناء الشخصية "(3) و المتعين من ذلك كله ، هو انطلاق الذات مجددا نحو بداية ما ، أساسها ما هو مكتسب لتدرك ما هو آت ،" فالجابري" يشكل حوار بين الماضي و المستقبل الذي أوجد فيه قطيعة تمتدة الطرف إلى زمن تجاوزت به الذات زمنها الواقعي إلى زمن ما قبل وجودها (التراث) ، الذي بموجبه عاشت الصراع، رافضةعلاقة التبادل المستمر في التأثير و التأثر، مما يؤثـر على علاقتهما وتنظيمهما وأهدافهما ودرجة تمسك و تكامل كل منهما ،جعل الذات في جدلية التواصل مع مستجدات الحاضر، بناءا على المفاهيم و المواقف المستقاة من الواقع الاجتماعي و الثقافي و الفكري ، لماذا؟ لأنها عادت إلى الوراء لتنظر إلى ما بعد الحاضر .

---

(1) معن خليل اعمر : نقد الفكر الاجتماعي المعاصر ، دراسة تحليلية ونقدية ، دار المعارف الجديدة ، بيروت ط 1 82 ص 11

(2) محمد عابد الجايري : الفن و التراث قراءة في تراثنا الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ط06 ،1993 ص 12

(3) البشير بويحرة محمد : بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري ، جماليات واشكاليات ص 88

قد يتحكم في معنى الصراع السياقات التي تثير أطراف متنازعة في من له السلطة فيمكن أن يكون صراع داخلي تحتكم النفس مع الضمير ، أو يكون صراع خارجي يتمثل في الصراع الطبقي أو الفكري .

بعد دراسة عدد من السير الذاتية المغربية بصفة خاصة ، نجد الصراع الداخلي في معظمها قد جاء بسبب الضغوطات التي يعيشها الفرد المغربي في ظل الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية الصعبة ،التي فرضت على هذا الشعب بسبب تواجد الاحتلال الذي ألقى بظلاله الثقيلة وأعبائه الوخيمة في زمن خلد النقائض والأمراض ، منها جسدية ونفسية التي ماكان ليعرضها لولا حياة الظلم و القهر، بوجود عش تتكاثر فيه الأزمات التي تشكل جدران الآخر نحو الاحساس بالتحرر.

فهذا الجابري يتحدث عما كان ينازعه في تحديد الإنتماء بعد طلاق أمه من أبيه ، صراع بين العاطفة و الفكر " إن صاحبنا كان ذو سلوك غريب ... كان ألوفا يكره مغادرة منزل أهله لأمه ، وفي نفس الوقت يمانع في العودة إليه عندما يكون في منزل أهله لأبيه " (1) ، كان يستأنس بالمكان أم يألفه ، فهذا أصل يمكن أن نفسر به الصراع القبلي القائم على معطيات العامل المادي للسلطة بين " آل جابر " وأهل عمر " زناكة " الذين كانوا عبيدا لآل جابر "، ولدوا شعورا انسانيا وتركيبا خاصا للمجتمع ، جعله في قسمين رئيسيين ، الأول مالك للإنتاج ووسائله و الثاني فاقد لهما ، ومن هنا يكمن تكوين الصراع الطبقي بأنه يحدث فجاة ، " فلم يكن لأرملة سوى طفل واحد فعز عليها أن تقدمه قربانا لآل جابر " فتهب رجال " قصر زنـــاكة لنجـــدتها ، قتلـــوا منهم واقتادوا الباقين ووزعوهم على بقية القصور"(2).

يتحدد الصراع الداخلي بشكل واضح في زواج أبيه ممن أخذت مكان أمه، فولد فيه صراع ، تمثل في الحوار" همس النفوس " ، يعكس حالة نفسية ،حتى أنه لم يعلم بذلك حتى انتابه خوف من وعلى أبيه حين تزوج من امرأة أخرى ، لأن ذلك قد أثار في نفسه ما كان له صدى عند ابتعاده عن أمه " وأمه مطلقة منه " (3)،إلى جانب ان أمه تزوجت من رجل آخر ، و بالتالي هو القلق الذي يولد الكبت القوي الذي لم يعبر عنه في أحضان أخرى للحفاظ على التوازن السلوكي الاجتماعي ، الذي فجره في السعي وراء ما يوسع الفكرإن كان القلب قد ضاق ، ولايزال في غيض حتى أدرك أن الزواج خارج الفجيج ومن امرأة من غيرأهل الفجيج ، كان من الأمور التي لايقدم عليها إلا المتهورين.

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 34

(2) نفس المصدر : ص43

(3) أنظر نفس المصدر : ص 122

يصل الصراع لديه إلى درجة تجعلنا نرى بأن نفسه تنقسم إلى قسمين ، الأولى واقعية تحيا حياة عادية و خاصة فيما يوازي حقيقة الذات ، والثانية تعيش خارج إطار إرادتها ، لا يعرف كيف يواجهها أو يممضي فيها زمنه، فأحيانا كانت الشخصيتان تتواجدان وتنصهران في بوتقة واحدة ، فكان أيامها في مدرسة التهذيب "بوجدة" في سن المراهقة وهو يتحدى قوانين المدرسة و يتجاوزحدود المألوف ، وعن هذه المرحلة وفي سنه كشاب طموح مولع بالحياة و الجمال و التمرد ، في معاكسة البنات ، وكانت ستجره تلك السلوكات إلى الهاوية ، وبعد صراع طويل ظهرت صحوة الضميرو انقلب التمرد من على النفس، إنه حديث الضمير للنفس ، فكان رشده في معصيتها و في مواقف عديدة

إن الحقيقة لا يمكن طمسها ، فأمام الناس دائما ألف سبيل للتعرف عليها ، وهذا سبيل لإدراك حقيقة الذات التي عاشت في هذا الموقف في ظل حريتها وتواجد سلطة الآخر (المدير) ، ومازاد في الذات ضعفا ، "فقد كان عم صاحبنا قد تعرف على والد هذه الفتاة " (1) و الثاني خارجها ، والثالث "الذي يفسر التصور الدوري للزمن لدى اليونان أي أن مايحدث مرة أخرى و لو بشكل جديد "(2) ، يجعل بعض المشاهد مشابهة لحد المماثلة ، كانت فتاة دمشق بفتاة وجدة وهذا التماثل في جانب الوجداني " إنه ما كان صاحبنا يشعر بوجود شيء يمنعه من الكلام إلا أن الطرف الآخر لايملك تلك الحرية "(3) ولم يعش بعدها إلا في أحلام يتجاوز بها الحواجز ليجد نفسه حرا طليقا لينفر من الواقع المكبل ثم يستفيق " مافيش فائدة "(4) .

فهذا صاحبنا عن الضغوطات التي جابهته في رحلة من مراحل تعلمه، من حيث طبيعة العلم في المناهج ، والظروف القاسية التي تعكس صداع الحالة الاقتصادية لعائلته التي عانت الفقر و الحاجة واصطدام بالواقع المرير " إذ توقفت الدراسة في المدرسة المحمدية وانقطع حبلنا بصاحبنا ... كانت أياما صعبة التي قضاها ،عان منها كما يعاني الإنسان من أزمة حادة نفسية وفكرية هي مشكلة فيما تنبىء به الأيام ، هل يترك الدراسة نهائيا ويتفرغ لميدان التجارة و المال أم أنه يترك التجارة ليتفرغ للدراسة ، فهذا لم يتوقف إلا على ميوله الذي لا يخلوا من المشاكل " أين وكيف " ؟(5) ، مما يعكس حدة القلق الذي يحكي في كثير من الحوارات الداخلية .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 133

(2) نفس المصدر : ص134

(3) نفس المصدر : ص 162

(4) نفس المصدر : ص 164

(5) نفس المصدر : ص 145

كان يعيش كل اظطرابات "أمه" في باطنه ، نتيجة صغط العادات و التقاليد وسطوة الأم (الجدة) المبنية على طبيعة النظام الأسري ، الذي يعكس من جانبه تواجد الآخر قصد الشعور بالأمن و الإتحاد ، إلى جانب ميوله إلى العلم و الدراسة ، إنه عاش نوعا من الإغتراب في سفره إلى الدول الأخرى التي تعكس صراعات في الوضع المخالف للمعتاد من حيث العادات و المأكل وطبيعة الثقافة التي تعكسها الأحياء وما تحمله من سمات توحي بالمستوى الحضاري المنفتح، كأنه في هذا العالم دخيـــل ، وفي عدم التطابق زمن نفسي قاهر " كانت المرحلة إليه طويلة طول الدهر كله ... بسبب غياب الأرض بالمعنى الذي يرسم حضورا مليئا بالحياة و الثبات و الرضا "(1)، فأين الذات من دون ذلك في غير الأرض ؟ إنها في ذلك مرغمة لا بطلة .

قد بدأ الجابري من حيث المادة التاريخية الضرورية للحفر، ولا ينبغي ونحن نتحدث عن موقف الذات أن نشير إلى ما شهد به عصر الطفولة وعهد الكتابة من حيث المقولات الدينية و السياسية وما تحمله من تناقضات و صراعات فكرية حادة بين القوى الاجتماعية استنفذت دورها التاريخي ، ومنها تولدت قضايا أخرى تسعى إلى تثبيت قيمها الجديدة وإدارة دفة التطور الاجتماعي في الإتجاه الذي تريده .

فقد كان طرف الزمان في السيرة الذاتية استجابة وقلق وصراع وتحول ، وكان ذلك خليقا بأن يستفز ذهن الجابري ، إذ دفعه إلى إعادة النظر في النسق الذي تقوم عليه العلاقات الانسانية ، و في النظم السياسية و المعتقدات الدينية ، وتأمل التجربة الإنسانية بمختلف ابعادها ، فوضعت الذات بكل أشواقها وطموحاتها وهمومها ومخاوفها في صميم التجربة الوجودية القريبة من الواقع اليومي المباشر، وكذا معالجة قضايا الناس على إختلاف مذاهبهم وانحدارهم وعلاقتها بالذات التي تعكس حقيقة الهوية و الإنتماء .

ومن الأساسيات هي اثبات الذات بفكرة التجاوز، أي"خروج المرء عن ذاته" و تعد هذه الفكرة من أهم سمات الوجود الأصيل الذي يحس بالقلق في تعامله مع الآخرين ، لأن هؤولاء الآخرين يفرضون عليه انتماءاتهم و تصوراتهم ، مما يؤدي إلى فقدان الحرية و السير مع معطيات إرادة أخرى ، و أن استعادته لبعض إرادته تسمح له بالخروج عن ذاته ،"فهنا تحدث ظاهرة مأسوية بين الرغبة في الحرية الرغبة في التعامل مع الآخرين ، ولا يتم الحساب إلا من خلال الحوار الذي يعد جوهرا في الوجود الأصيل لأنه يتعلق بالآخر"(2) .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 161

(2) أنظر حسين حمزة الحيوري : الكينونة في الشعر العربي المعاصر ، دراسات ، مجلة نزوى ، العدد 62، أفريل 2010 ص70

تقنيات الكتابة في السيرة الذاتية :

أ) ـ اللغة:

"إن تجربة الكتابة مرتبطة بالحياة و الظروف الاجتماعية السياسية، تم تمثلها في الفكر و النفس ، ويأتي دور المعاناة في اكتساب التجربة و ملامحها ، فيبحث الكاتب عن اللغة التي تجسمها ثم عن الطورة التي تشخصها "(1) ، ومن الملاحظ أن "الجابري" قوي الاحساس بالصراع القائم بين الذات و الوجود والحياة ، وبالوعي المستمر بالتناقضات في داخل الذات و علاقتها بما هو خارجها، يدفعه إلى ادراك التماثل في وسيلة التعبير بين ما يتوافق مع طبيعة الموضوع من أشكال و صيغ في البناء الذي تتعدد وفقه الفنون .

فتطبيع الورق أهون من تطويع اللغة ، ولكن على أي معنى تريد أن تحصل ؟ لم يبق نص "الحفريات" في وحدة مغلقة ، وإنما هو الآن مفتوح على كل القراءات ، مما يجعل حقائق الأحاث بين الكائن و الممكن ، و إن اللقاء الذي يتم بين الأقوال والمعاني التي يحيل إليها و التي يمكن ترجمتها ، تنم عن سياق فكري ، تاريخي واجتماعي ، فقد تظهر الذات بأبعاد أقصت الخاص و مجدت العام ، ذلك ما اكسبها بعدا انسانيا و في طرح موضوعي ،و لم تكن لها خصوصية إلا في صيغة الطرح " إنه نص بياني يعرض ذكريات شخصية ، ويتغذى من مخزون ثقافي معين ، و يوظف الصورة و الإشارة و التلميح و الرمز"(2) .

و في هذا السياق يفرض علينا العودة إلى مركزية الذات من اللغة ، و على الخصوص في مثل هذا الجنس(السيرة الذاتية) ، و بالتالي عن ذاتية المؤلف فيه بدء من الامدادات الفكرية و النفسية حتى بروز المقابل الاجتماعي الذي يعمق الصلة بين الملامح الذاتية ، الظاهر منها و المضمر خدمة لأهداف و توجهات فكرية .

فإن القوة الطاغية للحظة واحدة تولد أحداثا لا يتضح معناها إلا عند امتداد الزمن الذي يسمح النص أن يكون في مساره المستقيم ، مشكلا قوة مصحوبة بمعرفة ، مما يجعل حركة الوصف توقف للبيانات اللغوية التي يسير وفقها الزمن ،حتى يبرز صلة المضمون باللغة التي تأخذ أشكالا خدمة للجنس ، و المهم هو الوضوح الذي تكون عليه (ذاتية) النص ، هو محك هذا التأويل .

---

(1) عبد الحميد يونس ـ فتحي حسين المصري :في الادب المغربي المعاصر ، مكتبة الدراسات الادبية ، دار المعارفط1 ،ص108

(2) الجابري محمد عابد: حفريات في الذاكرة من بعيد ،ص09

إن هذه الذاتية يجب أن تبين أحوالها ، ليس من وجهة نفسية أو اجتماعية تتعلق بطباع المؤلف و ظروفه ، و إنما كذلك من وجهة ألسنية هي (التعبيرية اللغوية) ، " إذ اللغة في الأساس شيئ ذاتي ، شخصي"(1) .

وفي محاولة لإعطاء معنى لمعطيات الذاكرة ، اعتمد الجابري في ذلك على السياق الذي تضع فيه الذاكرة حياة أعيد بناؤها ، فتقوم فيه الذاكرة بدور ، ويقوم فيه العقل المحول المحلل بدور ، يحيل ذلك على دلالات موشورية (نفسية و اجتماعية) للذكرى ـ إن صح التعبير ـ في علاقتها مع مكوناتها الخاصة و تفاعلها مع تراتبية الأحداث ، هذامن جهة ومع الأفق الذي يعطيه لها التحليل من جهة ثانية ، "وما من وسيلة في البناء إلا ذلك العنصر الذي يربط أعضاء الهيكل وفق تركيبة تعطي للمنتج جنسه و يلبسه بما يناسبه ،إلا لغة العرض و أسلوب للتأويل"(2) .

كما يؤكد الجابري أن الأمر يتعلق بنص غير مقالي و غير فلسفي ولا علمي ، باعتبار ما عرف به في كتاباته النقدية و في قراءاته للتراث العربي ، أما الآن فهو في نص بياني يعرض فيه ذكريات شخصية من زمن اللاوعي إلى زمن الكتابة الواعية ، وهو في حال ينعكس على أحوال الذكريات من حيث طبيعة الفكر و مستواه الاجتماعي ، " لأن اللغة وليدة شروط اجتماعية و ثقافية و نفسية ، وهي مرتبطة في سياقها بالحاجة إلى فهم معانيها المقصودة من الخطاب الذي لا يحتمل غير الحقيقة و المجازات القريبة" (3) .

في نص " الحفريات " ذات إحالة لا تتنافى و الواقعية التي تحاكي في أغلبها الحقيقة العيانية التي لا يجاورها الخيال(الأحداث ، الظواهر الاجتماعية ، وطبيعة الأفعال)، من حيث توافقها الزمني في النص ، إلى جانب إدراك جوهر الأشياء في ذاتها، أما ما أدركه في ذاته فقد فسره في أكثر من موقف ،حيث لم يترك مجالا للتأويل فيه وخاصة فيما يتعلق بشخصه ، فأراد أن تقوم اللغة بدورا في انحراف المعنى (العنف اللفظي)، الذي يعكس الصراع الداخلي الذي تتنازعه وضعية اجتماعية و ثقافية، وقصديته (ميوله ، رغباته و أهدافه الفكرية الايديولوجية) في بناء المعنى و تدميره في آن ، وهو بذلك يريد للنص أن يبقى حيا عند كل قراءة يولد عندها ، وفق مرجعية المتلقي وآلياته .

---

(1) عدنان بن ذريل :النص و الأسلوبية ، بين النظرية و التطبيق ، دراسة ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000، ص91

(2) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ،ص08

(3) أنظر نفس المصدر : ص09

و اللغة في حد ذاتها إن هي إلا نتاج اجتماعي ، محمل في ألفاظها و أنماط تعابيرها، فهي صورة صادقة و معبرة عن المجتمع الذي ولدت فيه ، تتطور بتطور المجتمع و وتغتني بغناه ، لذا علينا أن نصادق على الحقيقة التي تحملها و كيفية التعاطي معها داخل المجتمع بشرائحه المختلفة في محاولة اكتشاف أصابع السياسة التي تتحكم في انتاجه، وذلك لا يكون خارج النص ، لأن الحقائق العامة و إن كانت متماثلة لا تأخذ حكما واحدا إن كانت القوالب مختلفة (السيرة أو رواية) ، فلكل منهما مميزات لها صبغة خاصة على ما يحمله كل نص ، "لأن كل تغييرللبنية الفنية يأتي من الخارج ، سواء كان ذلك بشكل مباشر ، تحت تأثير التغيير الاجتماعي ، أم بتغيير غير مباشر تحت تأثير التقدم الحاصل في حقل العلم و الاقتصاد و السياسة و اللغة ،وإن الطريقة التي تقدم بها التحدي الخارجي والشكل الذي ينتج عنه يخضعان لعوامل داخلية في البنية الفنية"(1) .

فإن النص "حفريات في الذاكرة " لم يقل الحقيقة دفعة واحدة ، أو أنه لم يظهرها دفعة واحدة، وإنما اجتهاده في أن يسمح بتمرير تجلياتها بما يتناسب مع الشروط الموضوعية المتاحة في كتابة النص و ما يتناسب و ما معطيات كل مرحلة زمنية معاشة(اجتماعيا ، سياسيا ، اقتصاديا ، معرفيا) وهذا ما يعطي للنص في زمن الكتابة بعدا فكريا ، ونعني بهذه الملامح هي تلك الخصائص المشتركة بين أفراد المجتمع المشتملة على عناصر مادية و أدوات و مفاهيم و قيم و تقاليدو، كما أن المعنى يقصد به المعرفة الثقافية التي تشترط في المتكلم بل يتم التركيز على المدلولات الثقافية التي يتضمنها النص .

وما أشد ارتباط الكاتب بمشروعه الفكري الموضوعي في كتابته ككل ،انطلاقا من المحيط الحضاري الذي ينتمي إليه الكاتب ، فقد تحدث عن حياة العرب في الجاهلية باستحضاره للبيئة الصحراوية التي عاش فيها ، كان في ذهنه نوع من التناص بين البيئتين انطلاقا من منطقة (فجيج) بقصورها و بمركز تيه ، إلى جانب شجرة الأنساب وتداخلها لدى القبائل العربية ، الشيئ الذي يماثله في قبائل (فجيج) و في كل مجتمع قبلي، إلى جانب التعريف بالبيئة الاجتماعية و الطبيعية و السمات السياسية و الثقافية "(2)، ولكن لماذا ؟ ،فهناك نوع من الحضور لما نقرأ و فيما نكتب ، حضور لا نشعر به ولا نعيه ، "فكل انسان عندما يكتب يفعل ذلك وهو يجر وراءه جميع ما قرأ ، أي مخزونه الثقافي بأجمعه"(3) .

---

(1) فيصل الأحمر، نبيل داودة : الموسوعة الادبية ، دار المعرفة ، قسم التصنيف ،ج 2 باب الواد الجزائر ، 2009 ص270

(2) أنظر الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة ،ص228

(3) نفس المصدر :ص226

كما أن" للكتابة الثقافية أكثر من طابع ، بحسب أجناس الكتابة و موضوعاتها"(1) فقد كانت هناك عبارات تحمل رسالة مقصودة ، و ما تحمله عبارة (من بعيد) ، حيث الزمن الذي تطبعه الظروف و الفكرو الثقافة ، "لنقل ولدت في ظروف تنتمي إلى مشارف القرون الوسطى بينما أنا أعيش في ظروف تنتمي إلى مشارف القرن الواحد و العشرين" ، و ما أثار فيه ذلك البُعد حكايات جدته ، إلا أنه أعطى للبعد معاني ، يقرب بها حقيقة ما ينبغي أن يكون ، ربما كانت هذه رسالة إلى شباب اليوم الذي يعاني اليأس و القلق و انسداد مع كل الامكانيات المتاحة ، فهي أحسن بكثير من تلك التي كانت متاحة في الزمن البعيد"(2) .

ومن جهة أخرى ومن منظار التاريخ الاجتماعي ،أريد له أن يضمر التهميش الذي يظهر في (الجبال ، القرى ، الارياف) ،لأن الاستعار الفرنسي عمل على بلورة ما كان يسميه (المغرب النافع)، ولا زالت دار لقمان على حالها حتى بعد الاستقلال ، فأصبح هناك مغربان :حسب الخريطة التي رسمتها فرنسا و التيارات الفكرية التي زكتها الأذهان كالأرض الخصبة، " وما يشتكي منه الناس في هذه المناطق المهمشة التي لا يعرف المواطنون في بعضها إلا الأمازيغية هو هذا التهميش"(3)، ولا يمكن أن يكون هناك تعايش إن لم يكن هناك تواصل ، و هذا الأخير لم يكن له مجال حتى في المدارس .

وإذا تحدثنا عن اللغة الأمازيغية من الناحية الألسنية ، كأن الكاتب أراد أن ينشئ لها معجما مع تأصيل لمفرداتها ، ففي الابتعاد عن الأصل تقفي لأثار المدمر(الاستعمار) الذي يؤدي بنا إلى الانسلاخ من كل ماهو لنا ،" وأذا تكلمت عن اللغة الأمازيغية فلأنها اللغة التي كانت ، ولا تزال إلى حد كبير اللغة الأم ، فلم تكن أمي تعرف كلمة واحدة بالعربية وكذلك جدتي لأمي "(4)، كأنه يلمح إلى حقيقة الهوية التي طالها يد الأستعمار.

لجأ في كثير من الأحيان إلى اللغة التراثية و الأمازيغية ، ماجعله يلتزم بهموم الطباقات الفقيرة، كما أظهر الواقع المتردي لهذه الفئات الإجتماعية لقد اضطره الأمر أنه يقولها بالفصيحة ويترجمها إلى اللغة الأمازيغعية ، لكنها لا تظهر لنا كدعوة مباشرة، فالأديب يتوسط لذلك باللغة، بعضها جمالي وبعضها دلالي يحاول من خلالها أن يجعل أفكاره مغلفة بإيهاب خارجي له سلطة آمرة ولكنها خفية في الوقت نفسه .

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريلت في الذاكرة من بعيد ، ص 237
(2) نفس المصدر : ص232
(3) نفس المصدر : ص233
(4) نفس المصدر : ص235

إن الكتابة عند الجابري تخضع لمنطق الإنعكاس ، سواء أ كان ذلك انعكاسا كليا مطابقا بأسلوب علمي أم انعكاسا نتيجة لوجود سبب ، جعله يكتب نصه حفريا في الذاكرة بأسلوب واقعي في مزيج بين اللغة الفصيحة و اللغة الشعبية قليلا ، في جوهرها لغة المناجاة ، "تتمثل في حديث النفس للنفس ، و اعتراف الذات للذات ، تتسم بالصدق والأعتراف و البوح...ولقد اغتدت المناجاة في أي عمل أدبي يقوم على استخدام تقنيات السرد العالية"(1) .

وهنا يتضح الأمر من استعمال المفردات الأمازيغية ، ولكنه استعمل اللغة العربية لأعادة احياء اللغة الأمازيغية، لأنه كان في سياق الحديث عنها ، حتى و لو تحدث بها فإنه يريد أن يعطي للمسميات بعدا تاريخيا، كأصول تثبت بها الفروع ، مثلا في موقف تاريخي لمدينة "فجيج" التي كانت تسمى بالأمازيغية(إفيي) والقصر يسمى (أغرم) وهو عبارة عن تجمع سكاني ، وكان أهل سكان "الوداغير"بالأمازيغية(آن عدي :آل عدي)، وقصر "زناكة" يسمى بالأمازيغية(إزناين)"(2).

إن لغة الجابري في نصه " حفريات في الذاكرة" لا نحمله عليها ، فقد كان نصه عمليا ، فلا يمكن فصله عن غيره من انتاجات سابقة ، لأن الأمر يعود إلى ما كان يهدف إليه من نقطة البداية إلى النهاية عبر مراحل الحياة الواعية ، وبذلك لا يمكن أن نجرد أو نفرغ النص من محتواه الذي لا يتنافي وبقية منتجاته التي سبقته(مؤلفاته) .

إن الخطاب موجه إلى كل من له قطيعة مع الأصل المغاربي من منبر مغربي ، في محاولة "بعث اللغة الأمازيغية، تكون للهجات الأمازيغية في المغرب و الجزائر و تونس وليبيا ، شأنها شان اللغة الغربية لغة الجاهلية"(3) ، و التي تنحدر منها كذلك اللغة الأمازيغية ، بحكم التطابق بين الكلمات و العبارات في اللغة الحميرية القديمة التي يتحدث بها أهل اليمن ، ومما له دلالةفي هذا الأمر ، أن الحروف الامازيغية التي وجدت في بعض المناطق "تيفينار" إنما معناها (الفينقيات) ، و(القاف) كثيرا ما تنطق (غينا)"(4) ،وفي هذا تظهر علاقة اللغة بالثقافة ، فأينما وجدت اللغة فقد ولدت معها الثقافة، ومن ذلك إحياء للتراث و تعليمه ، فالمسألة هنا في الوطن العربي .

---

(1) عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ،دار الغرب للنشر و التوزيع ،ص182

(2) أنظر الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص22

(3) نفس المصدر : ص234

(4) نفس المصدر :ص234

ومن الناحية الوظيفية للُغة فهي أداة، و الأداة لا تبرز فعاليتها إلا عند استعمالها، إلا بمقدار مطاوعتها و قدرتها على التكيف مع المعطيات التي تعالجها، " فعندما نقول أن البحث في حقيقة أي مشكل ليست في وصف أعراضه الظاهرة ، بل في البحث عن جذوره ، لأن ليس بناء الخطاب بصورة من الصور، بل إبراز ضعفه و تشخيص عيوبه و ثغراته و استجلاء لصورة العقل العربي من خلاله"(1) .

يبرز "الجابري" العقل العربي من خلال ظله في النص ، ولكن ماذا يمكن أن نقول على نصه ؟ إن هو إلا نقد للخطاب العربي المعاصر، ومن ذلك الفكر و الثقافة التي تعكس آليات و مستويات الانتاج، والهدف العام يظل في انجاز رؤية جديدة للتراث تحررنا من المأزق النظري ،لأنه كان عمليا في نصه لما نظّر له في كتبه النقدية ، لأنه في ذلك حقيقة للواقع ، أي أن نكون نفعيين ، أن نتعلم العمل بما نعلم .

وفي هذا السياق أخذ الدكتور الجابري في بحوثه يوثق الصلة التي يقيمها بين الأدب و الحياة وبين الفكر و الأدب ، وبين القديم و الجديد ، ليس معنى هذا أنه يقف موقف الرافض لذلك التجديد ، لأن ذلك وارد " الشيئ الذي لا يقبل الشك هو أن تقوم الدعوة إلى التجديد على المقارنة المطلقة بينه وبين القديم في مختلف العصور"(2).

فاللغة الجابري كانت لغة انشطارية إن صح التعبير،حينما يتعلق الأمر بما يلامس هدفه الأسمى في نصه ، وبكل ما يعد كمقوم لبناء الأمة ،"بكل ما تنطوي عليه العبارة من معاني " ، ومن معانيها امتلاك السلطة التي تحررنا من التبعية في كل شيئ "(3) ، فقد كان له في ذلك منهج قياس الغائب على الشاهد ، و الفرد على الجماعة ، وذلك فيما أخذته بعض المدلولات التي تتلخص في سيمة الانتقالات داخل و خارج الوطن ، الذي ارتبط بكل ما ينفع الناس " والحق أن فتح هذه المدرسة كان فتحا جديدا في حياة هذه البلاد" ، وفي هذا إشارة إلى ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم يوم أراد بناء الدولة الأسلامية ببناء صرح التعليم (المسجد) ، "لقد كانت وسيلة لنقل الوطنية بكل ما تحمله الكلمة من معان سياسية و اجتماعية وثقافية "(4) .

---

(1) الجابري محمد عابد :الخطاب العربي المعاصر ، دراسة تحليلية نقدية ،ص277
(2) عبد القادر القط :في الأدب العربي الحديث ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة .2000 ،ص04
(3) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص77
(4) أنظر نفس المصدر :ص77

إلى جانب ذلك نجد لغة الجابري تتراوح بين الإنشائية و الخبرية(المسلمات) ،وكثيرا ما كان يظهر مبدأ الماذية في نصه الذي توحي به لفظة "لأنه" ، وبذلك على النمط الحجاجي ، وفي ذلك علاقة يتبناها العقل ، علاقة اللاحق بالسابق ، سواء تعلق الأمر بظاهرة متطورة أم في الصميم هي ظاهرة المتغير،إما لغرض التنبيه منها ، أو التوجيه إليها ، ليؤكد حتمية ما يسعى إليه من خلال "حفرياته في الذاكرة" ،وهو يشعر بالحاجة إلى إلى القول: "بأن من الذكريات ما ينتمي حوادثها إلى الماضي ، إن منها ما ينتمي إلى المستقبل لا بحدوثها الزمني بل بأثرها و نتائجها"(1).

واللغة ينصرف معناها أساسا إلى الأدب ، لأنها لغة انزياحية في غالب الأحيان، إلى جانب كونها لغة علمية ، فإنها لا تتطور إلا ببطء شديد ، فأراد لها الجابري أن تخرج من ضيق إلى شساعة الرحب الذي يتسع باتساع العلوم ، فقد غذاها في نصه السيري بما يخدم مقامه ، مثلا " الاتصال البصري "، ونظرية ديكارت في نفسير عملية الابصار"كان ديكارت يعتبر الشعاع الضوئي بمثابة عمود ضاغط ينقل الضوء من الجسم المشع إلى العين وفق النظرية العامة التي توحد بين المادة و الامتداد"(2) ،" فهي لغة خاصة لما وضفت له وما تحمله على وجه ظاهر غير متحولة ثابتة الدلالة"(3) ، كما"أن لأرسطو الحق في تأكيد أن ما يحدث مرة لا بد أن يحدث مرة أخرى ولو بشكل جديد "(4)،إلا أن تلك الحقائق تثبت أسلوب الجابري الذي يبرز فيها علاقة العمل الأدبي في معالجة القضايا و تفسيرها وفق نظريات علمية ، وبذلك تظهرموضعية الأدب .

كتب المؤلف سيرته انطلاقا من الحاضر الذي كان يعيشه إلى الماضي البعيد ، لذلك سيطر عليه صيغة الماضي الناقص "كان" لا تكاد تخلو منه كل صفحات النص، وفي غالب الأحيان مسبوقة ب"قد" التي يتتحقق بموجبها الحدث في اللغة ،"فقد كان جده لأمه يلفن حفيده بعض السور ...لقد كان جهوري الصوت"(4) ،الذي يحمل دلالة الزمن لكن الحدث في وقوعه مطلق الذي لا نقبض عليه ألا في علاقته بالمكان ،وما توحي به الأسماء و الصفات التي تنشد المنطق العام الموضوعي لا الخاص،(الموطن ، المدرسة ، المعلم ، القراءة، الحطاب ، النفاق ، الاسلام ،المسجد ،صوت ،المرأة ، الرجل ، الأمية الأسرة ، السلطة...)، وقلما نجد الماضي التام الذي يضبط الحدث بالزمان والمكان ، وخاصة فيما اعتمده في مواقفه الحوارية التي توهم القارئ بالواقعية .

(1) الجابري محمد عابد : حفريلت في الذاكرة من بعيد ،ص71
(2) نفس المصدر : ص131
(3)عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، دار الغرب للنشر و التوزيع ،ص163
(4) الجابري محمد عابد : حفريلت في الذاكرة من بعيد ،ص134

فالأسلوب من زاوية المتكلم ، هو الكاشف عن فكر صاحبه و نفسيته ، كما تكون طبائع الشخص يكون الأسلوب ، وهوالانسان نفسه بأعتبار أنه مبدأ التركيب الرفيع الذي يتمكن به الكاتب النفاذ إلى الشكل الداخلي للغته ، في حين أنه ضغط مسلط على المتخاطبين من جهة المتلقي ، وأن التأثير الناجم عنه يعبر على الاقناع و الامتاع ، "كأنه يضيف إلى فكر معين جميع الملابسات الكفيلة بإحداث التأثير الذي ينبغي لهذا الفكر أن يحدثه من خلال لحظات تعاقب الجمل على انتباه القارئ لتفجير كل الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة ، من شأنها اخراج العبارة من حالة الحياد اللغوي إلى خطاب متميز بنفسية تحدد طبيعة الشخص المتكلم أو الكاتب و ما يخدم مقاصده"(1) .

وإذ لجأ المؤلف إلى استخدام الفعل المضارع ، فإنه يستخدمه في سياق يتماشى والبنية السردية التي تعتمد عليها الذاكرة في استرجاع ماضيها ، كأن يأتي بالفعل المضارع مسبوقا بنفي قصد اظهار أو تقريب الواقع من الحقيقة بأداة "لم"، "لم يعقب هذا الأخير بشئ"(2)، "ولم يكن الأطفال يشاغبون يستسلمون لعصا الفقيه... ولم يكن هناك حد للكبر"(3)، " ولم يكن لصاحبنا من قبل أن خاض تجربة من تجارب الحب"(4)، وذلك في الواقع ،لأنه كان يعيش صراعا بين قوى متنازعة على الموقف ،و في ذلك كتمان ، مادام أنه لم يقبل على ما كان يجول في خاطره .

وأي نص في الحقيقة يتقاسمه جزئين ، منه ما هو معلن ومنه ما هو مضمر، الذي لا يتجرد منه النص السير الذاتي ، فهو مركب شاهد على الحالة الشعورية و الوجدانية للكاتب "وإن يستعد صاحبنا اليوم في ذاكرته"ناسا" يجد نفسه ميالا إلى نفسية الحمق"(5) ، وكثيرا ما كانت الذات حاضرة في زمن الكتابة بما تعكسه الذكريات التي كانت تلعب على أوتار النفسية للمؤلف "يشعر صاحبنا وهو يتهيأ لمواصلة تتبع معارج مساره الشخصي ،أليس هذا مايدل على اللغة الانفعالية الجوانية ،" إذ حاول اليوم استرجاعها كاملة مع ما كان يلفها و يسري فيها من شحنات وجدانية و يؤطرها من معطيات اجتماعية وعائلية"(6)

(1) أنظر عدنان بن ذريل : النص و الأسلوبية ، بين النظرية و التطبيق ، دراسة ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000 ،ص 44/43
(2) الجابري محمد عابد : حفريلت في الذاكرة من بعيد ، ص47
(3) نفس المصدر : ص48
(4) نفس المصدر : ص132
(5)نفس المصدر : ص50
(6) نفس المصدر : ص132

البنية السردية في السيرة الذاتية :

لقد أوليت السرديات في زمننا عناية فائقة ، لأن السرد هو سبيلنا الذي نعقل به جوهر الأشياء،" إنه صيغة ضرورية لفهم نماذج السلوك و أحداث الحياة، ومن المسلم به أن لكل كاتب وعلى الصعيد الفردي سردياته الخاصة به التي تمكنه من بناء النص على ما هو عليه وما يتجه إليه ، وعلى طريقة سرد الناس للأحداث نفهم القضايا والأفكار والتوجهات "(1).

فالسرد في اللغة هوجودة سياق الحديث، ومن هنا جاءالاهتمام به في كافة الأجناس الأدبية مقرونا باللغة المستخدمة في عرضه وأغراضه ، فجودة عرض الموضوع المطروق تكسبه متعة ، كما تغري القارئ بمتابعته ، وعند حدوث أي خلل أو ضعف في السرد نجد القارئ ينأى بنفسه عنه ، لأن النص وإن كان يهتم للأهداف و الحقائق ، فإنه لا يغفل الجانب الفني و الجمالي .

يختلف السرد في السيرة الذاتية عن غيره من الفنون النثر العربي ، ذلك "بأن صاحب السيرة الذاتية يملك القدر الكافي من الحرية في الاستعانة بالتقنيات السردية وفق آلية الذاكرة أو التذكر ، حيث تسارع إلى مخيلته ، قد يلجأ إلى الاختيار و الانتقاء ومتابعة خط ذي دلالة معينة في حياته"(2) ، فيضطر إلى مراعاة الترتيب الزمني للأحداث ، "لأنه إذا اختل الترتيب ، فله امكانية إعادة ترتيبها ، كان لزاما عليه أن يلجأ إلى فنية تسعى من أجل المزج بين الحدث عند حدوثه في سياق و الحدث لحظة التذكر"ومن الذكريات التي تحضر صاحبنا الآن ، بمناسبة الحديث عن الكائنات التي تشارك الانسان"(3) .

"وهذه الفنية يجب أن تلتزم باثبات الحقيقة في نقل الحدث مع الحفاظ على روابط تصل الأحداث ببعضها ، وهذه الروابط تتطلب قدرة عالية من الصياغة الفنية و المقدرة على ايجاد الروابط "(4)، مما يدفع الكاتب إلى الاستعانة بتقنيات من كالتفسير فن الرواية و التحليل و التصوير.

---

(1) عادل فريحات : مرايا الرواية ، دراسة تطبيقية في الفن الروائي ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000 ، ص11

(2) راغب نبيل : دليل الناقد الادبي ، دار المعارف ، القاهرة1998 ، ص137

(3) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص17

(4) بدر عبد المحسن : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ،ص299

لعل حظ السيرة الذاتية من البقاء يرجع في الغالب إلى ما تنقله لنا من احساس كاتبها بالصراع الذي يثير في نفوسنا ألوانا من المشاعر، تحفزنا على مشاركة تجاربه وخياراته وعلى تعاطفنا مع مواقفه ، ونلمس هذا في نص "الحفريات" ، إذ عمد فيه الجابري إلى تصوير الحالة الشعورية الغريبة التي تعتريه ، حيث تجعله في غيبوبة عما يناسب واقع العالم الخارجي في النص (الاستطراد)، ولا يعود إلى السياق إلا بعد أن يمر على دخوله في هذه الحالة الشعورية وقت ، فيحيلنا إلى زمن خارج الزمن الحقيقي إلى الزمن الجواني النفسي الذي يغطي سيمة الفجائية على الحدث الذي يلي .

كثيرا ما كان يشده الوصف الذي يحكي حالة الحنين إلى زمن مضى ، زمن البساطة الذي اجتمعت عليه العائلة الكبيرة حيث "كان أفراد العائلة يجلسون جلسة القرفصاءحول الموقد...انتضارا لنضج الطعام ، الذي كان في معظم الأحيان عبارة عن وجبة خفيفة"(1)، فقد كان يترك حلقة فارغة بين نواة الحدث(الأفعال) وفي تتابعها و تسلسلها ، حتى أنه يعود بعد مماطلة " ...كان الوقت مساء ، كما قلنا و الظلام يخيم على جميع أجزاء البيت" (2) ، ولم يكن له أن يمر على أجزاء البيت حتى يعطي صورة فوتوغرافية لأركان البيت و مكوناته و أجزائه التي تركت بسماتها في نفسيته .

الواقع أن السيرة الذاتية ليست مجرد استعادة لوقائع الماضي كما جرت ، بل محاولة البحث عن الذات من خلال تاريخها ، وربما كان الجانب المهم في السيرة الذاتية هو الانسجام المنطقي ، ولذلك فالسرد فيها هو الوعي ، فهو الذي يوجه الحياة واعادة بنائها"(3)، حيث جعل نفسه مركزا للعالم ، وانتاجه منبر لكل مغربي عاصره.

يشكل السرد مكونا موازيا في كتابة السيرة ، فهو الذي ينظم الذات بين الشخصيات و موقعها من الحدث في الزمان و المكان وموقفها منه ، ولهذا فإن حقيقة الذات مرهونة بواقعية الحدث و طبيعته، إلى جانب ما تبرزه من ردود أفعال نفسية و فكرية وايديولوجية ، والسرد في ذلك صياغة فنية وفق قواعد النص و شكله، بنطلق من حكاية الذات ليعيد تشكلها عبر آليات تتفرد بها الذات بحكم الرؤية أو الزاوية التي ترى منها العالم و الذي يعطي لها احداثية من ذلك .

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص15

(2) نفس المصدر : ص 19

(3) عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ، السيرة الذاتية في المغرب ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء 2000ص13

السرد المتتابع :

لا عمل شك أن أي كاتب في سرده يقوم بعمليتين تلازمان أي عمل يسري الإختيار أو الحذف، و لا تبيان ، فليس من المعقول أن يثبت الكاتب كل ما يحدث في الحياة ،بل يختار من الأحداث، و يقتطع منها ما ينسجم مع تفصيلات و المرامي المتوخاة من سيرورتها وصيرورتها ،وفي حقيقة الأمر لابد من تسلسل وقائع تشكل بنية سردية وفق منطق سببي معقول، فالحبكة في الواقع هي ما يشد مفاصل النص ، فهي الطريقة الذي ترتبط به كل الأطراف و يمنحها من قسمات التي تشخص الواقع و تجسد طبيعته .

والنسق الزمني الصاعد أو السرد التسلسلي ،حيث يقطع السارد تتابع القصة وتسلسلها لخلق ما يسمى بالتأزم الدرامي ،لكنه شيئا فشيئا من خلال تركيزه على أهمية ما يطمح إليه من أهداف ومقاصد ، يعطي الأحداث أولويات ، فكل سيرة ذات مقومات لا تخلو بأي حال من الأحوال من الإسترجاع ، إلى جانب السرد التسلسلي ، فالسارد يبني سيرته شيئا فشيئا ، فبدأ بسن مبكرة ، وهو جازم أن في الأمر صعوبة ،إلا أنه لن يرتكب خطأ إذ هو رتبها زمنيا ، " لأن الناس عادة ما يحتفظون في أذهانهم و وجدانهم بذكريات عن طفولتهم الأولى ، ولكنهم في الغالب لا يستطيعون ترتيبها ترتيبا زمنيا ، ومع ذلك فإن صاحبنا يستطيع أن يجزم مع نفسه بأن ذكريات طفولته الأولى" (1) تؤسسها جملة من الوقائع سابقة على غيرها على صعيد الذكرى، ويعتقد أنه يخضعها للترتيب التسلسلي.

قد يكون الكاتب مجذوبا باستخدام تقنية سردية " الإسترجاع " ، ولكن هذه الأساليب تخرج عن الزمن الواقعي، إلا أنه وفق في الغوص في العمق الإنساني انطلاقا من ذاته " صاحبنا " جعلها مؤثرة في حركة الزمن وسيره إلى خلف . إن أمه لم تتزوج إلا بعد أن صار فعلا في سن السابعة "، إنه يتذكر هذا جيدا ويتذكر كذلك و بنفس القوة و الوضوح قصة تسميته " محمد " ،كما قصتها عليه جدته لأبيه في مرحلة متقدمة من طفولته ، وعندما أصبح ملازما لها في بيت أهله ،وبعد زواج أمه بمدة قصيرة ، أخبرته غير ما مرة أن أخواله كانوا يريدون تسميته ب "عبد الجبار " (2) ،

(1) الجابري :حفريات في الذاكرة ، ص 11
(2) نفس المصدر : ص 26

وما كان هذا منه إلا لتحليل ما لا يمكن أن يراه القارئ في الزمن الواقعي ، مع التراتبية المكانية الدلالات النفسية ، لأنه كان للأحداث فيها روابط نفسية وأسباب لمرجعية اجتماعية ، فقد كان يمر مرورا سريعا إلى جانب أنه كان يختصر الأحداث المهمة التي تجعل الزمن سريعا ، التي تعبر على أنها جرت في سنوات أو أشهر دون التعرض للتفاصيل ، مما جعل بداية النص أكثر استقلالية من مشهد إلى آخر،و يمكن أن نقول أن هذا أمر طبيعي لكل من يتعمق ويغوص في الماضي السحيق الذي تعبر فيه الذاكرة ، كما تعجز العين أن ترى كل ما هو موجود.

معنى الزمن في السيرة معنى الحياة الداخلية ، معنى الحياة الإنسانية العميقة والخبرة الذاتية للفرد التي تمثل في مجموعها الخبرة الجماعية ، فهو زمن نفسي ،أي أنه ليس الزمن الموضوعي الذي يتم الاهتداء إليه بمعالمه الفلكية (الليل ،النهار ،الشهر، السنة)، فلا يمكن أن تلغي الزمن من السرد ، فالزمن هو الذي يوجد في السرد ،وليس السرد هو الذي يحوي الزمن ، إلا أن طبيعة السرد تتحدد وفق تسمية الزمن و طريقه وطرق إضماره أو إظهاره .

يعد هذا الزمن زمنا لغويا بحتا ، لأنه "من الطبيعي أن الكاتب يفعل هذا من خلال اللغة ، فاللغة تبطئ حركة القص إذا شاء الكاتب" (1)، وهو يمر كسحابة من أحداث شخصيتها أولى صديق الطفولة ، الذي لا يتذكر من وقائع عشرتهما سوى واقعة واحدة يوم سقوط سقف المسجد ولم يعثر له على شي ء في ذاكرته ، إلا أنه يظهر بنفسه يعود إلى علاقته التي" لم تكن قد دامت زمنا طويلا في الواقع... إلا أنها تحولت في ذاكرته إلى دهر بأكمله "(2) .

فقد طالت وقفته الطللية على ما كان بينه وبين صديقه وهو في زمن ما بعد الحادثة ، و يعود بعد أن نبت النبات على دمنته، ما كاد يخرج منها عبر لغة المناجاة إلى مرحلة بعدية متسرعا في حركة الزمن ، ولم يمر وقت طويل حتى انخرط صاحبنا في جماعة من أطفال الحي ، "فلهيب نار العشاق لا يتوهج إلا حال الفراق "(3)،لأن العامل النفسي هو الذي يتحكم في تقنية التذكر عبر السرد ، و ليس في ذلك ما يخل بالحقيقة .

---

(1) نبيلة ابراهيم : نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة ،النادي الادبي ، الرياض1980 ،ص43.

(2) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص40

(3) نفس المصدر : ص42.

وعلى هذا يصعب أن تقتصر السيرة الفنية على النمط المتتابع دون استخدام المفارقات الزمنية (القبلية و البعدية) ، وهي من مبادئها تقنية الاسترجاع إلى جانب السرد التسلسلي على الرغم من الاختصار الزمني والفراغات التي تثير حولها ما يستدعي الوقوف ، لأن الطبيعة لا تؤمن بالفراغ .

ولو تقفينا تلك السمات في بداية **الفصل الثاني** حال دخوله "المسيد" تعود به الذكريات إلى محطات سابقة ، أي" قبل دخول صاحبنا المسيد (الكتاب)قائلا :" غير أن ذلك لا يعني أنه كان لا يقرأ ، لقد كان جده لأمه يلقنه حفيده بعض السور"(1) ، فهو في سرد حال دخوله المسيد غابت الشخصية وتركت" الشبان والكبار في المكان ،و طريقة القراءة فوق السطح وفي حالة الغرف وضعيهم مع الفقيه في غرف المسيد ،إلى أن يعود إلى عهده السابق بالقراءة قبل دخوله المسيد ، لأنه يتذكر جيدا أنه انتقل من مسيد المسجد الكبير الجامع المجاور الذي لحق به أول مرة إلى مسيد آخر في سن بعد السابعة من عمره، لأن أمه لن تتزوج إلا بعد أن يصير ذاك سنه .

وماذا بعد ذلك ؟ فإنه يتحول من مشهد إلى آخر ، وهو لا يتذكر بوضوح كيف زفت أمه إلى زوجها الثاني(الجديد) ، ليغيب مرة أخرى ، فيتوقف الزمن مع حياة أمه التي لم تكن والدة الفقيه راضية عن هذا الزواج ، تفاديا للتكراريعمد إلى الحذف والاختصار فيما تحمله العبارة "حتى تمر سنوات طوال قاست فيها أم صاحبنا الأمرين من حماتها(2)، لأنه لم يلجأ إلى التسريع إلا في المواضيع التي يجد نفسه مضطرا إلى ذلك ، ومثال ذلك هروبه من التكرار ، إذ كان يجد أن الحذف أفضل من التكرار، أما في غير ذلك لجأ إلى السرد المشهدي ، أو الوقفة الوصفية التي كانت تعطل السرد .

و الوقفة الوصفية كثيرة عند الجابري ، فقد كانت السيمة البارزة في نصه ، وخاصة بما يتعلق بوصف الأماكن و المدن و الشخصيات ، فهو يصف البيوت والمدرسة و الشخصيات وكل ما كان عاملا في صنع الشخصية من حيث التربية والتعليم ، وكثر ما تعلق ذلك بأمه وشخصية "محمد الحاج" كشخصية رمزية في العلم والروح الوطنية .

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص45 .

(2) نفس المصدر :ص50

و الزمن النفسي عند الجابري ، كان يمربطء شديد ، لأن حياته حقيقة مليئة بالعمل و الحركة ، ولكن ذلك لم يشفع لهما عند اليأس و القلق ، فحين حاول أن يسترجع أحداث ذلك الزمن ، وجد نفسه عاجزا عن الإحاطة بكل الأحداث التي عاشها . معايير الزمن النفسي كانت تتغير من وقت لآخر، وهذا هو الطابع العام لسيرته .

ومن المواضيع التي اختلف فيها احساس الجابري بالزمن عما اعتاد عليه ، الموضع الذي يصف فيه فقدانه لصديق الطفولة يوم سقوط سقف المسجد ، ليعود بعد ذهول ، "مع العلم أن علاقتهما لم تدم طويلا ، شعر أن الذي قضاه رفقة صديقه قد تحول في ذاكرته إلى دهر بأكمله ، إلى زمان لا بداية له و لا نهاية"(1).

في **الفصل الثالث :** تربط الذاكرة الذات مع شخصية تركت بسماتها وأثارها في حياة الجابري في سن تراوح بين الثامنة و التاسعة ، الرجل الذي غرس فيه شجرة العلم التي أنبتت و أتت أكلها في الساحة العربية المعاصرة ، وفي ذلك ظل لشخصية "الحاج محمد فراج" الذي أحدث القطيعة بين الماضي المظلم الظالم أهله و المستقبل الذي أراد به مراحل حياته أي " بين المسيد و المدرسة العصرية التي جعل منها بوتقة من ذهب صنعت جيلا من المتعلمين و المثقفين و الاختصاصيين"(2)، وما كاد يتوقف حتى تنبه أنه ليس في موقام التأريخ لسيرة هذا الرجل...وهو يستحق بالفعل أن يؤرخ له كشخصيات ساهمت بقسط كبير في صنع الغرب الحديث(3) .

لقد تطورت شخصية الجابري في الزمان لكنها في المكان ثابتة ، وما كان لها في **الفصل الرابع** إلا أن تبرح مكانها ، ولم يكن ذلك إلا تكملة لمشروع التعليم ،بالانتقال إلى منطقة "بوعزة" التي وقف فيها موقف السائح الزائر ، ليعود مرة أخرى إلى مسقط رأسه بعد ثلاثة اشهر(4) .

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص40 .
(2) نفس المصدر : ص72.
(3) نفس المصدر : ص72.
(4) نفس المصدر : ص119.

باشر الكاتب في **الفصل الخامس** بعودته إلى وجدة أين أقيم حفل زواج أبيه ، كيف تقام الحفلات التي أبرز من خلالها الطابع الثقافي المختلف الذي يوحي بالطبقية "ليعود بالذاكرة و معطياتها(1) ، لتجد نمو الشخصية من خلال ما كان يطبع الذاكرة من أحداث ما أراد لها أن تخرج النص من سياقه ، وخاصة بما يؤرخ له من أحداث تارخية وسياسية ربطها بشخصية الأب ، الذي طرده السلطات الفرنسية لأسباب وطنية سياسية ، وهذه الظروف هي التي زكت الجانب الثقافي " ولم تكن هذه السنة(1950/1949) مجرد سنة تكميلية ، بل كانت في واقع الأمر سنة تأسيسية في حياته الثقافية التي بدأ فيها التعامل مع النصوص التراثية و بناء علاقة الألفة و المعاشرة معها (مختصر الخليل وألفية بن مالك وقصائد أمرئ القيس وزهير بن أبي سلمة ، حافظ ابراهيم و البارودي...)"(2)

ما يميز هذا الفصل هو ما يميز حياته في نموها ، حادثة " الاتصال البصري " الذي كان يربطه بتلك الفتاة ، "ولم يسبق لصاحبنا و أن خاض تجربة من تجارب الحب فقد كان ما يزال في بداية المراهقة"(3)، وهو يحاول الآن استرجاعها بما تحمله مع ما كانت تحمله من شحنات وجدانية ، مما أثار على السرد المونولوج ، عاكسا حالة القلق التي فرضتها الظروف ، مكان المدرسة و بقوانينه الصارمة ، إلى جانب عمه الذي تعرف على والد الفتاة ، "مع أن صاحبنا كان يستبعد بينه وبين نفسه أن تقبل المعنية بالأمر لأنها كانت رغبتها من رغبته اتمام الدراسة"(4) .

كان لابد من مواصلة التحدي ، ولكن كيف ؟(5).

في **الفصل السادس** الذي أراد له الكاتب أن يكون آخر فصل ، فقد كانت فيه وتيرة السرد أسرع مما كان عليه ،مهتما بالجانب العلمي الذي فرض عليه الانتقال من الدار البيضاء رغم الوضع المادي و الظروف الصعبة ، لكنه قد قرر التحدي ، لقد كان له فيما قرر ترك العمل في معمل الخياطة و تمرده على المنظومة التربوية، ليترك فراغ تملأه ظروف و امكانيات كل من كان له رغبة التحدي ، وما فتح له المجال الأوضاع التي تزامنت مع المرحلة الانتقالية من الحماية إلى عهد الاستقلال(1955/1953).

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ،ص124

(2) نفس المصدر : ص126

(3) نفس المصدر : ص132

(4) أنظر نفس المصدر : ص133

(5) نفس المصدر : ص139

وبعد افتتاح أبواب المدرسة أكتوبر 1953 ، وهو في شك وريب قد كون نفسه بنفسه وفق برنامج الشهادة الثانوية كطالب حر ، وفي نفس الوقت كان أول ما فكر فيه هو العمل في التعليم ، "قضى صاحبنا سنتي(1954/1953) يعلم في القسم التحضيري وينتقل مباشرة إلى ما هو أهم حسب الكاتب ، حيث اجتاز امتحان و بنجاح سنة 1955 ، عينه مدير المدرسة معلما لأقسام الشهادة الابتدائية ، ثم امتحان الكفاءة بعد سنة .

ولم يتوقف به المسار هنا ، بل اجتاز شهادة البكالوريا في السنة الموالية(1957) ، السنة المرتبطة بمرحلة الاستقلال ، من ذلك تصاعدت الأحداث بسرعة منتقلا إلى سوريا للدراسة في الجامعة باعتبار أنه لم تكن هناك في المغرب جامعة إلا أن عاد من سوريا إلى المغرب بعد سنة أين استقربه المقام بعد وجود كلية الآداب بالرباط(1) ، "إنه شيئ عظيم أن أصبح طالبا جامعيا ، لم أكن أثناء فترة مراهقتي أني سأصبح بعد أيام قلائل شابا له مكانة مرموقة في الوسط الذي يعيش فيه"(2) ، وهو في سن السادسة و الأربعين.

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص 164

(2) نفس المصدر : ص193.

تقنيات الرواية في كتابة السيرة الذاتية :

ولعل ضمير الغائب أن يكون سيد الضمائر السردية ,أنه وسيلة يتوارى وراءها السارد ، و الضمير في العمل الأدبي يمثل شخصية تظهر سيماتها من خلال ما يصدر عنها من أقوال و أفعال ،يعتمد عليها الكاتب ليمرر ما يشاء من أفكار وايديولوجيات وتعليمات وتوجيهات وآراء دون أن يبدو تدخله صارخا ولا مباشرا ، وأن "الجابري "السارد" اغتدى أجنبيا عن عمله وكأنه مجرد راوٍ له الفضل في ذلك .

ولعلنا نتوقف أولا عند تعريف فليب لوجون في مؤلفه"السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي"حينما يقول عن" رواية السيرة الذاتية " سأطلق هذا الاسم على كل النصوص التخييلية التي يمكن أن تكون للقارئ ليعتقد انطلاقا من التشابهات التي يعتقد أنه اكتشفها وأن هناك تطابقا بين المؤلف والشخصية ,في حين أن المؤلف اختار أن ينكر هذا التطابق أو على الأقل اختار أن لا يؤكده "(1) ، مثلما وجدنا عليه الجابري, في اعتماده على ضمير الغائب الذي أبعد " الأنا" الذي يُعد الألصق بالسيرة الذاتية ، إلا أن الكاتب المحترف يعنت نفسه في محاولة فصل "الأنا"السردي عن "الأنا"الكاتب ، وخاصة فيما ارتبط بالفعل السردي "كان " ،الذي يظل في زمنه كأنه مفصول فعلا عن الكاتب ، مع أنه مجرد خدمة سردية وتقنية روائية للتعامل مع مضمرات النص"(2)، وهو بذلك يحيل على الموضوع منطلقه من الداخل نحو الخارج .

يحاول أصحاب السير عرض حيواتهم في قوالب فنية ، فينصاعون لمتطلبات العمل الروائي ، وقد تبتعد سيرهم عن حقيقة الوضع الذي عاشوه، وعندئذ يستيقظون على المأزق الذي وقعوا فيه، فيحاولون التستر وراء أسماء مستعارة فتنشأ رواية قائمة على حياة شخصيات، يقال أنها فارقت الحياة من الأهل والأصدقاء ، ولم يذكر أسماء الأحياء تجنبا للإحراج مثلما جاء في مقدمة "الحفريات" ،وإن يكن فقد شاع بأن أول عمل روائي لأي كاتب هو في الواقع سيرة ذاتية"(3) ،وكان نص"حفريات في الذاكرة "أول إنتاج أدبي فني لمحمد عابد الجابري على غرار مؤلفاته في المجال النقدي والعلمي الفلسفي ،إلا أنه لم يكتب عن تجربته الذاتية على نحو مباشر ولكننا نراه قد اعتمد في كتابته عليها ، وأن عمله الأدبي هذا لا يخرج عن مغزى مؤلفاته السابقة .

---

(1) عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري -رواية السيرة الذاتية / مجلةعلامات ج49-سبتمبر 2003 ص581

(2) أنظر عبد المالك مرتاض – في نظرية الرواية ص234-235

(3) عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري -رواية السيرة الذاتية / مجلةعلامات ج49-سبتمبر 2003ص584

وهنا نلفت الانتباه إلى أن ثقافتنا العربية لا تزال تحول بيننا وبين شجاعة الاعتراف والبوح إلى اليوم ، فثقافتنا بحكم أوضاعها وشروطها لا تتيح للكاتب وضع شجاعة الاعتراف ، فيؤثر السلامة ويتحرر من قيود الكتمان ، و من ذلك لا يكون التعبير المباشر إلا للمباح ، وغير المباشر بالتلميح و الرمزوالخيال ، إلى جانب كل ما يقبل التأويل، و من ذلك تقنيات الرواية ، حيث يمكن أن تكون بديلا لشجاعة الاعتراف .

ونخلص من ذلك كله إلى أن تحول المبدع من السيرة الذاتية إلى رواية السيرة يرجع إلى موقع الكاتب من نفسه ، وما يحيط به في الزمان والمكان، وخاصة أنه أول عمل أدبي له ، فهو مرتبط بالسيرة الذاتية بحكم استفادته من تجارب الحياة ، جعله يمارس لعبة فنية تحت تأثيرخارجي(سلطة الجتمع) التي انعكست في الداخل(نفسية)، فتلك هي معطيات النص ، وما الفكر فيها إلا منسق،"لأن الصعوبة لا تأتي من داخل الجنس الأدبي الذي يتطلب الكثير من الوعي والجرأة ، بل من خارجه أيضا أي من تماسه بخطابات معرفية، وفضاءات حياته أوسع خصوصا في مشهدنا الثقافي شديد الصلة بخطاب اجتماعي صارم" (1) .

إن صور الترجمة الشخصية عند العرب في عصورهم المختلفة من العصر العباسي إلى العصر الحديث ، هو فن مستحدث قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرأو أثرها ، فقد كان لكل طائفة منهجا خاصا ، إنما عنو بالتحدث عن حياتهم الفلسفية أو العلمية ، فلم نجد منهم من وقف عند طفولته ونشأته والمؤثرات الخارجية المختلفة التي وقعت عليه وأثرت في حياته ،لأن السيرة الذاتية هي ترجمة للحياة الشخصية ، ولا يمكن أن يكون مبتورة المراحل ،و إن كانت شاملة فبترتيب زمني لها ، حتى لا تُثار حولها الاستفسرات ، وإلا فهي يوميات أو مذكرات بشرط الميثاق الذي يتمثل بطرق مختلفة .

ليس هذا ما يجعل "الحفريات" ضمن الخطاب المعماري العربي المعاصر، الذي يدخل في سلسلة مؤلفات النقدية في علاقة التراث بالحداثة في ميزان العقل العربي ، فقد فتح الباب واسعا أمام مشروع مركزي للذات العربية قصد البحث في بنية الثقافة العربية التي تخطت حدود التاريخ والأدب في عمله ، لإظهار الحقائق الخفية من كل عمل أدبي ، سواء من جانب المبنى أو المعنى ، وخاصة بعد مرحلة مابعد الإستقلال، تلك معظلة الأصالة و المعاصرة .

---

(1) شوقي ضيف : الترجمة الشخصية فنون الادب العربي دار المعارف ، القاهرة ط4 ص05

و الواقع أن الناقد و الكاتب (السيرة) في أدبنا العربي يجد الطريق أمامه يكاد يكون مسدودا ، فمن باب العادة أننا نخفي كل ما من شأنه أن يلقي الضوء على الحياة الخاصة لأدبائنا و مفكرين و على اعترفاتهم و ذكرياتهم و رسائلهم ، "فهم في غير الأوقات التي يرتدون فيها الزي الرسمي أمام جمهور قرائهم ، فهم دائما يلقونهم من خلف قناع ، وقلما يلقونهم و هم في حالة استرخاء عاطفي أو فكري"(1)،فالحقيقة تأخذ حكم الصدق حين يطابق الحكم الواقع كمطابقة الذهني ما هو عيني ، وتكون غير ذلك حين يطابق الواقع الحكم، ولكن الواقع مأخوذ بأحكام موحدة لما يشغل الزمان و يملأ المكان و انعكاس ذلك على الذات .

فقد كتب الجابري نصه دون تصور مسبق عن حياته الطفولية آملا في ذلك أن يردف بفصل خاص عن حياته الثقافية " ذلك ما يتطلب منه الآن كتابة فصل آخر من سيرته الذاتية " (2) ، كما يعلن عن رؤية أقرانه للنص الذي كتبه مؤشر يوحي بالتقاعد سواء في المجال الفكري السياسي الثقافي " تلقيت رسائل من الأصدقاء ... يعبرون لي فيها عن حزنهم كوني كتبت السيرة الذاتية اليوم " (3) ، وهو في ذلك ، يحاول أن يعرف نفسه فوجدها " كالذي يريد أن يعرف نفسه كمن يلاعب نفسه الشطرنج ، فلا يرضى غالبا و لا مغلوب ، فمن يغلب من ؟"(4) .

انطلاقا من السيرة الذاتية وما تفرضه كحاضنة استطدراد بين المؤلف والسارد ، فنص "الحفريات" يتوفر على الضمير السردي المعبرعن الذات المطابقة للشخصية في استذكار ماضيه في زمن السرد ، ولا نكاد نراها إلا كشاهدة على و اقع الشخصية(صاحبنا) ، مع توظيف امكانات متنوعة انطلاقا من العتبات النصية كالعنوان الأصلي و المقدمة ، و تقنية المشاهد و الوقائع التي تعطي معنى التذكر، إلى جانب النصوص الملحقة لتأكيد الجانب السيري مع تحديد الأهداف و المقاصد التي تحددها الدوافع المعلنة و غير المعلنة .

---

(1) محمد عبد الحليم عبد الله :الوجه الآخر ، مقالات في الأدب و الفن و الحياة ، دار مصر للطباعة ، ص08

(2) أنظر محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص222

(3) نفس المصدر : ص 230

(4) محمد عبد الحليم عبد الله :الوجه الآخر ، مقالات في الأدب و الفن و الحياة ، دار مصر للطباعة ، ص 01

إن الأحداث بمثابة أثار صارعت الظروف في نفسية "صاحبنا" كصراع الآلة والحجارة في النقش ، يتذكر قصة تسميته " **محمد** " ،كما قصتها علينا جدته في مرحلة متقدمة من طفولته ، ثم يردف قولا في تسميته بـ "عبد الجبار"الذي حدثه عنه المستشرق الفرنسي بصفته المتذكر للحادثة مستعملا ضمير المتكلم " **محمد** "، "حدثني جاك بيرك أنه يتوفر على عدة مخطوطات لسيدي عبد الجبار"(1) ، يعطي دلالة تبعث على الهوية والانتماء التي شهد عليها من هو منها بعيد و فيها دخيل .

لقد جاء ذكر الميثاق التلفظي "محمد" في عدة مقامات توحي بقصد الكاتب ، فهو يذكره في مقام القصد الذي تحمله الذاكرة من الأقوال ، وخاصة في حادثة وفاة جده قبل جدته : " **محمد** جدك جدك قليلا "(2) ، فإذا بأبيه وراء الباب يباغته بالقول : " **محمد** ... فقال لقد توفيت أمك قبل قليل " ، فإذا كان يتذكر الأقوال فكيف لا يتذكر الأحوال ؟ ، كان اسمه معلنا في النص بصفته مخاطَبا : "محمد . أنا من عائلة مسيحية محافظة "(3)، "يجعل السارد و الشخصية في النص عملة اذات وجهين ابتغاء التحرك بين وجهة نظره غير المدققة ،بما هو سارد ، وبين العالم في الحقائق التي يحكيها أو يحكي عنها"(4) .

في النقاط الفنية و الجمالية على مستوى البناء ، نستثمر ماهو مشترك بين الرواية و السيرة على مستويات ، ضمائر السرد و الفضاء السيري ، إلا أننا نجده كثيرا ما يعتمد على كلمة " التذكر " على أنه بصدد استحضار حقائق بالعودة إلى الزمن الماضي "وفق شحنات شعورية حية تكون دافعة إلى العمل و التقدم في سائر الميادين ، على أن الطاقات لا تتولد إلا من حوافز دائمة من الشعور الحماسي ، فلا يستثير الشعور و ينظم انطلاقته و يكمل باقته سوى الفن"(5) .

وتعد الوقائع في كل مرحلة عاشها الكاتب ، و في الحوار الذي ذيل النص وهو يتعامل بتوافق وقبول على أن النص سيرة ذاتية ، حيث الحقائق و الصدق و الأهداف والمقاصد إلى جانب الشكل و البناء و المضمون .

---

(1) أنظر محمد عابد الجابريـ : حفريات في الذاكرة ،ص26

(2) نفس المصدر : ص91 .

(3) المصدر نفسه : ص 136

(4) أنظر عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، ص121 .

(5) أنظر شفيق البقاعي : الأنواع الأدبية ، مذاهب ومدارس (في الأدب المقارن) ، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، ط1 ،1985 ، ص175

إذا كان المؤلف كما تعلم ذلك خارج النص ،هو ، محمد الجابري الذي عاش طفولته بين أجداده لأمه و أبيه خاصة بعد الطلاق و انفصال الوالدين, إلا أن علاقة النص بصاحبه يتمثل في استعماله لضمير المتكلم استثنائي وليس قاعدة في النص ، ولكن الكاتب عرض الشمولية ، وإن كانت لفظا بدلالة الخصوصية الذاتية " محمد " الذي يعطي بعدا ثقافيا ، فقد فسر هذا التباعد بأن المؤلف لايريد أن يعرض مواقفه من زاوية الطفولة وحدها ، ولايريد أن يلون هذه المواقف بالون الذي يتلاءم مع التطور النفسي والعقلي للطفل ، وهو في هذا الموقف لا يستطيع أن يقف موقف المعلق و المحلل والمفسر ، كما أنه لايستطيع أن يبتعد عن الصبي ليتحدث عن بيئته و يحلل مظاهرها .

فالسرد بهذه الطريقة " الصيغة " يعفي الكاتب من كل القيود ويمنحه مزيدا من الحرية ، حتى يستطيع أن يحلل المواقف من خلال عفوية الصبى ، و يعلق عليها من وجهة نظره ، فهذه الصيغة تخرج الكاتب في كثير من الأحيان من الحياة الشخصية إلى وصف الحياة العامة ، فثمة مواقف عديدة يعمل فيها السارد " صاحبنا" ليتحدث عن العادات و التقاليد و أساليب التعليم في الكتاب ، وانتشار الجهل في المجتمع الريفي ، وهي مقاطع أقرب للسرد الروائي .

إن الأدب لايعدو أن يكون فكرا ووجدانا وصورا وكلمات ، مهما كانت التبريرات المختلفة ، فهو لا يستغني عن أحد هذه العناصر ،" فهو فكر لأنه يتناول شؤون الانسان في حياته اليومية وفي أعماق همومه الوجودية ، إنه في نفس الوقت يهتم بأبسط مشاغله المادية وكذلك بعلاقته بمنزلته في الكون وبمصيره وحريته وامكانيته وحدوده ، إنه يهتم بصراع الإنسان مع نفسه وبصراعه مع الطبيعة و الحياة و المجتمع في الآن نفسه ، والأدب لايكتفي بالإشارة إلى كل هذه الاهتمامات الفكرية ، بل هي حسب مواقف معينة جعلها الأدب من قضايا عصره" (1) .

و المؤلف ليس إلا خلية من خلايا المجتمع لكنه خلية متميزة تنصب فيها الاحلام الجماعة ، فعندما يريد الانسان أن يفعل شيئا ما لا يجد أدنى صعوبة في ذلك وعندما يريد أن ينتقل فيخيل إليه أنه حر من كل قيد ، ومهما كانت طبيعته ،غير أننا إذا تأملنا قليلا وجدنا أن الإنســـــان لايفعل مايريد كما يعتقد ولا ينتقل متى يشاء بل هناك قوى داخلية أو خارجية هي سبب الفعل و الحركة وهذه القوى هي من صنع الماضي ومن صنع المجتمع فلا يملك الفرد تعديلها أو تغييرها .

---

(1) محمد طرشونة : مباحث في الادب التونسي المعاصر ، دراسات نقدية في مؤلفات المسعدي و المدني و الفارسي تونس 1989ص64

حين يلجأ الكاتب إلى الخيال بالضرورة و التخيل الاسترجاعي كعملية ذهنية تتولد عنها الصور المتولدة عن احساسات في حالة غيبية الأشياء التي استشارت هذه الاحساسات ، وعليه التخيل ليست آمينة أنها عملية مفروضة ، فضلا عن كونها تستفيد "فنحن نتخيل ما نشاء وحين نشاء وينشأ عن ذلك فرق آخر بين الشئ الواقعي و الشيء المتخيل"(2) وإلا أن التخيل الاسترجاعي مشروط بوعي معين .

فالنفس البشرية تنشأ خارج عملية التوريث ، أي تنشأ داخل المجتمع وتكتسب من عدة مصادر ،أهمها الخبرات الاجتماعية عند الفرد التي مر بها وعانتها وتفاعل معها واكتسبها من بيئته الإجتماعية (3) ، وانعكاس الشخصية وفق نزعتها في السيرة الذاتية بكل عفوية وسليقه تعنيان التحرر و الشكر لا الهروب ، تمثلت شخصية الكاتب ببعدها الثقافي " الوطني" في تركيبها فهناك تصور يفرض نفسه على الكاتب هو ذاك الذي يفرضه الواقع ، فينعكس في الكتابة بهذه الصورة أو تلك" (4) .

"فهناك أربعة عناصر أو مكونات سردية ،هي في حقيقتها واقعية حقيقية تصاديها أخرى خيالية ،فهناك الحيز و المكان ، الشخصية و الشخص ، و الزمان يصادي التاريخ و الحدث "الأبيض" أو "الميت" يصادي الحدث التاريخي الحقيقي أو الحي "(5)، ففي السيرة تكون الذات في أغلب الأحيان مفعولا بها وذلك ما يمثل مرحلة الطفولة التي انعكس ظلها في المراحل التي أتت بعدها مكونة لحمة سردية وفق تطور متنامي يعكس نمو الذات في الواقع ، و الحقيقة التارخية المعاشة تجربة صنعت الشخص المتكلم في بالقلم عبر زمن مسترجع ولكنه بوعي .

(1) محمود طرشونة : دراسات نقدية ، مباحث في الادب التونسي المعاصر ،ص 67
(2) كمال بكداش : مادة الخيال،الموسوعة الفلسفية العربية ،ج1معهد الانماء العربي1986 ص 416
(3) د معين خليل عمر : نقد الفكر الاجتماعي المعاصر،دراسة تحليلية ونقدية،دار الافاق الجديدة ،بيروت ص176
(4) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 223
(5) أنظر عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، ص125

الدفاع عن الأنموذج :

"لا يمكن لأي سيرة ذاتية أن تتأتى بعيدا عن اشتغال آلية الدفاع عن الأنموذج ،حين تكون الذات قد عانت النقص والحرمان"(1)، قد تصرح أحيانا بما تحلم به ويتمناه لما حدث له فعلا ، وسيرة الجابري جاءت بألوان من هذا الدفاع ، لكننا وجدناه دفاعا منضبطا محكوما بالمنطق ووعي التجربة، حاول فيه "الجابري "التوكيد على خصوصيته كفيلسوف عبر ما يراه من ميزات تخصه "إن المواد التي نتعامل معها كلها وقائع وقعت لكنها كجميع المواد لا تنطق بنفسها إلا عن وجودها الزمني ،إذ لاتملك إلا هويتها الوجودية "(2) ،فقد جاءت سيرته الذاتية على غرار أهم المصادر التي تعد مرجعا بمعطيات الفكرية، بحكم أنها لا تخرج عنها إلا في كونها عمل أدبي .

فقد جاءت سيرته الذاتية على أهم المصادر التي غذته بمعطيات الفكر و النفس والوجدان ، وبهذا تنعكس خصوصية الذات في قراءة الزمن الذي يشترك فيه كل مغربي، على الرغم من أن ضمير المتكلم الذي يعطي معنى الخصوصية كان غائبا ، فليس في ذلك عيبا ، لأننا نراه في ضمير المتكلم الذي يوحي بالعموم الذي يجعل هوة بين السارد و الشخصية(صاحبنا)، إلا أن حضور الذات في النص لم كان مركزيا إلا من حيث تحليل الوقائع وتفسير العلاقة بين الأحداث عبر مراحل حياة لأنها سيرة مفكر و ناقد

إن القضية قضية سيرة ذاتية ، وما هي إلا أسباب ونتائج تشكلها الأحداث في سياق تراكمها في الذاكرة ، ولكن طبيعة الأحداث جعلت الكاتب يسوقها في سياقات مختلفة ، منها السياق الاجتماعي و النفسي و التاريخي ، ولا سيما في حديثه عن النضال السياسي في سبيل القضايا الوطنية، السجن و الاعتقال في سياق العام ،فهذا ميثاق تلفظي يوحي بالصدق ، في حين موافقة الذاكرة لمعطيات التاريخ العام ، إلا أن اختلافها على مستوى الشكل راجع إلى ذاتية الكاتب النفسية و الفكرية وكيفية تعاطيه لها في النص ، و من ذلك ما يميز الذات فنيا و فكريا، ومن حيث قراءتها للواقع .

وهو يمارس حقه في الكتابة "فما يتعلق بالكتابة تعودت أن آخذ حريتي كاملة وأتصرف بكل استقلالية عن أي ضغط خارجي باستثناء التقيد بضروريات الكتابة ، منها ما تفرضه اللغة ، و الضرورة التي يفرضها الصدق"(3) .

---

(1) أنظر الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص24

(2) نفس المصدر : ص.08

(3) نفس المصدر : ص231

التقديم الذي وضعه في مستهل "حفريات في الذاكرة" كتبه بعدما انتهى من كتابة نصه ، لأن مقدمة الكتاب هي آخر ما يُكتب ،لأن الكاتب يتأمل ما فعل ويحاول اعطاء تفسير لما كتب ، "فلا أتصور سيرة ذاتية خاصة لحياة فرد واحد ، لأن الشخصية السيرية لا يمكن أن تكون كشخصية في القصة(حي بن يقضان) ، ويوضح من ذلك ما أراده في معناه، أي لم يعش حياته بمعزل عن العالم ، فهناك علاقة تفاعلية في حتمية التأثير والتأثر، فأنا فرد واحد من جيل ، وكل فرد من أفراد هذا الجيل هو صورة للآخر"(1) .

من المعقول أن لا يجتمع الضدان ، فهل السيرة الذاتية لا تكون إلا ذاتية محضة ، حتى لا يكون لها من الموضوعية بد ؟ ،فيمكن للذات أن تتراوح بين "الأنا و "النحن"، وما من ذات وإن أرادت أن تتحدث ، فلا يخلو حديثها من الذاتية أو على الأقل مرورا بها، فقد جعل الجابري ذاته في النص مرآة يرى فيها العالم من حوله ،" كنت أكتب عن تجربتي ، كنت أتكلم في نفس الوقت عن جيل بأكمله وعن مرحلة تاريخية بأكملها، فكنت أحس أنني أتكلم بلسان الجميع ، إلا أن الجوانب الشخصية و الاجتماعية و الوطنية قد فرضت نفسها على الكاتب فرضا"(2) .

فالطفولة مصدر و مفتاح كبير من مصادر مكونات التجربة ، وما يدفع الانسان إلى اللجوء إلى المرحلة الأولى هو قسوة و ظلمة الثاني(الوعي التجربة) ، فلم يكن قصد الجابري من سيرته إلا ليطرح التاريخ الاجتماعي لمرحلة مربها المغربي و مدى علاقة الذات الفردية بالمجتمع العام على اختلاف مفاهيمه(المغربي ، المغاربي ، العربي ، الاسلامي)، لذلك نجده لم يهتم لتقنيات الفنية للنص السيري ، إلى جانب طبيع أسلوبه العلمي ، وهو يتحدث عن ذاته ، لكن " الحفريات" في نفس الوقت تعبر عن واقع انساني عام ، فقد جعل من ذاته لها هوية و مرجعية اجتماعية و ثقافية ، لها تاريخها .

"فليس من عاداته في قراءة التراث نادرا ما يفتح المجال لما هو شاعري و متخيل، وخاصة في الترنيمة الشعرية الأمازيغية "(3) إلا أن المسألة مسألة تخصص لا غير "أنا من المنتمين إلى الفلسفة المنشغلين بالفكر النظري ، وليست لي مع الأدب أو مع المتخيل عموما علاقة تخصص تسمح لي بالكتابة فيه،إلا أن المقام كان مقام الحفرفي الذاكرة(4).

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص229 .
(2) نفس المصدر : ص230
(3) أنظر نفس المصدر : ص 235
(4) نفس المصدر : ص235.

إن الأنا الذي عاش في الماضي يختفي بالأنا النابعة من تجربة الكتابة ، وهذا ما يجعل الذات في السيرة الذاتية "خلقا جديدا " ، و الوقوف على أسلوب الكاتب لا يكون إلا في اطار دلالته على التكوين الداخلي ، وهذا يعني الميل إلى الذاتية التي تخلق"الأنا" ، فقد كان في نصه عصاميا ، فليس من اهتمامه الخوض في قائمة الأسماء التي تطلق على جنس أدبي معين " كل ما يطمح إليه ، هو توضيع الطريقة التي حاول بها قراءة مرحلة من مراحل حياته الشخصية "(1) ، وبهذا يريد أن ينقل النص بعلاقته بالتاريخ إلى علاقته بالذات .

لم يركز الكاتب في الحفريات على معطيات الذاكرة و مكونات الزمان و المكان التي تعطي للنص هويته ، وإنما على آليات القراءة من داخل النص لا من ربطه بالعالم الخارجي ، منبها إلى ترك الشكل الذي يحدد للنص ظاهره ، إلى ما يحمله من ايماءات سياسية و اجتماعية و ثقافية ، معتمدا في ذلك على على وسائل من أحداث و شخصيات و أفكار و انفعالات ، ولا يمنع من أن تكون تلك الوسائل في حد ذاتها غاية ، "فالأمر لا يتعلق بسرد تاريخي لوقائع حياة شخص ، يتوخى الاستقصاء ، ويتقيد بالتسلسل الزمني كلا إن الغرض من هذا هو أساسا القيام بعرض و تحليل مع نوع من التأويل"(2).

وبهذا لم يعد من المهم في السيرة الذاتية صدقها ووفاؤها للماضي المعاش ، بل دورها في البحث عن الهوية ، لأن السيرة الذاتية ستصبح هنا قصة ، المؤلف مؤول و القارئ مشارك له في التأويل ، "مع العلم أن السيرة الذاتية لا تستطع بناء الماضي كما جرى، كما لا يستطع كاتبها إعادة خلق الماضي موضوعيا"(3) .

السيرة الذاتية سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية لغرض ما ، فهي تجربة وجودية ، أما نص حفريات الذاكرة هو طريقة حاول بها الجابري أن يقرا بها مرحلة من مراحل حياته الشخصية بعرض وتحلي ل مع نوع من التأويل وما يوافق قصده من ذلك ، كما جاء في تقديمه للكتاب "الحفريات " ،هل يتعلق هذا بجنس في الكتابة جديد أم بمجرد سم آخر يضاف إلى قائمة الأسماء التي تطلبق على جنس أدبي معروف منذ قديم يسمى تارة بالسيرة الذاتية و أخرى بالإعترافات و الثالثة بالمذكرات

---

(1) الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، ص07

(2) أنظر نفس المصدر : 07 .

(3) انظر عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود ، السيرة الذاتية في المغرب ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء 2000 ص16.

و الكاتب بشموليته في الطرح يتفادى و ليس من طبعه التصريح ، يجعل النص يصدر حكمه وفق ما يقيمه المختصون من حيث أن النص السير ذاتي يتماثل فيه صوت السارد بصوت المؤلف ، فهي هنا سيرة ذاتية روائية بمعنى أنها تقترن و تكتمل بعنصر الخيال و تعمل فيها الذاكرة في انتقاء الأحداث بعينها و بال ربط فيما بينها و ترتيبها ،إذ يقول : " إن الأمر لا يتعلق بسرد تاريخي لوقائع حياة شخص يتوخى الإستقصاء ويتقيد بالتسلسل الزمني كلا " (1) - الذي يخدم الغرض - فرؤيته إلى العالم قصد التحرر من الجذب الايديولوجي ومن القصد الذاتي ، فهذا ما تتميز به بعض الأعمال الأدبية والفكرية ذات الت أثير الكبير في الشرائح من المجتمع ، رؤية تعكس الجدال والصراع الفكري و الثقافي الذي عاشته الشخصية .

فهل السيرة الذاتية هي "ذكر ما يستحق على وجه ما يحكى وينقل إلى القارئ من ذكريات تجسد وقائع الشخصية و كذا الاجتماعية العامة ، بحكم أنها تتراكم وتغطي بعضها بعض وتخزنه وتخفيه ؟"(2) ، فهو بذلك يعطي معنى للشخصية التي تعكس حقيقتها ونزعتها وفق ما ترسب في ذاكرتها بإعتبار الأثارالإجتماعية والنفسية التي تعطي استعدادا لنمو الشخصية .

إن الجابري في نصه يعمد على ذكر الأحداث التي جعلت منه الجابري وهو يتحدث عن زمن اللاكتابة "الطفولة" الوعي في زمن الكتابة ،لأننا نجده يردف قائلا "كذب من يدعي أو يعتقد أن الذاكرة تنسى أوأن ما بها يتقادم ويتلاشى ، كلا ثم كلا ، إنها تحتفظ بكل شيئ ، بما يعيه صاحبها وبما لا يعيه تحتفظ بالمشاهد والصور و الأصوات ، وكل المشاعر والإنفعالات التي بقيت في اللاوعي(3) .

"حفريات في الذاكرة " نص سير ذاتي ، يعكس شخصية صاحبه حتى فكريا وفنيا ، والأن لكل من يتصدى لكتابة سيرته الشخصية منهجا خاصا ، فهو نفسه جزء من السيرة الذاتية " (4)، إلا أني أخترت إسما لما كتبت يختلف عن الأسماء الرائجة تجنبا لكل لبس لقد تمت "حفريات في الذاكرة "وشرحت ما كنت أقصده بإستثناء التقيد بضرورات الكتابة ومنها الضرورة التي تفرضها اللغة والضرورة التي يفرضها الصدق (5)

---

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص07
(2) نفس المصدر: ص 07
(3) نفس المصدر : ص 174
(4) نفس المصدر : ص 204
(5) نفس المصدر : ص 231

الشخصية تنعكس كالذات تتجلى في النص السيري الذي يفرض نفسه على مقومات الجنس و إن اختفت ،" فإن فيليب لوجون حاول أن يصنف النصوص وأن يستخرج من خلال استقراءات قواعد أو ضوابط تكون بمثابة المفاتيح التي يتعامل بها الناقد ، و اكتشف هو نفسه أن "تأطير" نصوص السيرة الذاتية في قواليب معينة شيئ ينطوي على مغامرة كبيرة لا تسلم من الاخطاء "(1) ، هذاما يفسر البعد الثقافي والفكري الذي يبحث عن الحرية في المجال الذي تتحرك فيه الذات ،" لقد تحركت في المجال الثقافي الذي أنتمى إليه في عالم التخصص ، أعني مجال الفلسفة " (2) ، جعل حفريات في الذاكرة سيرة ذاتية في بنائها بامتياز .

(1) محمد عابد الجابري : حفريات في الذاكرة ص 228

(2) نفس المصدر : ص 228

الخاتمة

إن الذات تتعرف على نفسها مباشرة بوعيها المتمتع بالإرادة و القصد و بالحرية.

وقد تعرضت نظريات الإنعاس للكثير من محاولات التسطيح و الابتذال ، وكان في مواقف الكثير من الحقد و القليل من المنطق و الفهم ، و في أحيان كثيرة يعلنون فرحتهم بكون أن أدب المجانين من الكتاب و الشعراء انعكاسا لحياتهم الشخصية ، كانوا يلحون على عكس من هذه الجوانب ، أما حين كان المناضلون الملتزمون بقضايا شعوبهم الأساسية يعكسون التزامهم الذي هو شأن من شؤون حياتهم الشخصية ، أيضا فيما يبدعون من أدب وفن ، فكانت جميع أبواق المفترين ترفع عقيدتها منددة ، مشككة ، مشوهة .

فعلى الرغم مما تنكره الأنا من نحن ، فإن تلك الأنا / الذات السادرة تحكم وعي العالم من حولها ، حين ترسم الذات ، وحين ترسم الآخر الذ ي يجري مجرى الدم في العروق ، كما جاء في الكتابات المغربية التي طرحت اللاوعي الجماعي .

فمن الصعوبة أن نفصل فصلا تعسفيا بين الفرد من ناحية و المجتمع من ناحية أخرى ، فالأفراد برصفهم فاعلين ناشطين هم الذين يخلقون النظم و المجتمعات و الحضارات ، وهم الذين يمكنهم أن يهدموا ما شيدوا، لأن الوجود الحقيقي هو الوجود الفردي.

يتحقق الوجود الفردي عبر عالم خارجي ، إنه لا يكتفي بعزلته وبتر وظائف الاتصال التي تتحقق في الت أثير و التأثر التي تتجلى أساسا في علاقته مع الآخرين وتفاعله معها وعلاقته بالنظم الاجتماعية و الثقافية التي يجد نفسه فيها وفق مبادئ وقيم تفرضها سلطة الآخر ، الأخلاقي و العقائدي و العادات و الأفكار .

إن كتابة السيرة السيرة الذاتية هي تركيز على الفرد الذا ت وإغفال دور الواقع الموضوعي على أمان منهم ، فهي نتاج المبدعين وإن كان الإبداع جزءا من الحياة الاجتماعية ،.

فالمبدع لايمكن أن يعبر على مجتمعه وعصره إلا إذا كان ثمة تفاعل بوعي وتأثير ايجابي بين " أنا" المبدع و"نحن " المجتمع، ،موضحا صفة عصامية في الذات الواعية وهذا ما يعطي معنى الذاتية .

الذات في السيرة الذاتية تصحب معها تطو ر" فكرة " تتجلى في طبيعة الأحداث ، وإن لم نقل أنه ا في محاولة تحقيق توازن بين الثنائيات التي تبرر وجودها ،(الحب/الكراهية ، اللذة /الألم،الحياة / الموت،العلم / الجهل)

لكي تحصل على فنان حيادي ،عليه أن يتجرد من العاطفة و الانفعال و الشعور، ومن يزعم أنه يقف على الحياد فإنه يجانب الحقيقة .

إن الآخر للذات كالظل ، كيفما تجلت الذات في بعدها(الفكري ، الثقافي ، الأيديولوجي) ، فإن ذلك محكوم بتعدد الآخر، ف الذات من الآ خرين كالنون في كلمة (لنا) و لو غيبت النون (الذات) لأصبح الآخر في (لا) .

السيرة الذاتية كجنس أدبي يمثل جزء من الرواية يعبر عن الذات كجزء من الواقع بنظرة أحادية ، تنوب فيه الشخصية عن الآخرين في واقع النص ، أما الرواية فهي مسرح ، تقوم فيه كل شخصية بدورها ، فالأولى بميزة الخاص ، أما الثانية بالواقع العام المطلق .

اللغة كأداة ، تأخذ أشكالا و مستويات ، تحمل مدلولات و تكشف دواخل الذات (النفسية) المتولدة عن عوامل خارجية(المجتمع بالمكان و الزمان) ، لذا لا يمكن أن نبقي على دراسة النصوص من الداخل ، ومن ذلك فإن مفهوم النص لا يمكن أن يدرس كموضوع مغلق ، لأنه قد لا يكون سوى أنموذج لكيانات أكثر اتساعا و عمومية منه ، و هذا ما يعني أنه لا يتحدد إلا بالشبكات الخطابية التي يوجد فيها و التي تضمن له القراءة .

السيرة الذاتية لا تتحدد دائما بتناول مجمل الحياة الفردية ، بل وقد تكون في متناول بعض لحظاتها التي تشير إلى اكتمال معناها بواسطة الكتابة ، لأن النص السير الذاتي هو في الحقيقة معنى ، يريد الكاتب بلوغه أو إبلاغه حسب ما كان للكاتب من دوافع .

قائمة المصادر:

ـ القرآن الكريم .

ـ الجابري محمد عابد : حفريات في الذاكرة من بعيد ، مركز الدراسات الوحدة العربية،ط 1 بيروت1996.

قائمة المراجع العربية :

ـ أحمد سيد محمد ، الرواية الانسيابية و تأثيرها عند الروائيين العرب محمد الديب، نجيب محفوظ ، المكتبة الوطنية للكتاب ، الجزائر .

ـ إحسان عباس ، فن السيرة ، دار الشرق للنشر و التوزيع ، عمان الأردن

ـ أحمد طالب في كتابه جماليات المكان في القصة الجزائرية القصيرة ، دار الغرب للنشر .

ـ إدريس حبداري ، التأسيس للرواية المغربية من البنايات الفكرية إلى البنايات التخييلية الرحلة المراكشية – الزاوية في الطفولة نموذجا .

ـ إدواردو سعيد : العالم و النص و الناقد ، ترجمة عبد الكريم محفوظ ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000 .

ـ أحمد اليبوري : دينامية النص ط1 ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، الرباط 1993.

ـ آمينة العدوان : مقالات في الرواية العربية المعاصرة ،مطابع المؤسسة الصحفية الاردنية

ـ أمل التميمي : السيرة الذاتية النسائية في الادب العربي المعاصر ، المركز الثقافي العربي دراسة في نماذج مختلفة

ـ أحمد آفت عبد الجواد : مبادئ علم الاجتماع ،مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة .

ـ اسماعيل الملحم : التجربة الابداعية ، دراسة في سيكولوجية الاتصال و الابداع منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003

ـ بشير يخلف : وقفات فكرية ،حوار مع الذات...وخز للآخر ـ مقالات ـ دار الهدىللطباعة و النشر و التحليل ، عين مليلة، الجزائر2009

ـ بحراوي حسين : بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافي العربي ط1 1990 .

ـ بنور عائشة بنت المصورة : قراءات سيكولوجية في روايات وقصص عربية رؤى وانطباعات ، منشورات الخبرط2، 2007

ـ نبيل سليمان : اسرار التمثيل الروائي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2005

ـ البشير بويجرة محمد : بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري ، جماليات واشكاليات الابداع، ج2،دارالغرب النشرو التوزيع،ط2002/2001

ـ جبرا ابراهيم جبرا : تأملات في بنيان مرمري ، دار الرياض نجيب الريس لندن ط1 1988

ـ الجابري محمد عابد : نحن و التراث ، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ط6 ، 1993 بيروت

ـ حسين مونسي : فلسفة المكان في الشعر العربي ، قراءة موضوعاتية جمالية ، اتحاد الكتاب العرب 2002.

ـ حاتم البكر : كتابة الذات ، دراسات في وقائعية الشعر ، دار الشروق للنشر و التوزيع ط 1 – 1994.

ـ حبيب مونسي : الكائن و الممكن ، منشورات اتحاد الكتاب العرب

ـ حسين الصديق : الانسان والسلطة (اشكالية العلاقة و اصولها الاشكالية) منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق

ـ حسين محمد فهيم : ادب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوكني للثقافة و الفنون و الادب ، الكويت

ـ حسين يوسفي : المسرح و المرايا ، شعرية الميتا مسرح ، انشغالنا في النص المسرحي العربي و الغربي ، موقع اتحاد الكتاب العرب

ـ حميد حمداني : النقد الروائي و الايديولوجيا فن سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي ، المركز الثقافي المغربي بيروت ط1

ـ خليل الشيخ : السيرة و المتخيل ، قراءات في نماذج عربية معاصرة ، دار ازمنة للنشر 2004 ، عمان

ـ رشيد ياسين : دعوة إلى وعي الذات ، فصول في نظرية الدراما و النقد المسرحي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000

ـ سليمان حسين : الطريق إلى النص، مقالات في الرواية العربية، من منشورات اتحاد الكتاب العرب 1997

ـ سليمان حسين : مُضمرات النصِّ والخطاب ، دراسة ، في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي

ـ ساطع الحصري : اراء واحاديث في الوطنية والقومية، مركزدراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ط1985.2

ـ سماح محمد : الفينومينولوجيا عند هوسرل،دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر،دار الشؤون الثقافية العامةبغداد 1991.

ـ شوقي ضيف : الترجمة الشخصية لفنون الادب العربي ، الفن الشخصي ، دار المعارف ط4
ـ شوقي ضيف : البحث الأدبي ، دار المعارف ، ط6

ـ شعبان عبد الحكيم محمد : السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث – رؤية نقدية - ، دار العلم و الإيمان 2008 .

ـ شلتاغ عبود شراد : تطور الشعر العربي الحديث ، الدوافع، المضامين، الفن،قسم الغة العربية ،جامعة سبعا،عمان ط1

ـ صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، ميريت للنشر و المعلومات ، القاهرة ،ط1 2002

ـ صبري حافظ : البنية النصية للسيرة التحرر من القهر ، ملحق برواية الشطار ، دار الساقي ط 4 عام2000 .

ـ عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ، دار الثقافة ، بيروت .

ـ عادل فريحات : مرايا الرواية ، دراسة تطبقية في الفن الروائي ، من منشورات إتحاد الكتاب العرب2000 .

ـ عبد الحميد يونس ـ فتحي حسن المصري : في الأدب المغربي المعاصر ، مكتبة الدراسات الأدبية ،دار المعارف ط 1 .

ـ على فهمي : السيرة الذاتية و معايير الثقة "التاريخ الذي أحمله على ظهري" أنموذجا القاهرة ، دار الفكر و الفن المعاصر ، القاهرة .

ـ عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان .

ـ عبد القادر القط : في الأدب العرب الحديث ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة

ـ علي الراعي : شخصية المحتال في المقامة و الحكاية و الرواية و المسرحية ، كتاب الهلال

ـ عبد القادر الشاوي : الكتابة و الوجود،السيرة الاتية في المغرب ،افريقيا الشرق ، الدار البيضاء2000

ـ عبد القادر أبو هيق : النقد الأدبي العربي الجديد ، في القصة و الرواية و السرد ، اتحاد الكتاب العرب 2000

ـ عبد الله العروي : الأيديولوجيا العربية المعاصرة ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط 1 ، 1995

ـ عبد الله الحيدري : السيرة الذاتية في الادب السعودي ، الرياض ، دار المعراج الدولية للنشر 1998

ـ علي ريعور : أحاديث نفسانية واجتماعية ومبسطات في التحليل النفسي والصحة العقلية ، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

ـ عاصم حمدان : دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي ، نادي المدينة المنورة الأدبي 1997

ـ عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، مطبعة غريب ، ط4 .

ـ فوزي معروف : هكذا يصفون انفسهم ، شخصيات ومواقف ، منشورات اتحاد كتاب العرب 1997

ـ فيصل الاحمر ونمل دادة : الموسوعة الادبية ج 1 دار المعرفة 10 نهج عبد الرحمان ميرة باب الواد الجزائر

ـ فيصل دراج : الواقع و المثال ـ مساهمةفي علاقة الأدب و السياسة ـ دار الفكر الجديدة ، ط، 1 1989،

ـ كامل احمد : سيكولوجية الطفولة ،مركز الاسكندرية للكتاب دار المعارف ، 1998

ـ كمال بقداش : مادة الخيال ، الموسوعة الفلسفية العربية ، الجزء الأول معهد الانماء العربي 1986

ـ مارون عبود : المجموعة الكاملة في النقد الأدبي ، في المختبر ، مجلد 04 ، دار الثقافة 1979 .

ـ مصطفى عبد الغني : الاتجاه القومي في الرواية العربية ، مكتبة الأسرة ، الهنيد المصرية العامة للكتاب .

ـ محمد صابر عبيد : تمظهرات الشكل السير الذاتي ، قراءة في تجربة محمد القبيسي السير الذاتية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2005 .

ـ محمد حاج معتوق : أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت

ـ ميخائيل عيد :وجوه و مرايا ـشيئ من السيرة شيئ من النقد ـ اتحاد الكتاب العرب 1999.
ـ محمد السيد اسماعيل : بناء (الفضاء المكاني) في القصة العربية القصيرة ، دولة الإمارة العربية المتحدة ، م . ث و الإعلام 2002 .

ـ محمد توفيق الضوى : مفهوم المكان و الزمان في فلسفة الظاهر و الحقيقة ، دراسة في ميتافيزيقا برادلي ،منشأة المعارف بالاسكندرية .

ـ محمد الجوادي : مذكرات الهواة و المحترفين ، فن كتابة التجربة الذاتية ، دار الشروق ط 1 - 1997 .

ـ محمد رضوان : محنة الذات بين السلطة و القبيلة ، دراسة لأشكال القمع و تجلياته في الرواية العربية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2002 .

ـ محمد زفزاف : المرأة و الوردة ، الشركة العربية للناشرين المتحدين ط2 عام 1981 .

ـ محمد راتب الحلاق : نحن و الآخر ،دراسة في ثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث و المعاصر،(الشرق/الغرب ، التراث/الخوية ، الممكن/الواقع) ـ دراسة ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب 1997 .

ـ محمد السيد عبد الرحمن : مقياس موضوعي لرتب الهوية الأيديولوجية و الاجتماعية في مرحلتي المراهقة و الرشد المبكر ، دار قباء للنشر و التوزيع ، القاهرة ط1 .

ـ معن خليل عمر : نقد الفكر الاجتماعي المعاصر ، دراسة تحليلية و نقدية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1 .

ـ محمد السيد عبد الرحمن : مقياس موضوعي لرتب الهوية الأيديولوجية و الاجتماعية في مرحلتي المراهقة و الرشد المبكر ، دار قباء للنشر و التوزيع ، القاهرة ،ط2 .

ـ محمد غنيمي هلال : مدخل إلى النقد الادبي الحديث ، القاهرة ، مكتبة الانجلو مصرية،ط1

ـ محمد الشيح : التحليل الفاعل نحو نظرية حول الإنسان ، الشارقة ، دار الثقافة و الإعلام 2001 ط1 ص121

ـ محمد حسين فضل الله : الهجرة والاغتراب تاسيس فقهي لمشكلة اللجوء والهجرة مؤسسة المعارف للمطبوعات لبنان ط1 .

ـ محمد حسين هيكل : ازمة العرب و مستقبلهم ، دار الشروق ، القاهرة ط1 1990 .

ـ محمد شهين : افاق الرواية " البنية و المؤثرات " دراسة ،منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2001

ـ مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي ،مدخل الى سيكولوجيا الانسان المقهور،المركز الثقافي العربي ط9

ـ محمد تحريشتي : ادوات النص ، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب ،2000

ـ محمد ساري : الادب و المجتمع ، دار الامل للطباعة و النشر و التوزيع

ـ محمود عودة : اسس علم الاجتماع ، كلية الادب ، جامعة الشمس ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت،ط2

ـ مخلوف عامر: الرواية و التحولات في الجزائر ، درامة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية ، دراسة ، اتحاد الكتاب العرب ،2005

ـ محمود طرشونة : دراسات نقدية ، مباحث في الادب التونسي المعاصر، دراسات نقدية في مؤلفات المسعدي و المدني و الفارسي و خريف ، تونس 1989

ـ محمد توفيق المنوي : مفهوم المكان و الزمان في فلسفة الظاهر و الحقيقة ... دراسة ميتافيزيقية ، برادلي ، دار النثر و المعار

ـ نبيل سليمان : اسرار التمثيل الروائي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2005

ـ يقطين سعيد ، انفتاح النص الروائي – النص – السياق - ، بيروت 1989 .

ـ يحي ابراهيم عبد دايم : الترجمة الذاتية في الادب العربي الحديث كلية الاداب، جامعة عين الشمس ، دار احياء التراث العربي ، بيروت لبنان

ـ ياسين بوعلي : حقوق المراة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة ، دار الطليعة الجديدة، سوريا دمشق ط1 1998

قائمة المراجع الأجنبية المترجمة :

ـ غيور غني غاتشف : الوعي و الفن ، ترجمة د . نوفل ينوف ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب ، الكويت 1990 .

ـ رينيه ويليك : مفاهيم نقدية ، ترجمة ، جابر عصفور ، سلسلة عالم المعرفة ،فبراير 1987

ـ رينيك ويليك ـ أوستن وارين : نظرية الأدب ،ترجمة : محي الدين صبحي ، مراجعة : حسام الخطيب ،المؤسة العربية للدراسات و النشر ،بيروت 1987 .

ـ أرنست كاسيرار : مدخل إلى فلسفة الحضارة الانسانية ، ترجمة إحسان عباس ، دار الأندلس، بيروت 1961

ـ جاستون باشلار ،جدلية الزمان و المكان ، ترجمة غالب ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر .

ـ فيليب لوجون ، السيرة الذاتية ، الميثاق التارخي .

ـ جورج ما ي : السيرة الذاتية ، تعريب ترجمة محمد القاضي ، عبد الله صولة ، قرطاج بيت الحكمة 1992

ـ جون بول سارتر : ما الادب ، ترجمة محمد غنيمي هلال ، نهظة مصر للطباعة و النشر و التوزيع الاحالة ، القاهرة

ـ بيير زيما : سوسيولوجية النص بين الانتاج و التلقي ، ترجمة عبد الحق بتكمنتي ط 1 2005

ـ لبرد ياتيف : الحلم و الواقع ، ترجمة فؤاد كامل مراجعة علي ادهم ، القاهرة ، مطبعة اطلس 1961 سلسلة الف كتاب

ـ صنعة الرواية : ترجمة عبد الستار جواد ، منشورات وزارة الصحافة و الإعلام الجمهورية العراقية (الكتب المترجمة رقم 101) 1981

ـ ديفيد دينتشي : مناهج النقد الادبي بين النظرية و التطبيق ، ترجمة محمد يوسف

ـ آني انزيو : المراة الانثى بعيدة عن صفاتها ، رؤية جمالية للانوثة من زاوية التحليل النفسي ترجمة طلال حرب ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان

ـ مورا اندريه : التراجم و السير الذاتية ، ترجمة و تقديم و تعليق ، احمد درويش ، بالقاهرة، المجلس العلمى للثقافة 1999

ـ رامان سلدن : النظرية الأدبية المعاصرة ـترجمة، جابر عصفور ـدار قباء للنشر و التوزيع القاهرة1998

ـ ميخائيل بختين : الخطاب الروائي ، ترجمة محمد برادة ، دار الامان ، الرباط 1987

ـ روبير اسكاريت : سوسيولوجيا الأدب ، تعريب انطوان ، عويدات للنشر والطباعة بيروت لبنان

ـ جاستون باشلار : جدلية الزمان ، ترجمة ، خليل أحمد خليل ،الموسسة الجامعية للنشر و التوزيع ،ط3

ـ إيمان كريب : النظرية الاجتماعية ، من بيار روستر إلى هابر ماس ـ ترجمة محمد حسين غلوم ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت .

ـ جيل دولزـ كلير بارني : حوارات في الفلسفة و الأدب و التحليل النفسي و السياسة ترجمة عبد الحي أرزقان ـ أحمد العلمي ، دار غفريقيا الشرق .

الدوريات :

ـ مجلة الأعلام ، العددان 11 – 12 وزارة الثقافة و الإعلام ،دارالشؤون الثقافية العامة بغداد
ـ مجلة نزوى ،العدد62 افريل2010، الوادي الكبير مسقط ، عمان .
ـ المجلة العلمية ، معهد الادب و اللغات بالمركز الجامعي العدد 02.
ـ مجلة العلامات : النادي الدابي الثقافي بجدة ، حي الشاطئ ، جده ص.ب 5919 العدد 50 . ـ مجلة جامعة دمشق : المجلة ،العدد 26ملحق 2010.

المقدمة :

المدخل : الذات و الآخر و كتابة السيرة الذاتية

- مفهوم الذات
- مفهوم الآخر
- الذات و كتابة السيرة الذاتية

الفصل الأول : الذات و تجلياتها في الخطاب السير الذاتي المغربي.

المبحث الأول : دوافع الكتابة

- الدوافع الداخلية
- الدوافع الخارجية

المبحث الثاني : مضامين مشتركة في الخطاب السيري

- الاغتراب
- التمرد ظاهرة للتفرد
- الذات بين الأنا و النحن
- جدلية الذات في الكائن و الممكن

المبحث الثالث: السيرة الذاتية و أشكال التعبير

- الرواية السير الذاتية
- اليوميات
- الذاكرة المسرودة و المتخيل الذاتي

المبحث الرابع : اتجاهات السير الذاتية و قضاياها

- الرؤية النقدية
- الرؤية الانبهارية
- واقعية النص السير الذاتي المغربي

الفصل الثاني : قراءة في " الحفريات في الذاكرة " للجابري .

- دوافع الكتابة
- معنى العنوان
- مضمون النص و عناصر

المبحث الأول : حاضر الذات بين الماضي و المستقبل

- ماضي الذات و الزمن النفسي
- ألم الماضي وأحلام المستقبل
- ذات الفكر المبدع
- ذات الفكر الإصلاحي
- هوية الذات ومحاولة البحث عنها

المبحث الثاني : تجليات الآخر و تعدده

- سلطة الآخر المضمر
- الآخر الدخيل(الاستعمار)
- الآخر الظاهر
- المجتمع
- الضبط الاجتماعي
- الصراع

المبحث الثالث : تقنيات الكتابة في السيرة الذاتية

- اللغة
- البنية السردية في السيرة الذاتية
- تقنيات الرواية في الكتابة
- الدفاع عن الأنموذج السير الذاتي

الخاتمة :

قائمة المصادر و المراجع .

ملخص

السيرة الذاتية منبر عام يشتغل بالعالم المحيط بالذات انطلاقا منها باعتبارها كاتبة ،من حيث الدوافع الداخلية و الخارجية ، و علاقتها بالآخر من حيث ما يفرضه بحكم تجلياته كفكر و ثقافة و اجتماع،مما يثير في الذات الإغتراب و المعاناة، ذلك ما يجعل الذات في صراع دائم بحثا عن التحرر،كذلك الذات المغربية المعاصرة،التي طالما بعثت وجودها، ولا سيما الكاتب "عابد محمد الجابري" في " الحفريات في الذاكرة من بعيد"، فكانت الذات بفكرها الفلسفي و النزعة النقدية و التوجه الأصيل و القصد الاصلاحي ، في ذلك بعث لعالم خال مما يتنافى مع المألوف واتلاف الدخيل ،فأثارت في تجلياتها الآخر كيفما كانت، ولم تظهر في السيرة الذاتية إلا كما أرادت أن تظهر في الأسلوب و التعامل مع الأحداث من حيث التذكر و الترتيب حسب وقوعها،إلى جانب النزعة النقدية بحكم المرجعية الفكرية ظهر دفاعه عن الأنموذج انطلاقا من الحقائق ولا يهم القالب الفني الذي تطرح الذات ذاتها،ومن ذلك ما يعطي للذات ذاتيتها .

الكلمات المفتاحية:

الذات؛الآخر؛الخطاب؛الذاكرة؛ الزمان؛ المجتمع؛ القصدية؛ الجابري؛ المغربي المعاصر.